الجمهـورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة السانية وهران

كلية الآداب واللغات والفنون

منهج المستشرقين في نقد الرواية الشفوية

مذكرة تخرج لنيل درجة ماجستير

في الأدب العربي الحديث

الاستشراق

إعداد الطالب:

بن سعيد كريم

إشراف:

د.محمد بن سعيد

لجنة المناقشة

د. محمد بنسعيد مشرفا مقررا.

د.عز الدّين مخزومي رئيسا.

د. عبد القادر سكران مناقشا.

د. تيجيني الزاوي مناقشا.

السنة الجامعية 2009/2008

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء :

الوالدة الغالية .

روح الشهيد الخالدة.

أسـرتـي الكريمة .

خدمة الحرف و مقارعة الكلمة.

إليهم منـي جميعا هذا الجـهد المتواضع

عربون عرفان و تقدير.

مقدمة:

تعد الرواية بشقيها الشفوية والكتابية، من مصادر كتابة الشعر الجاهلي في عصور التدوين فهي، أي الرواية من الروافد التي اعتمد فيها على نقل الموروث الأدبي شعرا كان أم نثرا ، ولما كانت الرواية المكتوبة لم ترق درجة إلى مستوى مرتبة الرواية الشفوية في الجانب العملي، كان الأخذ بها أقل لعوامل نذكر من أهمها :

1- إن جانب الخطية كان محصورا - تداولا- ، في العصر الجاهلي لعدم الاستقرار وطبيعة الترحال التي ميزت حياتهم لغايات تتعدد تحت طائل الباعث الاقتصادي، أو الاجتماعي أو الثقافي .

2- إثارة الحروب وما ينجر عنه من تبعات ، تؤدي هي مجتمعة إلى عدم التعاطي طبيعيا مع الكتابة.

3- إن أدوات الكتابة في هذه الفترة ،لازالت لم تلق سبيلها إلى الرواج بالكيفية التي تؤهل لترسيخ فعل الكتابة؛ لان ما كان مشاعا من أدوات المكتوب لم يخرج عن دائرة البدائية.

إلا أن ما ذكر من تعليلات ،لا يفهم منه على أن مساحة الرواية الكتابية منتفية نفيا كليا ؛ لأن هناك من المؤشرات، ما يدل على أن الكتابة كانت متداولة، ولعل الآثار المكتوبة التي وجدت على جرائد النخل وجلود الحيوانات وغيرها والنقوش المحفورة على الحجارة وعادة تعليق المعلقات الشعرية والعهــود والمواثيق على الكعبة، كل ذلك يعزز الحجة بما لا يدع مجالا للشك على قدم عنصر الكتابة، وإن جاء فضاؤه ضيقا على خلاف الرواية الشفوية التي وجدت الفضاء رحبا ،أمام انكماش حيز المقيد وتجسدت رحابة الشفوية توظيفا ، فكان لها النصيب الأوفر في نقل الموروث الأدبي الجاهلي الذي يحتل فيه الشعر القسط الأكبر فغدت الرواية الشفوية فاعلة في التواصل السماعي، رشحتها لاعتلاء هذه المكانة، أسباب نأتي على ذكر أهمها:

1- إن المجتمع الجاهلي كرس الشفوية في تمظهراته الخطابية، لما لها من وقع في نفسية العربي .

2 – سهولتـها في التداول فيما بين القوم، فكانت رسولهم في المجالات جلها، ومنه مضمار الشعر .

3- احتراف الرواية كثقافة شعرية فالشاعر قد يصبح راوية لنفسه كما قد يلجأ إلى راوية آخر يذيع عنه شعره وسط المجتمع الجاهلي في قبيلته نفسها أو في القبائل الأخرى ، قد يكون هذا الراوية من قبيلته هو أو من غيرها .

أسباب قد تتعدد إلا أنها تلتقي في تغذية الثقافة الشفهية كخصوصية من خصائص المجتمع الجاهلي شأنه شأن أمم عصره.

لما تقدم، أضحت الرواية الشفوية تتصدر عمل تناقل الموروث الأدبي بعامة والشعري بخاصة.

الملاحظ على الدراسات التي تناولت بالبحث موضوع رواية الشعر الجاهلي، أنها لم تحطه شمولية ، وأن جانبا مهما منه غطاه النسيان أو قل التناسي حيث أصبحت المنتخبات الشعرية ، هي المعنية بالدراسة فأسقطت من الشعر كثير من الحلقات التي تركت شرخا لازالت معالمه قائمة في الثروة الشعرية الجاهلية إلى حد اليوم ،وبدت حلقات الشعر غير موصولة بعضها بعضا، فلم يكن بوسع باحث اليوم الوقوف على هذه المغيبات، وهو ما يؤجج لدينا اليوم حسرة الضياع ؛لأن الأمر يتعلق بديوان الأمة العربيـــة، وهو في الوقت ذاته رافد من الروافد الذاكرتية الذي يعد معينا خصبا تستقي منه العبقـرية الشعرية العربيـة والجوانب الحياتية المختلفة للأمة العربية في بيئاتها الأولي .

فما هو جدير بالاعتناء اليوم ،هي الثروة الشعرية العربية لفترة ما قبل الإسلام، تمثلت في بعض المنتخبات ودواوين القبائل والدواوين المفردة وبعض الأبيات المعزولة، مادة كانت هي فضاء لمحمول الرواية الشعرية .

إن الدارس لفكر الاستشراق الحديث ،يذهب به الظن إلى أنه كان يحمل كثيرا من التحامل على حضارة الشرق لتخريج ،قد يبدو حضاريا، وهو ما فسر بعض منه في الشك في الموروث الحضاري ،الذي يمثل فيه الشعر إحدى دعاماته، فجاءت أطروحاتهم تتعدد وتتباين بتعدد وتباين رؤى أصحابها لاختلاف مشاربهم ،فكان من ذلك

ما احتلته الرواية الشفوية، من نقود فجاء البعض منها موضوعيا، أثرى الدراسة وسلط عليها أضواء أنارت كثيرا من المساحات التي ظلت إلى وقت قريب يخيم عليها الظلام وتغشوها الضبابية فعدت إضافة نوعية في القراءة الغيرية للموروث الشعري العربي ، من حيث ما هو منهج وما هو مضمون ،لا ينكرها إلا جاحد ،إلا أنه وفي الوقت نفسه طالعتنا رؤى تختلف تصورا عن سابقتها، فالشك يلازم الرواية من مبتدئه إلى منتهاه، دون الوقوف على إنشاء استثناءات، تطبع الدراسة الموضوعية بالطابع العلمي، وهو ما سرب إلى أذهاننا جملة من التساؤلات ظهرت فيما يلي :

- ما منهج المستشرقين فيما ذهبوا إليه من رأي ؟
- ما الخلفية المعرفية التي انطلقوا منها ؟
- ما الغايات التي رسمت لذلك ؟
- ما نقاط التلاقي والاختلاف في هذه الدراسة ؟

تساؤلات تبقى تثير كثيرا من الشجون ،لما لها من صلة وثيقة بالموروث الشعري الجاهلي وعلى وجه التحديد ما تعلق بجانبه الروائي في طبعته الاستشراقية .

كان من دواعي اختيار موضوع نقد الرواية الشفوية في منهج المستشرقين دواع عدة ،منها أن لي ميولا ليست توصف بالقصيرة بموضوع الشعر الجـاهلي ،لأنه مصدر إلهام الشعرية العربية ورافدها الأول، والوقت قد أتيح للاستزادة بحثا بما يثلج الصدر ويوسع أفق المعرفة .

اهتمام المستشرقين المتزايد بالموروث الأدبي العربي ،ومنه الشعر الجاهلي، حركية أوصلت خيوطها أجيال من المستشرقين، تعاقبت بحثا، تعددت فيها الأطروحات، فاختلفت كما اتفقت في مواطن أخرى في ثوبها المنهجي الحداثي الذي أحكم الطرح، وغدا يفرض نفسه على الساحة النقدية للأدب العربي، فأصبح الاستشراق في مرحلة من المراحل ،هو الخصم والحكم في الوقت ذاته لغياب النقود العربية التي لم تواكب هذا الزخم الثقافي الوافد من الجهة الأخرى، وإن حصل، فهو متأخر غير راق إلى درجة هذا المد الاستشراقي .

كما أن هناك عاملا آخر، وهو جوهري ،تمثل في اقتراح هيئة المجلس العلمي الموقر علي هذا العنوان كأطروحة لرسالة الماجستير، فتقبلتها بالصدر الرحب، فكان أن اجتمع الذاتي بالموضوعي كمحصلة لسبب الاختيار.

إن المنهج الذي رسمته لهذه المقاربة - كما بدا لي- ،هو المنهج المركب، وذلك بحكم طبيعة الطرح الذي يقتضي تداخل أكثر من منهج، فقد تجدني متنقلا بين المنهج ،الوصفي والتاريخي ، أو التحليلي أو المقارن أو النفسي ...، وذلك بحسب ما يمليه واقع الدراسة .

فرصدت الخطة التي رأيتها تقارب الإحاطة بالموضوع فجاءت كالآتي :

مدخل، تتناول بالحديث خطاب الاستشراق الذي أقحم نفسه في النبش في التراث العربي الإسلامي ، فصار لزاما علينا مقارعة هذه الحركية ، ثم الحديث عن الرواية والتدوين ، تدوين الشعر الجاهلي في ظل حركية شملت تدوين مختلف العلوم الأخرى، كاللغة والنحو والمغازي والسيرة النبوية الشريفة والأنساب. فالفصل الأول الذي خصص للرواية العربية وما صحبها، من نقد عربي قديم، كنا نرى أنه يمثل العمل التأسيسي الذي حامت في أجوائه الدراسات الاستشراقية كلها، ومن دون أي استثناء يذكر. فالفصل الثاني خصص للحديث عن المستشرق نودلكه، وذلك بعرض آرائه ثم نقدها ، ثم العمل نفسه مع الفصل الثالث والمستشرق اهلوارد ، وفي الفصل الرابع مع المستشرق مرجليوث ، والفصل الخامس مع المستشرق بلاشير، لننهي الخطة بخاتمة ، جاءت عبارة عن ترسبات واستخلاصات.

اعتمد هذا التصور على مرجعية عربية وأخري مترجمة ، كان من أهمـها، موسوعة الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي والمزهر للسيوطي، والكامل للمبرد والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ والشعر والشعراء لابن قتيـبة، وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، وآراء المستشرقين، حول صحة الشعر الجاهلي، للدكتور عبد الرحمن بـدوي ،ومصادر الشعر وقيمتها التاريخية للدكتور ناصر الدين الأسد ، ومجلة الجمعية الملكية الأسيوية ،عدد يوليو 1925 ، وفلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، للدكتور، احمد سمايلوفيتش، وتاريخ

الأدب العربي العصر الجاهلي للدكتور شوقي ضيف ،والشعر الجاهلي ،حصاد قرن للدكتورعفيف عبد الرحمن ، وتاريخ الأدب العربي لريجيس بلاشير، وأصول الشعر العربي للدكتور، يحي الجبوري.

كانت هذه المرجعية مفاتيح، أمام منغلقات الخطاب النقدي الاستشراقي إلي غيرها من التوثيقية التي لا يسمح المقام بذكرها كلها في هذا الفضاء، هذا لا يعني أنني لم أجد صعوبة، فهي حاصلة تمثلت في عدم الوصول إلي ما انطلق منه المستشرقون المعنيون بالدراسة من مراجع ، فهي غير متداولة اليوم في مكتباتنا، وإن تداولت فلم نتمكن من الوصول إليها برغم الجهد المضني، ضف إلي ذلك عائق اللغات الأجنبية خاصة الإنجليزية والألمانية، مما جعلنا نركن إلي النص المترجم.

يبقي في الأخر الإشادة بالجهد المضاعف الذي خصصه لي من وقته الثمين في النصح والتوجيه والإشراف، منذ البدء إلي المنتهي ،فإليه مني تقدير الطالب اعترافا بالفضل لأستاذي الدكتور، محمد بن سعيد ،دونما أن أنسي أساتذتي الجـــامعيين الذين أشرفوا على تكويني، فوجدت فيهم بسطـة العلم ورحابة الصــدر وعمق التجربة، فإليهم مني جميعا أسمى آيـات التقدير والعرفان وجميـل الشكر.

"إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ "[1].

[1]- سورة هود الآية : 88 .

الاستشراق :

إن ميدان الاستشراق, يبقى من الميادين التي تعبر عن الرأي الآخر في الحياة الفكرية للأمة العربية الإسلامية على مر حقب زمنية متعاقبة, مما ترتب عنه ترسبات ؛إن سلبا أو إيجابا وهو ما ظهر في الدراسات التي اتخذت من الاستشراق تخصصا لها:"1

"فقديما أخذ الاستشراق العلوم والآداب والفنون عن العرب ونقلها إلى الغرب حيث أقام نهضته العارمة على دعائمها وحديثا أخذ الاستشراق الأفكار والنظريات والآراء الغربية المؤسسة على ثقافة العرب فردها إليهم مؤثرا بذلك في نهضتهم المعاصرة ابلغ تأثير"2.

:"من العوامل التي أسهمت في استجلاء ظاهرة الاستشراق والتأسيس لها هم المستشرقون أنفسهم فهم الذين سعوا بكل تفان في ترسيخ هذه الظاهرة إلى أن باتت حركة فكرية مستقلة بذاتها بما تتوفر عليه من خصوصية في الطرح "[1]

ما اهتديت إليه في خضم ما تلاطم من موجات الاستشراق بدواخلي واصطراعها في فضاء فكري ، هو أن الاستشراق واقع قائم المعالم بذاته تمكن من أن يلج ساحة فكرنا وتصورنا، إذن فلا بد من مواجهة هذا القدر المحتوم بفكر مضاد مشاد بنيانه على الحصانة الثقافية التي تكسبه المناعة، ردء للوقوع في شراك النيات المبيتة لكثير من المستشرقين وما يبطن فكرهم من سم مدسوس في ثنايا ما يبثونه على شكـــل فكر بطريقة أو بأخرى ،تصبو في غالبها إلى النيل من حضارة لا يروق لهم كفكر مستبد يعمل على نسف ودك المقومات الحضارية للآخر، تمهيدا للاستحواذ على الفكر بأن يجعله قابعا في مكانه يتغذى مما عند الآخر من هذه الجهة، نجد أن نيران الاستشراق قد تأججت واشتد أوارها تكالبا على إذكاء الفكر الغربي الدخيل ،ومنه نجد أن نفائس وعيون تراثنا العربي الإسلامي اليوم تركن في

---

1 – د/ احمد سمايلوفيتش،فلسفة الاستشراق و أثرها في الأدب العربي المعاصر، ص:98.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[3] - د/يحي مراد ، افتراءات المستشرقين علي الإسلام والرد عليها ،ص: 04.

خزائن الغرب كـ: باربس لندن ليدن ... لا نصل إليها نحن أصحابها وإن تم ذلك فبعد صياغة غربية ولون هو كذاك لتخدم أغراضهم ليس إلا !.

إلا أنني ومن وجهة موضـــوعية وحتى لا أكون أسير النظرة أحادية الطرح ،لابد لي أن أقر ،أن حركة الاستشراق لا تنسحب عليها كلها هذه الأحكام فليست جميعها معول هدم في صرح الحضارة العربية الإسلامية، فكثير من الأطروحات والخطابات الاستشراقية نادت بفضل حضارتنا عليهم وبما أسدته من خدمــات عظيمة الشأن في ربط وإيصال حلقات التواصل الحضارية الإنسانية ،وكبينة على ذلك يمكنني أن أقف على مجهودات المستشرقين في تحقيق وبعث التراث العربي وإثراء المكتبة العربية بالإضافات هذه على اختلاف مشاربها وتعدد اتجاهاتها خاصة من حيث تطبيق المناهج الغربية الحداثية في تناول التراث إلخ ...

وكمحصلة لما تقدم نفضي إلى نتيجة مؤداها، أن الفكر الاستشراقي، لم يكن كله متحاملا على موروثنا الحضاري بعامة والأدبي بخاصة ،لأن هناك من الدراسات -، وإن قلت-، تنشئ الاستثناء ،ولت وجهها شطر الموضوعية، فيما ذهبت إليه من طرح في الفكر وما رسخته من مناقشة الفهومات، كما أنه في الوقت ذاته لابد للغير، من أن يتذهن أن حضارتنا ليست مستنسخة لحضارتهم لاغية ، لنفسها، والحاصل أن التثاقف والتفاعل الحضاري الإنساني، تلك طبيعة متأصلة في التلاقح الحضاري في خضم الاحتكاك الحضاري ،في جانبه الإنساني الذي يتجاوز حدود الجغرافيا والتاريخ ،كما يتجاوز في الوقت ذاته منطق العرق واللون والتعصب المقيت.

تدوين الشعر الجاهلي :

لا يمكن الحديث عن تدوين الشعر الجاهلي بمعزل عن حركية التدوين بصفة عامة لكثير من العلوم ، فالسياق الطبيعي يفرض علينا شمولية الطرح، فلا يمكن لنا طرق تدوين الشعر الجاهلي، دون التوطئة له بتناول ظاهرة التدوين التي نشطت لتطال الدين من:حديث نبوي شريف وما تعلق به لاحقا، من فقه وتفسير إلى جانب المغازي وسيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعلوم اللغة، ثم نحط الرحال عند تدوين الشعر الجاهلي، حتى تكتمل حلقات تصورنا عن ظاهرة التدوين التي شهدها المجتمع العربي كظاهرة فكرية رسخت

لفعل الكتابة وتقييد العلوم على اختلافها وتنوعها والمرور من المرحلة الشفاهية- تجوزا-، إلى مرحلة الخطية والكتابة قلت الشفاهية- تجوزا- ؛لأننا كما سنرى أن فعل الكتابة يضرب بجذوره في القدم في عمق تاريخ الأمة العربية الفكري والثقافي، منذ مئات السنين قبل ظهور الإسلام ؛ لأنه لا يعقل أن تكون الشفاهية وحدها مصدرا لتناقل الموروث الثقافي، هذا الكم المتلاطم لمختلف الفنون والمعارف، وبأن يصلنا بهذه الغزارة، دون أن يكون للكتابة دورها الحاسم ! في خضم هذه المسيرة الحضارية، أترك الإجابة عن هذه بشيء من التفصيل عند مناقشة الرواية الشفوية، كمصدر من مصادر نقل الموروث الشعري الجاهلي.

إن تدوين الموروث الثقافي، يمهد هو في ذاته للحديث ،عن تدوين الشعر الجاهلي ،فلا يمكن بأي حال من الأحوال ،فصل الشعر عن علوم الدين، كما لا يمكن إبعاده عن علوم اللغة والنحو, فالشواهد الشعرية حاضرة في إطار السياق العام ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن هذا التدوين العام, سواء أكان تفسيرا أم حديثا أم لغة أم أدبا عاما ، يشتمل في طياته على شعر جاهلي كثير، استبنا لهذين الأمرين مجتمعين ضرورة الإلمام بأطراف من نشأة التدوين[1]. . .

وفي المنطلق يتسرب إلى الذهن، السؤال الآتي:

ما روافد التدوين؟ ما الدعائم التي اعتمد عليها؟, لعله ولمقاربة الإجابة في المجال هذا، وجب لنا التحدث عن وسائل التدوين ، التي لا تقوم لها قائمة ،إلا إذا توافرت وتهيأت أسباب وجودها ولعل أولها:

-الصحيفة: ويعرف عن العرب، أنهم عرفوا هذا الضرب في تعاملاتهم وأنها عرفت سبيل التداول فيما بينهم، يقيدون عليها كتاباتهم ومختلف علومهم وما يعزز هذا الرأي مقولة علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه- :" من يشتري علما بدرهم فاشترى الحارث الأعور صحفا بدرهم ثم جاء بها عليا فكتب له علما كثيرا".[2]

وغير هذا كثير لا يتسع المقام للتفصيل فيه عرف من اشتهر بهذه التجارة والوراقون جنبا إلى جنب مع النساخين الذين احترفوا هذا الصنيع، كما أن هناك وسيلة أخرى ،هي

[1] - د/ ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ص : 134.

[2] - المرجع السابق، ص ص : 135-136.

الدفاتر من المفردات التي تحمل دلالة الكتابة في تعاطي العرب الكلامي فعن عمر- رضي الله عنه- ،عندما أقبل عليه بنو عدي يكلمونه في شأن ترتيب عطائهم في الديوان :"بخ بخ بني عدي أردتم الأكل على ظهري لأن أذهب حسناتي لكم لا والله حتى تأتيكم الدعوة وان أطبق عليكم الدفتر"[1].

يعني أن تكتبوا آخر الناس، كما وردت اللفظة بالدلالة ذاتها في مواطن أخرى ،مما يدعم رأينا أنها كانت هي الأخرى مما استعمل كأداة في التدوين، كما نجد ضربا آخر من الوسائل اعتمد إلى جانب الدفتر، ألا وهو الكراسة عن ابن الأعرابي :"كرس الرجل إذا ازدحم علمه على قلبه،والكراسة من الكتب سميت بذلك لتكرسها.

كما تعرف مجموعة الصحف أو الأوراق كراسة ؛ قال إبراهيم : وما فرغ علقمة ابن قيس النخعي المتوفى سنة 62 من مصحفه حتى بعث إلى أصحابه الكراسة والكراستين والورقة والورقتين، وهنا واجدون نحن مطية من مطايا التدوين ممثلة في الكراسة، وهي لا تختلف عن استعمالاتها اليوم.

إلى جانب أداة أخرى, هي الكتاب التي لازال مدلولها وباللفظة نفسها، تحيل على فعل الكتابة، إلى أن الاستعمال الشمولي لكلمة الكتاب قد يمتد، لأن يطال فضلا عن المكتوب الكتاب الديني المقدس، من :توراة وإنجيل وقرآن كريم[2].

ومما يرسخ الاعتقاد على انتشار ظاهرة التدوين ،هو اهتمام العرب بهذه الظاهرة منذ القرن الأول، من أن خالد بن يزيد بن معاوية، وقد كان خطيبا شاعرا وفصيحا جامعا وجيد الرأي، كثير الأدب، قد انصرف إلى العلم وتأليف الكتب وترجمة بعضها إلى العربية، فكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء[3]

فالمسح الاستقصائي التاريخي لحركية التدوين ،يفضي بنا إلى أن القرن الأول الهجري كله ،من بدايته إلى نهايته، شهد رواج الكتابة في الأسواق، مما شاع عنه ،انتشار المكتوب الذي أفرز ظهور طبقة القراء وانتعاش تجارة الصحائف والكتاب ككل.

---

[1] - السابق، ص: 138.

[2] - نفسه، ص:139.

[3] - المرجع السابق، ص: 141.

تلك كانت نظرة عجلى ،عن التدوين بشكل عام ،تكون مدخلا طبيعيا للحديث عن تدوين الشعر الجاهلي.

تبقى هناك الإشارة التصحيحية للمغالطة التي وقع في شراكها كثير من مؤرخي الحركة الثقافية ،خاصة المستشرقين منهم، من أن تدوين الحديث والتفسير واللغة والأنساب والشعر، كان مع نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين, والأصح أنه كان قبل ذلك بما ينيف القرن باحتساب عامل الزمن[1] وما دام المقام لا يتسع بحثا للخوض في تدوين الحديث والفقه والتفسير والمغازي والسيرة، فسأكتفي فقط حديثا، عن تدوين علوم اللغة العربية والشعر الجاهلي وذلك حصرا للموضوع، حتى تكون لي متكأ أستند إليه لمقاربة مادة بحثي، والتي هي نقد منهج الرواية الشفوية عند المستشرقين، وسأبدأ بـ :

1- تدوين علوم اللغة، في البدء، أقر منهجا بصعوبة الفصل، بين الأخبار والسير والمغازي وعلوم اللغة والشعر؛لأنها كانت ترد متداخلة ،لا يمكن تناول الواحدة بمعزل عن الأخرى، وسأسعى جهدي لأستبين خيط بحثي الرفيع الذي أعلم مسبقا، أنه لا يقوى وحده على حياكة هذا النسيج المتشابك، فأنت تائه بين الخبر وضربه وتفسير القرآن الكريم والوقوف على بيانه والشعر وسحره ، في فعل التدوين الذي جمع كل هذه الأجزاء المتداخلة، ومن ذلك أن العرب، كانوا أحوج ما يكونون إلى مصادر الشعر الجاهلي لفهم القرآن الكريم : "فقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال على المنبر ما تقولون فيها يقصد قوله تعالى: "ويأخذهم على تخوف" فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال : "هذه لغتنا"، التخوف: التنقص فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها فقال: نعم قال شاعرنا أبو بكر يصف ناقته :

تخوف الـَرحـْلِهُنها تـَ ◌َ امكا قَردا كما تخوف عود النبعة السفن[2]

فقال عمر: "عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا : وما ديواننا ؟قال : شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم"[3].

1 - نفسه ، ص: 142.

2 - تفسير البيضاوي، سورة النحل، الآية: 46.

3 - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ،ص : 152.

و الشأن نفسه عن ابن عباس -رضي الله عنه -، الذي كان يحض على توظيف الشعر الجاهلي لفهم القرآن الكريم، فمن قوله في ذلك :"وإذا سألتم عن شيء من غريب القرآن في الشعر فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب"[1]

وفي المجادلة : "يا بني وفي حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي لبنيه إني قد أمجدتكم في أمهاتكم،وأحسنت مهنة أموالكم، وأني ما جلست في ظل رجل من ثقيف أشتم عرضه.والناكح مغترس فلينظر امرؤ منكم ،حيث يضع غرسه والعرق السوء قلما ينجب ولو بعد حين. فقال ابن عباس: يا غلام اكتب لنا هذا الحديث".[2]

هذه الأدلة وغيرها كثير, تفصح على أن الشعر الجاهلي، خالط شرح القرآن الكريم وربما في مواطن أخرى، فسر الحديث، كما كان من الاستشهاد في السيرة النبوية الشريفة والفقه لإزالة كثير من اللبس، الذي غشي الفهم والمعنى، فكانوا نوافذ إطلالة لتزيل بنورها هذه الغشاوة.

تبقى الإشكالية بعد كل ذلك ، هو هل وجد تدوين الشعر الجاهلي استقلاله كما دون الحديث والتفسير والفقه وكذا السيرة والمغازي؟. أم أن الأمر كونه لا يعدو كاهتمام من قبل المدونين إلا مع بداية القرن الثاني الهجري!

ولفك شفرات هذه الإشكالية ، وجب لنا استقراء مجهودات عالمين من علماء الرواية ، والأمر كله هنا يتعلق بأبي عمرو بن العلاء وحماد الراوية، فبنهج هذا الاستقراء، سنركن إلى حقائق مؤداها؛ أنهما من أوليا الشعر الجاهلي كثيرا من الجهد والاعتناء ، كما أنهما تجاوزا الشفهية في هذا الانشغال، إلى ما هو مدون مكتوب قبلهما ،علاوة على ما كتباه هما بنفسيهما ،نقلا عن الأعراب وغيرهم ممن مارسوا الرواية الشفوية ردها من الزمن.

نجد أن أبا عمرو بن العلاء، قد بلغ شأوا عظيما في الإقبال على الشعر الجاهلي، حتى قال فيه الأصمعي : "جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته.يحتج ببيت إسلامي"[3] .

---

[1] -السيوطي، المزهر، ج 2، ص : 302.

[2] -الجاحظ، البيان والتبيين، ج. 2، ص: 68.

[3] - المصدر السابق ، ج 1 ، ص:321.

لقد اهتم أبو عمرو بن العلاء بما هو مدون مكتوب، وبالدرجة نفسها بما هو محفوظ عن طريق الرواية الشفهية.

قال شعبة: "كنت أجتمع أنا وأبو عمرو بن العلاء عند أبي نوفل بن أبي عقرب فأسأله عن الحديث خاصة ويسأله أبو عمرو عن الشعر واللغة خاصة فلا أكتب شيئا هما يسأله عنه أبو عمرو ولا يكتب أبو عمرو شيئا مما أسأله أنا عنه "[1].

يعرف عنه ؛ أي أبو عمرو بن العلاء، أنه اهتم بالتدوين إلى حد أن كتبه ملأت بيتا إلى قريب من السقف ثم أنه تقرأ فأحرقها كلها، فلما رجع بعد إلى علمه الأول، لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه . وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية".[2]

وأما ما يتعلق بالراوية الثاني ،هو حماد الراوية. فالمعروف عنه أن بطون الكتب التي جمعها، كانت تحوي أخبارا عن الجاهلية في النسب والشعر، منها ما خطه هو بنفسه وأخرى كتبت من لدن غيره، استطاعت أن تسدي له خدمة جليلة في مجال التدوين.

قال حماد الراوية : "أرسل الوليد بن يزيد إلي بمأتي دينار وأمر يوسف بن عمر بحملي إليه على البريد ، قال : فقلت : لا يسألني إلا عن طرفيه ، قريش وثقفي؛ فنظرت في كتابي قريش وثقيف . فلما قدمت عليه، سألني عن أشعار فأنشدته منها، ما استحسنتهم قال أنشدني في الشراب وعنده وجوه من أهل الشام فأنشدته"[3].

ما جمعه حماد، من تب حول الشعر الجاهلي، جعل الوليد بن يزيد بن عبد الملك يبيمم صوبه ،عندما عزم لى جمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، يستعير من حماد ومن جناد بن واصل الكوفي ما عندهما من الكتب والدواوين فدونهما عنده ثم رد إليهما كتبهما"[4] ...، "ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه فبلغ في العلم ما بلغ[5].

---

[1] - نفسه، ج 1، ص: 321.

[2] - نفسه، ج 1، ص: 321.

[3] - الأصفهاني، الأغاني ، ج06 ، ص : 94.

[4] - ابن نديم ، الفهرست ، ص: 134.

[5] -الأصفهاني، الأغاني، ج06 ، ص: 87.

وكان أبو حاتم السجستاني ،على اتصال ببعض كتب حماد ،حول الشعر الجاهلي مما يفند مزاعم من توهموا ؛ أن حمادا لم يكن على صلة بإنشاد الكتب ،وما يستقى من تدوين شعر الأنصار زمن الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب - رضي الله -، عنه في رواية عبد الله بن الزبعري السهمي وضرار بن الخطاب الفهري ،عند إنشادهما حسانا بن ثابت ، شعرا قيل قبل الإسلام ، مقولة عمر - رضي الله عنه -: "إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئا دفعا للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم فأما إذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به. فدونوا ذلك عندهم. قال خلاد بن محمد :" فأدركته والله وأن الأنصار لتجدده عندها إذا خافت بلاه"[1] .

وكذا هو الشأن للحكام الأمويين ،أمثال الوليد بن يزيد الذي اتكأ على ما كتبه حماد وجناد في تجميع ما تعلق ب : شعر وخبر ونسب العرب والأمر هذا لم ينفرد به الوليد بن يزيد وحده بل نجد أن غيره من الخلفاء الذين سبقوه في العهد الأموي ،قاموا بالعمل نفسه. فقد كان للوليد بن عبد الملك كاتب خاص نصبه لكتابة المصاحف والشعر والأخبار وهو خالد بن الهياج[2].

وما يعزز هذه الفرضية، فرضية كتابة الشعر الجاهلي ،هو ما كان يشرف عليه الخليفة معاوية بن أبي سفيان ،من منتديات فكرية وثقافية لما يقرأ على مسامعه؛ من دفاتر وكتب عليها وقائع وأشعار وأخبار العرب من بينها أحاديث شرية عن وقائع العرب وأخبارها وأشعارها فكان معاوية يأمر أهل ديوانه وكتابه أن يوقعوا هذه الأحاديث ويدونوها في الكتب وينسبوها إلى عبيد بن شرية[3].

وحلقات الاستشهاد قد تطول بنا، وبما لا يسمح به السياق ،أن نأتي على كل ما ورد ذكره في المقام هذا، إلا أنني أستسمح نفسي بإضافة أدلة - من وجهة نظري- ،تقيم الحجة الدامغة على أن الشعر الجاهلي - بعضه- ،كان مقيدا مدونا ،وهو :

---

[1] - ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلية وقيمتيها التاريخية ،ص 158.

[2] - السابق، ص 158.

[3] - نفسه ، ص: 159.

أولا : ما جاء في ثنايا بعض شعر الفرزدق،أكتفي فيه ببيت شعر واحد أراه داعما لهذه الفكرة وهو الذي قال فيه :

دفعوا إلي كتابهن وصية فورثتهن كأنهن الجندل[1].

ثانيا : هي القصائد التي كان يكتبها كل من النابغة الذبياني وعدي بن زيد العبادي والربيع بن زياد العبسي ومن تعداهم في نهج هذا النهج ليبعثوا بها إلى بلاط المناذرة اعتذارا وعتابا[2].

ثالثا : وهو ما جاء تواترا عن رواية حماد الراوية برغم ما حام من شك، حول هذه الشخصية ،مما جاء عنه :"أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج قال وهي الكراريس ثم دفنها في قصر الأبيض فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له إن تحت القصر كنزا فاحتفره فأخرج تلك الأشعار "[3].

وحول المضمون هذا ،يورد ابن سلام الجمحي رواية لا تبتعد عما ،جاء به حماد : "وقد كان عند النعمان ابن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح هو وأهل بيته فصار ذلك إلى منه بني مروان أو صار منه"[4].

وبالربط ألفينا أن الروايتين تحيلان مضامينيا ؛ على أن الشعر الجاهلي عرف سبيله إلى التدوين والكتابة ،إلا يقام دليل علمي يلغي ذلك وهو ما لم يستقر في الذهن لأنه لما يحدث بعد !

رابعا: هو اهتمام حكام المناذرة وأهل الحيرة بتقييد عن أخبار وأشعار الجاهليين ما قيل عن الطبري، كان أمر آل نصر بن ربيعة، وكان من ولاة ملوك الفرس وعمالهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة متعالما مثبتا عندهم في كنائسهم وأسفارهم[5] .

---

[1] - نفسه ، ص:160.

[2] - ابن جني ، الخصائص، ج 1، ص ص : 392 - 393 .

[3] - السابق، ص ص 392-393.

4 - ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ،ص : 23 .

5 - ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ص ص : 161- 162 .

ويأتي الطبري على ذكر أن هشام بن محمد السائب الكلبي قال :"كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ عمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ملكهم وأمورهم كلها"[1].

وهو ما أكده المستشرقون- بعضهم - ، ممن آلوا على أنفسهم البحث الموضوعي كالمستشرق ه. أ. ر . جب ، في قوله : "حية أخرى ،أنه ويزعم أنه من نار بما وجدت كتب مدونة في الحيرة وأنه وجدت بالفعل بعض المقيدات التاريخية هناك فهذا لا مراء فيه"[2] .

يقول الأستاذ" أو لندر" عن ابن الكلبي : "ومن المؤكد أنه استخدم النقوش والمدونات التاريخية في الحيرة واستفاد منها ولذلك أكد الباحثون والمحدثون أقواله مرارا وفي حالات منها أكدوها تأكيدا عجيبا، مثال ذلك تأكيدهم، حينما اكتشفوا شاهد قبر امرئ القيس بن عمرو الحبري"[3].

خامسا: ما رواه ابن الكلبي عن أسفار الحيرة ونقوش كنائسها وما فيها من أخبار العرب الجاهليين قصة تجم وأنسابهم[4].

والحاصل أنه ترسب لدينا-، باستنباط ما تقدم من استدلال-، راسب يحق لنا أن نسميه، من وجهة حق شعرا جاهليا وصل إلينا على شكل كتب وأسفار ودواوين فحواه، ينطق جاهلية ،إذن فلم كل هذا الإنكار والإجحاف في حق ظاهرة الشعر الجاهلي والتشكيك في صحتها؟ !!

فقليل من المحدثين وكثيرمن المستشرقين راحوا يصطنعون الحجة ويتعسفون الرأي ويركبون شطط الهوى، سالكين جميع الالتواءات لنسف الشعر الجاهلي وتقويض أركانه، انطلاقا من التشكيك في روايتيه : الشفهية والكتابية.

---

1 - نفسه ، ص: 162.

2 - نفسه ، ص: 162.

3 - السابق، ص 162.

4 - نفسه ، ص 162.

فكان لنا ذلك مدخلا، نلج به مناقشة أطروحات المستشرقين ،فيما ذهبوا إليه من رأي ، فلنبدأ من المحطة التي ارتأينا أنها البدء، وهي مناقشة الرواية الشفوية للشعر الجاهلي واستقراء تاريخيتها في النقد العربي؛ لأنها مثلت مشاربهم الأولى، فكان لزاما علينا ، العودة إليها والحفر لسبر أغوارها التاريخية لتصويب كثير الرؤى خاصة ، من حيث ما هو استقراء لحقائق تاريخية وعلمية ،أصلت لبناء الحكم واكتمال الصورة ، هذا أولا، والوقوف على الخلفية الفكرية التي بلورت الخطاب الاستشراقي وصاغت منهجه هذا ثانيا.

الرواية العربية:

المعنى اللغوي :

روى، يروي.. وارتوى يرتوي: هو كل ما يدور حول الماء من سقيه وساقيه.[1] ومنه قيل رويت على أهلي أروي رية . قال والوعاء الذي يكون فيه الماء إنما المزادة سميت راوية لمكان البعير الذي يحملها[2]. وقال ابن السكيت : يقال : رويت القوم أرويهم إذا استقيت لهم . وزحزح المعنى إلى الرجال الذين يحملون لهم الديات بواسطة الإبل.

ولنا روايا يحملون لنا أثقالنا إذ يكره الحمل

إنما يعني به الرجال الذين يحملون لهم الديات فجعلهم كروايا الماء، وهو معنى مجازي.[3] أكتفي بما ورد في هذا الباب في لسان العرب عن معنى الرواية لغة.

المعنى الاصطلاحي :

وبمجاراة هذا المعنى اللغوي نجد أن التناول قد طال معنى الرواية الاصطلاحي للحديث والشعر ففي حديث عائشة - رضي الله عنها- أنها قالت :" ترووا شعر حجية بن المضرب فانه يعين على البر وقد رواني إياه" ورجل راو وراوية، وقال الفرزدق :

أما كان في معدان وافيل شاغل لعنبة الروي علي القصائد

وراوية كذلك إذا كثرت روايته والهاء للمبالغة في صفته بالرواية.[4]

وقد مرت الرواية الأدبية مواكبة تطور العلوم اللغوية والدينية, فكانت المرحلة الأولى في إرساء اللبنات الأولى لإقرار أحكام علوم الحديث فلما أصلت أصول علم الحديث وثبتت قواعده وعني فيها بالإسناد وتصدر المحدثون للتحديث في مجالس العلم من حفظهم, صار يطلق عليهم أيضا لفظ الرواية فصرنا نجد للمحدثين في آخر القرن الثاني رواة كما كان للشعراء رواة فأصبح المحدثون في مجالس العلم لما لهم من سعة الاستظهار ينعتون بالرواة.

[1] - ابن منظور، لسان العرب، ج. 5 ، ص : 379.

[2] - نفسه، ج .5، ص:381 .

[3] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص: 188 .

[4] - ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص: 382.

كما أننا ألفينا مع نهاية القرن الثاني مختصين في رواية الشعر إلى جانب رواة الحديث النبوي الشريف, ومنهم النضر بن طاهر راوية مالك بالبصرة[1].

وكانت فترة أولى مرت بها الرواية اقتصرت على الحفظ والإنشاد والنقل دونما ولوجها مرحلة التحقيق العلمي . وبعد هذا المنحى نجد أن الرواية في سياق تطورها التاريخي في هذه المرحلة الثانية تخطت التجريد إلى مرحلة الرواية المبنية على أسس تخول لها اقتحام عوالم الرواية العلمية فبعـــدما كانت ؛ أي الرواية تكتفي بالإنشاد والنقل والحفظ صارت تأخذ بأسباب التحقيق العلمي من ضبط وإتقان وإمعان. وفي هذه المرحلة تربعت الرواية على عرش مجالس التعليم وظهر أساتذة يلقنون وتلاميذ يتلقون ارتكزت فيها الرواية على ساقين، القراءة من الكتاب والسماع من الشيخ[2].

ومنذ البدء نجد أن المأثور الشعري العربي الجاهلي عرف- بعضه أوكله- جانب الخطية إلا أن محدوديتها وضيق أفقها وعدم رواجها بالكيفية التي تسمح باتخاذها مرتكزا وحيدا وجدت الشفاهية سبيلها إلى التداول توظيفا كوسيلة لتناقل الشعر الجاهلي لعوامل نأتي على أهمها :

أولها: أن الانطلاقة الأولى يرجح فيها أنها انطلقت من مصدر مكتوب, ولما وسمت به من محدودية جاءت المشافهة لتكون رسول هذا الشعر فيما بين القبائل لاعتبارات نورد بعضا منها :

-إن الشعر كان يتواتر إنشادا لا قراءة من قبل الخاصة التي تذيعه بالكيفية هذه شأنهم شأن الأمم الأخرى التي عاصرتهم.

وثمة أمر ثان, وهو ما يتجلى في رواة الشاعر لشعره فبعد مراحل الكتابة والاستماع والحفظ يشرعون في نشر الشعر مشافهة, وهو الأمر الذي شهدته العصور الإسلامية جميعها*.

[1] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص: 189 .

[2] - نفسه، ص: 190.

* مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص ص : 187-193

ونحط رحلنا في مرحلة تالية لما سبق, مرحلة العلماء الرواة الذين شهدوا نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث فقد اجتباهم الله -عز وجل- بخاصية الحفظ التي رشحتهم لنقل الشعر الجاهلي وما له صلة بأخبار الجاهليين نقلا شفهيا والأدلة قد تطول بنا في المقام هذا . مصادرهم في ذلك الاستقاء من الأعراب مباشرة احتكاكا وإصغاء نقلا عنهم*

ما تقدم من شواهد وأدلة جاءت عينات تاريخية للقرون الثلاثة الأولى للتاريخ الهجري، فبالاستقراء نهتدي إلى أن مصادر نقل الشعر الجاهلي إنما كان يعتمد فيها على ازدواجية الرواية الأولى شفوية تطورت حتى أصبحت مرجعا علميا إليه يعزى الفضل في تعاطي قسط أوفر من هذا الموروث الشعري الجاهلي, والثانية أن لا يستفاد من هذا أن الشفاهية كانت مصدرا وحيدا في هذا الصنيع وإنما كانت إلى جانب شقيقتها الرواية المكتوبة التي حفظت بين دفاتها كثيرا من الشعر الجاهلي من الضياع . فالشفاهية والكتابية متحدتان هما معا سواء بسواء حازتا الفضل كله في صون جوهرة الشعر الجاهلي الذي نتواتره اليوم بين أيدينا .

لقد جاء عن ابن سلام الجمحي في: طبقات فحول الشعراء ما نقل عن عمر- رضي الله عنه- :"كان الشعر على قوم لم يكن لهم على أصح منه ". ليستقر على نفسه بمداخلة تعقيبيه وردت كالآتي :

"فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير"[1] .

أحكام كهانه تلقى على عواهنها, أمر لا يستسيغه العقل ولا يتقبله المنطق فالتعميم الذي سحبه على الشعر الجاهلي كله, جعل مثل هذه الرؤى تفتقد إلى الجانب الموضوعي وبعد هذا نجد أن ابن سلام نفسه قد وقع في شراك نقض الرأي. فارن إليه في مؤاخذته

* نفسه، ص ص: 187-193.

[1] - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص: 22.

على بعض علماء القرن الأول للهجرة لاعتمادهم على ما هو مكتوب حتى عدهم صحفيين في قوله:

"وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب يأخذونه عن أهل البادية ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحد -إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة - على إبطال شيء منه أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفي"[1].

أبعد هذا وبشهادة شاهد من أهلها يبقى جانب الكتابية من الروافد الأولى التي أسهمت في تواتر الشعر الجاهلي.

وإذا احتسبنا دليلا آخر ساقه ابن سلام في موطن آخر في رؤيته الشعر الجاهلي :

في كتاب كتبه يوسف بن سعد صاحبنا منذ أكثر من مائة سنة.[2]

وعند بسط الحكم الآتي للنقاش :

"فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل".

وهو ما اعتمده من تسرب الشك إلى أهوائهم قبل عقولهم في الشعر الجاهلي من: مستشرقين ومن سارعلى شاكلتهم, اتخذت كحجة يتسلل من نوافذها إلى هذا التراث الأدبي لفصله عن سلسلة حلقات شعرنا الموصولة بعضـها بعضا, وأنى لهم ذلك؟ !! .

وعند تداول هذا الرأي وحمله محمل الجد يساورنا في البدء سؤال, ألا وهو :

أصحيح أن العرب تغافلوا رواية الشعر الجاهلي شفاهة كل هذه الفترة الطويلة؟ بردفه سؤال ثان, هو : هل عند مراجعة الرواية الشفوية قوبلت بموت أصحابها وفنائهم؟

إن تناول مثل هذا الرأي يملي منهجا تاريخيا نستنطق فيه المحطات التاريخية التي كانت فيها الرواية ذائعة الصيت قائمة المعالم. فلتكن رحلتنا صوب نصف القرن الأول للهجرة تاركين عجلة الزمن تسير بنا نحو المبتغى مولين وجوهنا شطر العهد الأموي.

[1] - ناصر الدين الأسد ،مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص: 195.

[2] - نفسه، ص ص :195- 196.

جاء عن الأصمعي شغف بني أمية بالعلم في قوله :

" فكانوا ربما اختلفوا وهم بالشام في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيردون فيه بريدا إلى العراق[1] ". وفي نص آخر :" كنا نرى في كل يوم راكبا من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة توفى سنة 118 يسأله عن خبر أو نسب أو شعر وكان قتادة أجمع الناس"[2]. وفي مضرب آخر: وقال عامر بن عبد الملك المسمعي : " كان الرجلان من بني مروان يختلفان في بيت شعر فيرسلان راكبا إلى قتادة يسأله ولقد قدم عليه رجل من عند بعض أولاد الخلفاء من بني مروان فقال لقتادة من قتل عمرا وعامرا التغلبيين يوم قضة فقال : "قتلهما جحدر بن ضبيعة ابن قيس بن ثعلبة . قال : "فشخص بها ثم عاد إليه" فقال :"أجل قتلهما جحدر ولكن قتلهما جميعا" فقال : "اعتوراه فقتل هذا بالسنان وهذا بالزج فعادى بينهما"[3]. في كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج :" أنت عندي كسالم" فلم يدر ما هو فكتب إلى قتيبة يسأله فكتب إليه إن الشاعر يقول :

يديرونني عن سالم وأديرهم وجلدة بين الأنف والعين سالم"[4].

وهذا اهتمام عبد الملك بن مروان بالشعر وماله صلة بروايته في نصحه مؤدب ولده :

"روهم الشعر روهم الشعر يمجدوا وينجدوا"[5]. وفي مناسبة أخرى :

"أدبهم برواية شعر الأعشى فإن لكلامه عذوبة"[6].

وما ينم عن درايته بالشعر الجاهلي, دراية تفصح عن مكنون الرأي الثاقب في قوله :

"إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزرق من بني قيس بن ثعلبة - وهم رهط أعشى بكر- وبأصحاب النخل من يثرب - يريد الأوس والخزرج - وأصحاب

[1] - السابق، ص: 197.

[2] - نفسه، ص: 197.

[3] - نفسه، ص : 198 .

[4] - السابق، ص: 198

[5] - نفسه، ص: 199 .

[6] - نفسه، ص 199.

الشعف من هذيل (والشعف رؤوس الجبال)".[1]

ومن الإضافات النوعية في حق عبد الملك بن مروان في تضلعه في شئون الشعر الجاهلي خبرا وجمعا واعتناء ما ساقه ياقوت في مقولته :

"كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج : "انظر لي رجلا عالما بالحلال والحرام عارفا بأشعار العرب وأخبارهم أستأنس به وأصيب عنده معرفة فوجهه إلي من قبلك . فوجه إليه الشعبي وكان أجمع أهل زمانه قال الشعبي :

"فلم ألق واليا ولا سوقة إلا وهو يحتاج إلي ولا أحتاج إليه ماخلا عبد الملك ما أنشدته شعرا ولا حدثته حديثا إلا وهو يزيدني فيه وكنت ربما حدثته وفي يده اللقمة فأمسكها فأقول :

"يا أمير المؤمنين أسغ طعامك فإن الحديث من ورائه فيقول:

"ما تحدثني به أوقع بقلبي من كل لذة وأحلى من كل فائدة"[2].

وبعد استنفاذ الحديث عن عبد الملك بن مروان واهتمامه بالرواية, نجد معاوية بن أبي سفيان هو الآخر له من الانشغال بالشعر وروايته , ما يؤهله لشد انتباهنا لإدراجه ضمن الأعلام الأمويين الذين حفروا في ذاكرتنا الجمعية ما يثير كثيرا من الاهتمام لنعده من المراجع التي إليها يتكأ لدراسة الشعر الجاهلي وتناول جانبه الروائي فيه على وجه الخصوص فهو؛ أي معاوية كان له انشغال بما له صلة بأخبار الماضين وما تعلق بأيام العرب في الجاهلية وما طال شعراءهم ومن ورائهم شعرهم فكان بعض حاشيته يقيدون الشعر والخبر لتقرأ على مسامعه ليلا، وزاد على ذلك إنشاؤه المجالس العلمية والأدبية فكان - عادة- هو من ينشد الشعر في حضور العلماء والرواة الأعراب وكان يطيب له الرنو إلى الأخبار التي تتناول ماضي الجاهليين ونقل عنه للنخار بن أوس :"ابغني محدثا قال ومعي يا أمير المؤمنين تريد محدثا" قال : "نعم أستريح منك إليه ومنه إليك"...[3]

---

[1] - نفسه، ص 199.

[2] - السابق، ص ص : 199-200.

[3] - نفسه، ص : 200.

" وفي أحد مجالسه خاطب معاوية عبد الله بن الزبير قائلا :

ورام بعوران الكـلام كأنهــا نوافر صبــح نفرتها المراتع

وقد يدحض المرءالموارب بالخنا وقد تدرك المرء الكريم المصانع[1]" .

ثم سأل ابن الزبير عن قائله فرد عليه: هو ذو الأصبع ليأمر في النهاية برواية شعره. هذا فضلا على أن معاوية كان على دراية بأخبار الجاهلية ففي أحد المجالس التي كان يعقدها لهذا الغرض أبان عن معرفة بقصة الملكة ماوية بنت عفزر كانت تتزوج من أرادت"[2].

"وفي قصة زياد بن أبيه عندما بعث بولده إلى معاوية فعند اختباره له وجده خبيرا في كثير من الفنون العلمية إلا في مجال الشعر الذي لم ير فيه منه شيئا فكتب إلى زياد ما منعك أن ترويه الشعر فو الله إن كان العاق ليرويه فيبر وإن كان البخيل ليرويه فيسخو وإن كان الجبان ليرويه فيقاتل"[3].

على ألا يفهم من سرد هذه الأمثلة أن ملوك بني أمية وبني مروان, هم وحدهم الذين كانوا يعنون بالمجالس التي تثير شئون الشعر وأخبار الجاهليين , فإننا نجد أن الدائرة تمتد إلى غيرهم من الأشراف والولاة والسادة الذين كانوا هم كذلك يعنون في مجالسهم العلمية والأدبية بما اعتنى به حكام الأمويين", فها هو سعيد بن العاص بالمدينة وفي مأدبة عشاء مع الرجل القبيح المنظر رث الهيئة الذي هم حرسه بإخراجه لولا ممانعة سعيد والأمر بترك هذا الرجل يجلس مع الجماعة, فعندما تناولوا بالحديث أخبار العرب وأشعارها فأجابهم الحطيئة الذي كان على تلك الحال التي يرثى لها بمداخلته بالابتعاد عن ملامسة الصواب بمقاربة جيد الشعر, فوجههم نحو أشعار العرب في :

لأعد الإقتار عدما ولكن فقد من قد رزئته الإعدام

وجاء على رواية القصيدة كلها وأشار بعدها إلى قائلها أبو داود الأيادي"[4] .

---

[1] - نفسه، ص: 200.

[2] -السابق، ص : 201 .

[3] - نفسه ، ص: 201.

[4] - أبو فرج الأصفهاني، الأغاني ،ج.3، ص ص :2،1

وفي قصة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب مع معلم ولده :

"لا تروهم قصيدة عروة بن الورد التي يقول فيها :

دعيني للغنى أسعى فاني رأيت الناس شرهم الفقير.

لأنه كان يرى؛ أي عبد الله بن جعفر في هذا دعوة للاغتراب عن الوطن.[1]

ونريد أن نأتي في السياق هذا ,على ذكر دراية ابن العباس بالشعر الجاهلي والعمل بروايته وتشجيعه على الإقبال عليه والاستعانة بتفسير القرآن الكريم عند حصول الإشكال بالعودة إلى الشعر الجاهلي حتى إنه كان يقول :

"إن أشكل عليكم الشيء من القرآن فارجعوا فيه إلى الشعر فإنه ديوان العرب". وعند سؤاله عن القرآن يجيب بإنشاد الشعر"[2].

وفي المحصلة نجد أنفسنا مسحنا زمنيا القرن الأول الهجري كله, هذا من حيث الزمن أما من حيث المضمون ؛ نقف فيه على أن هذه الفترة الزمنية حفلت بالشعر الجاهلي رواية وإنشادا وتعلما, فهذا يستقى من قصة عبد الملك بن مروان مع معلم ولده ومن مكاتبة معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه طالبا إياه بإرواء وتعليم الشعر الجاهلي لابنه، كما يحصل من النهي الذي وجهه جعفر بن أبي طالب إلى معلم ولده بعدم تعليمهم قصيدة عروة بن الورد .

فإذا شاء لنا بعد هذا زمن الخلفاء الراشدين وتجاوزناهم إلى زمن الصحابة, حتى إذا فتشنا نحن في السيرة النبوية الشريفة, ألفينا الاهتمام نفسه عند الأمويين والمراونة . سئل الحسن البصري عما إذا كان الصحابة يعرفون المزاح فقال: "نعم ويتقارضون ... من القريض وهو الشعر[3]" . وفي موضع آخر عن جابر بن سمرة : "جالست رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية فربما تبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -"[4] .

---

[1] - نفسه، ج 3، ص : 75 .

[2] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص : 203 .

[3] - نفسه، ص : 204.

[4] - نفسه، ص ص : 204-205.

سنأتي بالحديث عن بعض الصحابة وما تعلق منه برواية الشعر في بعض الومضات منها :

قال مطرف: "دخل غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب فترة خلافته مع ابنه همام الفرزدق وكان حينها غلاما . فقال علي -رضي الله عنه- : ... من هذا الغلام معك؟ قال : "هذا ابني . قال : ما اسمه؟

قال : "همام وقد رويته الشعر يا أمير المؤمنين وكلام العرب ويوشك أن يكون شاعرا مجيدا"[1].

ونجد أبا زيد الطائي عاش شاعرا طيلة حياته التي امتدت خمسين ومائة سنة مات نصرانيا رغم إدراكه الإسلام. كان عثمان بن عفان -رضي الله عنه- يقربه منه مجالس لخبرته ملوك من أدرك عربا كانوا أو عجما فدخل عليه يوما وعنده المهاجرون والأنصار فتذاكروا مآثر العرب وأخبارها وأشعارها.[2]

والسياق يقودنا إلى نبش عوالم الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الشعرية وقدراته المميزة في الثقافة الشعرية، فقد كانت مجالسه حبلى بإنشاد الشعر وتذوقه ونقده. قال فيه محمد بن سلام عن بعض أشياخه: كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر[3].

وقال عمر بن الخطاب لابن عباس: "هل تروي لشاعر الشعراء ؟ قال ابن العباس فقلت :" ومن هو ؟" قال : الذي يقول :

"ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد"

[1] - السابق ، ص : 205.

[2] - نفسه، ص ص: 205 -206.

[3] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1 ،ص : 241.

قلت : "ذاك زهير. قال : "فذاك شاعر الشعراء". قلت : "وبم كان شاعر الشعراء ؟" قال : لأنه كان لا يعاضل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه ... ثم قال : "أنشدني له"، قال ابن عباس : "فأنشدته حتى برق الفجر"[1].

قال عمر للوفد الذين قدموا عليه من غطفان : "من الذي يقول :

"حلفت فلن أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالو : نابغة من ذ بيان . قال لهم : فمن الذي يقول هذا الشعر :

أتيتك عاريا خلقا ثيابي على وجل تظن بي الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لايخــون

قالوا : هو النابغة. قال : هو أشعر شعرائكم"[2] .

إلى جانب الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - , نجد أن عثمان بن

عفان - رضي الله عنه-, كان كذلك هو من رواة الشعر الجاهلي، كان يستشهد به في مداخلاته . فقد اعتلى الخليفة عثمان بن عفان المنبر متوجها بكلامه إلى الأنصار، ومما جاء فيه ... نحن وأنتم كما قال الغنوي :

جزى الله عنا جعفرا حيت أزلفت بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولــو كانت أمنا تلاقي الذي يلقون منا لملت

هم أسكنوا في ظــلال بيوتهم ظلال بيوت أدفـأت وأكنت[3] .

ومما أثر عن أبي بكر في جاهليته, أن بيته كان يقصد لخصلتين : العلم والطعام، فلما أسلم عامة من كان مجالسه.[4]

وبعد أبي بكر, يفضي بنا القول إلى ابنته عائشة - رضي الله عنها - فما عرف عنها أنها كانت تحفظ- وبوفرة- الشعر الجاهلي، كانت تقول هي عن نفسها : " إني لأروي ألف بيت للبيد، وانه أقل ما أروي لغيره"[1].

[1] - ناصر الدين الأسد ،مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص ص: 207-208.

[2] - السابق، ص : 208.

[3] - نفسه، ص: 209.

[4] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 4، ص : 86.

كما قالت: لقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعارا منها القصيدة فيها أربعون بيتا ودون ذلك[2] .

كما كانت عائشة - رضي الله عنها - تحض على تعلم ورواية الشعر الجاهلي، كانت تقول :" رووا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم[3]".

كما أثر عن أختها أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر - رضي الله عنه- احتفاؤها برواية شعر الجاهليين، فقد روى عنها عروة قصيدتين؛ إحداها لزيد بن عمرو بن نفيل، والأخرى لورقة بن نوفل[4].

وبعد هذا كله نجد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتني في جزء من حياته بالشعر،وما نهى عنه من رواية بعض الشعر، تعارض مضمونه وأهداف الرسالة المحمدية السمحة، التي أنزلت لأجلها، وفي غير هذا الموضوع، فهو يستنشد صحابته الشعر، أو يثير المساءلة نحوه معهم، أو يستحضر ما وجد قبولا لديه. ومن آية ذلك في الإنشاد، ما روى عن أنس بن مالك، أنه قال :

أتعرف رسما كاطراد المذاهب لعمرة وحشا غير موقف راكب

فأنشده بعضهم إياها، فلما بلغ إلى قوله :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدي بالسيف مخراق لاعب

فالتفت إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال : هل كان كما ذكر ؟ فشهد له ثابت بن قيس بن شماس، وقال له : والذي بعثك بالحق يا رسول الله، لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه عليه غلالة وملحفة مورسة فجالدنا كما ذكر"[5].

وقال أبو وداعة :" رأ يت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبا بكر - رضي الله عنه - عند باب بن شيبة، فمر رجل وهو يقول :

---

[1] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص: 210.

[2] - السيوطي، المزهر، ج 2، ص : 309 .

[3] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص: 210.

[4] - الأصفهاني : الأغاني، ج 3، ص ص : 124 /125.

[5] - نفسه، ج 3، ص: 07.

يا أيها الرجل المحول رحــله ألا نزلت بآل عبــد الدار

هبلتك أمك لو نزلت برحلهــم منعوك من عدم ومن إقتار

فالتفت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أبي بكر فقال : "أهكذا قال الشاعر ؟.

قال : "لا والذي بعثك بالحق، لكنه قال :

ألا أيها الرجل المحول رحـله ألا نـزلت بعبد منـــاف

هبلتك أمك لو نزلت برحلهـم منعوك من عدم ومن إقـراف

الخالــطين فقيرهم بغنيـهم حتى يعود فقيرهم كــالكافي

ويكللون جفانهم بسد يفهــم حتى تغيب الشمس في الرجاف

فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال هكذا سمعت الرواة ينشدونه"[1].

ومن الشعر الذي كان يستشهد به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بيت طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود[2] .

ومن نقده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من إنشاد للشعر الجاهلي، ما روته عائشة - رضي الله عنها - للبيتين الآتيين :

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه يوما فـتدركه العواقب قد نما

يجزيك أو يثني عليـك وان من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال - صلى الله عليه وسلم - :

ردي علي قول اليهودي - قاتله الله -، لقد أتاني جبريل -عليه السلام- برسالة من ربي : أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه "[3].

وقال مسلم الخزاعي : "كنت عند رسول الله- صلى الله عليه وسلم وآله وسلم - ومنشده ينشده :

---

[1]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص ص :211-212.

[2] - نفسه، ص، 212.

[3] - الأصفهاني، الأغاني، ج 3، ص: 117 .

لاتأمنن وان أمسيت في حـــرم حتى تلاقي ما يمني لك الماني

فالخير والشر مقرونان في قـرن بكل ذلك يأتيـــك الجديدان

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : لو أدرك هذا الإسلام "[1] .

وقال الشريد بن سويد الثقفي : استنشدني الرسول - صلى الله عليه وسلم - ،شعر أمية بن أبي الصلت، فأنشدته فأخذ النبي - صلى الله عليه وسلم -، يقول : هيه هيه، حتى أنشدته مائة قافية"[2].

وأنشد النبي - صلى الله عليه وسلم - قول أمية :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا

فقال - صلى الله عليه وسلم - : إن كان أمية ليسلم"[3] .

ومع ذلك, فقد نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن إنشاد ورواية بعض الشعر الجاهلي، وكان من ذلك , ماتناهى إلى مسامعه - صلى الله عليه وسلم -, من هجاء الأعشى علقمة بن علاثة العامري, نهى أصحابه أن يرووا هجاءه، وقال : "إن أبا سفيان شعث منى عند قيصر فرد عليه علقمة وكذب أبا سفيان"[4].

ونهى كذلك عن إنشاد قصيدة الأفوه الأودي لما فيها من ذكر إسماعيل- عليه السلام[5]- كما نهى رسول الله- صلى الله عليه وسلم - ,عن رواية قصيدة أمية بن أبي الصلت, لما فيها من تحريض لقريش بعد غزوة بدر ورثاء لقتلى قريش، ومنها :

ألا هل أتى غسان عنا ودوننا من الأرض خرق غوله متتعتع

مجالدنا عن جذمنا كل فخمة مدربة فيها القوانس تلمـــع

فقال - صلى الله عليه وسلم - : لا تقل عن جذمنا وقل : عن ديننا، فكان كعب يقرأ كذلك ويفتخر بذلك، ويقول : "ما أعان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحدا في شعره غيري"[1].

---

[1] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 213.

[2] - نفسه، ص 213.

[3] - الأصفهاني، الأغاني، ج 4، ص: 129 .

[4] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 214.

[5] - نفسه، ص 214.

نستقي مما أوردناه من أمثلة- جئنا على ذكرها-، أن الرواية وإنشاد الشعر عادة تأصلت في المجتمع العربي في جاهليته تلك التي كانت لها صلة بالإسلام، ومنه كذلك ما تناشده المشركون وهم متوجهون إلى بدر، كان فتيان ممن تخلف عنهم سمـار يسمرون بذي طوى في القمر، حتى يذهب الليل، يتناشدون الأشعار ويتحدثون[2] .

نهتدي مما تقدم من الأمثلة التي تناولت علاقة خير الأنام بالشعر رواية وإنشادا، ما يعزز لدينا المعتقد من أنه -صلى الله عليه وسلم-، لم ينكر الشعر الجاهلي كله، فهو يستشهد به تارة وينقحه تارة أخرى، ويبدي إعجابه به طورا آخر، وفي كل ذلك توكيد وإقرار لما أيدناه من حكم؛ أما ما نهى عنه، فهو لما حمله من فحوى يثير الشجائن ويغذي الأحقاد ويشجع ثقافة التباعد بما لا يتفق ومرامي الشريعة الإسلامية الغرة التي جاءت لتؤلف وتقرب وتوحد لا غير ذلك...؛ إذن فالجانب المضاميني, هو المعيار وحده الذي كان فيصلا, ما بين الإقرار والإنكار؛ أما عن الشعر الجاهلي، فهو حقيقة شاخصة للعيان ماثلة للوجود حتى في عهد خير الخلق محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ويبقى سلطان السياق يقودنا إلى ميدان علم النسابة، إذ هو الآخر اقتحم الرواية فضاؤه، فهي التي اعتمد عليها النسابون العرب في تشجير البطون العربية، وأضحت بهذا ميدان تفاخر أو تنابز، ولعل شعر النقائض بأعلامه, يجدر أن يتخذ نموذجا لمن أراد التوسع، ويبقى من أقدم المراجع في المضرب هذا والتي يصح لنا أن نعدها مصدرا في هذا الاختصاص، هو كتاب نسب قريش لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، المتوفى سنة 236 للهجرة[3] . وعند البحث في ثناياه نجد الشعر كمادة من المواد التي أدرجت للاستدلال إلى جانب ما أدرج إلى جانبها من أخبار وأحاديث لها صلة بالنسب وتفريع القبائل العربية، وهو ما يرسخ الاعتقاد أن مثل هذه المنهجية كانت منتهجة في الحقبة تلك، فقد قال الجاحظ عن علماء النسب : وأربعة من قريش كانوا رواة

[1] - السابق، ص 214.

[2] - نفسه، ص : 215 .

[3] - نفسه، ص: 215.

الناس للأشعار وعلماءهم بالأنساب والأخبار.[1] كما نجد مثلا آخر يتمثل في عقيل بن أبي طالب: ويجتمع إليه في علم النسب وأيام العرب"[2].

وكأمثلة على اعتماد النسابين على الشعر الجاهلي, فغدا الضرب هنا مزجا بين الشعر والنسب، هؤلاء العلماء الذين كانوا تواصلا زمنيا شد الرباط بوثاق يبن القرنين الأول والثاني الهجريين، في تواتر الشعر الجاهلي، من حيث الرواية والإنشاد، سنسوق فيها بعض النماذج ولعل المبتدأ سيكون من هشام بن محمد بن السائب الكلبي، من النسابة المشهورين، يقول :" قال لي أبي : "أخذن نسب قريش عن أبي صالح وأخذه أبو صالح عن عقيل بن أبي طالب . وأخذت نسب كندة عن أبي الكناس الكندي، وكان أعلم الناس . وأخذت نسب معد بن عدنان عن النخار بن أوس العذري، وكان أحفظ الناس ممن رأيت وسمعت به وأخذت نسب إياد عن عدي بن رثاث الإيادي، وكان عالما بإياد[3] ".

ونجد ذكرا لهذه الطائفة من النسابين، لشعراء القرن الأول ومنهم، سماك العكرمي، في قوله :

فسائل دغفلا وأخا هلال وحمـــادا ينبوك اليقينا.[4]

وقال مسكين الدارمي :

وعند الكيس النمري علم ولو أمسى بمنخرق الشمال.[5]

وقال القطامي :

أحاديث من أنباء عاد وجرهم يثورها العضان زيد ودعفل[6] .

---

[1] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 2، ص: 323 .

[2] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص: 216.

[3] - نفسه، ص: 216.

[4] - نفسه، ص: 217.

[5] - نفسه، ص: 217.

[6] - السابق، ص: 217.

في هجاء عمرو بن المرادة البلوي، النخاربن أوس العذري - الذي أجمع ما بين علمي الرواية والنسابة - لاستلحاقه بطنا من بطون بلى بن عمرو بن الحاف بن قضاعة وذكره أنهم إلى بني قومه ينتسبون في قوله :

وقد كنت يا نخارما تدعيهم وتعرض عنهم في السنين العوارق

يمنيهم النخار إلحاق نسبة بلأي وما النـــــخار فينا بصادق[1].

نزعم أننا -فيما قدمنا- بكاف على تقديم صورة ولو مقتضبة سلط الضوء على مساحات من القرن الأول الهجري، ولمن أراد الاستزادة فلييمم صوب الجاحظ، في البيان والتبيين والحيوان، لنشد الرحال في نظرة استقصائية, نحو من مارس علم النسابة في تقاطع زمني, بين نهاية الفترة الجاهلية وصدر القرن الأول . وهو ما يقودنا لولوج عالم دغفل النسابة . ذكر الهيثم بن عدي في كتاب المثالب، أن أبا عمرو بن أمية -جد عقبة بن أبي معيط- كان عبدا لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه، وذكر أن دغفلا النسابة دخل على معاوية، فقال لمعاوية :

"من رأيت من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس، فقال : صفهما لي . فقال : كان عبد المطلب ... قال : فصف أمية . قال : رأيته شيخا قصيرا نحيف الجسم ضريرا يقوده عبده ذكوان، فقال : مه، ذاك ابنه أبوعمر . فقال : هذا شيء قلتموه بعد وأحدثتموه، وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به"[2].

وقال معاوية يوما لدغفل : بم ضبطت ما أرى ؟ قال : بمفاوضة العلماء. قال : وما مفاوضة العلماء؟

قال : كنت إذا لقيت عالما أخذت ما عنده وأعطيته ما عندي"[3].

كان العرب في صدر الإسلام يهتمون بعلم النسب وكانت الدوافع إلى ذلك متعددة كالانتماء القبلي للتفاخر أو للتعريض بمثالب الآخر, مما حدا بأمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه-, بزجر من يقدم على مثل هذا الصنيع لما له من تبعات سلبية على تشابك

[1] - نفسه، ص: 217.

[2] - الأصفهاني، الأغاني، ج 1، ص: 12.

[3] - الزمخشري، الفائق، ج 2، ص: 304 .

نسيج الأمة العربية الإسلامية، فقال : "أيها النـــاس، إياكم وتعلم الأنساب والطعن فيها، والذي نفس عمر بيده لو قلت : لا يخرج من هذا الباب إلا صمد ما خرج إلا أقلكم"[1].

على ألا يتسرب إلى أذهاننا, أن هذا الأمر ينسحب على وجه التعميم، ليشمل النسب كله، فها هو عمر - رضي الله عنه -, يلجأ إلى علم النسابة عندما هم أن يكتب ذوي الحاجة في الديوان فاعتمد على عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكان من نسابي قريش، فقال : اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا فبدأوا ببني هاشم"[2].

ولما أتي عمر سيف النعمان بن المنذر، دعا جبير بن مطعم فسلمه إياه، ثم قال : يا جبير ممن كان النعمان ؟ فقال : "من أشلاء قنص بن معد"[3].

"لقد كان جبير من أعلام علم النسب حتى عد مرجعا في الصدد هذا كان ينهل من علم أبي بكر - رضي الله عنه - في المجال هذا "[4] .

وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان على دراية بعلم النسب، الذي كان أبوه الخطاب يمثل فيه مرجعيته الأولى، حتى أنه كان يقول : "سمعت ذلك من الخطاب، ولم أسمع ذلك من الخطاب"[5] .

وعقيل بن أبي طالب الذي جئنا على ذكره - فيما فات - في خبر عمر-رضي الله عنه -، فهو أخ لعلي - كرم الله وجهه - , يكبره بعشرين سنة، مات سنة خمسين للهجرة.[6]

وكان عقيل أكثر النسابين ذكرا لمثالب الناس وتعداد مساوئهم فعـــادوه لذلك، وقالوا فيه وحمقوه.[7]

---

[1] - نفسه، ج2، ص: 38.

[2] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 219.

[3] - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص : 303.

4 - نفسه، ج 1، ص: 303- الفائق، ج 1، ص ص : 608 – 609.

5 - الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص : 304.

6 -ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 219.

[7] - ا الجاحظ ،البيان والتبيين، ج02، ص : 324.

وأما مغرمة بن نوفل، فقد أسلم عام الفتح، وتوفي بالمدينة سنة أربع وخمسين للهجرة، وقد بلغ مائة وخمس عشرة سنة، وكان له سن وعلم بأيام قريش، وكان أحد علمائهم، ويؤخذ عنه علم النسب.[1]

ومن هؤلاء النسابين العالمين بالنسابة في الجاهلية، الذين امتد بهم الأجل ردها من الزمن، أبو جهم بن حذيفة بن غانم بن عامر، كان من مشيخة قريش عالما بالنسب، وصحب النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكان من معمري قريش، بنى في الكعبة مرتين : مرة في الجاهلية ومرة في الإسلام، حين بناها قريش وحين بناها ابن الزبير.[2]

وممن ينتمي إلى علم النسب في الجاهلية : الخطاب بن نفيل وأبوه نفيل بن عبد العزى الذي: تنافر إليه عبد المطلب وحرب بن أمية، فنفرعبد المطلب -أي حكم له.[3]

ومنهم أيضا الأقرع بن حـــابس، وكانوا يحكمـونه فيما يشـــجر من أمورهم، وكان عالم العرب في زمانه.[4]

كما كان بيت أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في الجاهلية مجلسا عاما يقصده الناس لطلب العلم والقرى.[5]

فمما تقدم نقف على محصلة مفادها؛أن الرواية في العصر الجاهلي لم تنطفئ جذوتها، بل لقيت ذلك الرواج وذلك الاتصال اللذين شدهما بحبل متين إلى حلقات تصل بعضها بعضا من الجاهلية حتى القرن الثاني الهجري ,على يد رعيل من العلماء الذين ضمها علمهم وحواها دراسة وتنقيبا في إحاطة شمولية للمناحي التي جاءت عليها مضامينها المتعددة, كرواية الشعر وما تعداه إلى تناول أخبار العرب وتاريخهم، إن سلبا أو إيجابا. كانت محطتاهم ومنازل لمجالسهم العلمية التي خصصوها لتناول ما ذكر من غرض.

---

[1]- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 220.

[2] - نفسه، ص 220.

[3] -الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص:304.

[4] - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 220.

5 - نفسه، ص 220.

فبمقارنة هذه المحصلة، أو قل تلك الترسبات الموضوعية التي تملي على الدارس المتفحص نفسها, مع ما جاء به ابن سلام الجمحي في مقولته :" ... إن العرب تشاغلت عن الشعر لما جاء الإسلام وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته . فلما كثر الإسلام ... راجعوا روايته وذهب عليهم منه كثير الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، ... فحفظوا أقل ذلك "[1]، وهو ما اعتمد عليه، أي على مقولة : ابن سلام الجمحي, ممن تسرب إلى نفوسهم الشك وجانبوا في كثير من مواقفهم أسباب الموضوعية في نفي الرواية الشفوية، كمصدر من المصادر ورافد من الروافد التي ارتكزعليها الشعر الجاهلي, ليبني على أسسها بنيانه الذي ظل مشادا رغم ما حيق به من تضليل وما لف حوله من زيغ .

في هذا السياق, راحت جيوش من المستشرقين ممن زاغوا عن الرؤية الثاقبة التي تنفد إلى جوهر الأشياء ومكنونها، نتيجة اختلاف الطرح الإيديولوجي والعقدي, ومنه التأزم النفسي ،أسباب كلها اتحدت مع بعضها، جاءت لتغذي ثقافة الإقصاء، في مستوياتها الحضارية والروحية والميثية, تستثني من هذا الحكم، من آل على نفسه أسباب الاعتدال، ذلك ما سنحاول تناوله في دراسة نتوخى فيها الموضوعية لبعض المستشرقين كنماذج، وهم : نودلكه، اهلوارد، مرجليوث، بلاشير .

1 -ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص: 22

عرض آرائه :

من المستشرقين الذين تناولوا بالدراسة نقد مفهوم الرواية الشفوية في الأدب الجاهلي، المستشرق تيودور نودلكه Th.Niodelke[1], من مؤلفاته، في سبيل فهم الشعر الجاهلي عام 1864 والشعر الجاهلي الذي صدر في سنة 1921 م، مما ينم عن جدية هذا الكتاب في الاهتمام بتراث الشعر الجاهلي، ففي مؤلفه الأول، الذي جاء على شكل مقالات استقرائية, نقف فيها على موقف ترسب لدى المؤلف اتجاه الشعر العربي القديم المتداول في الساحة التاريخية للأدب العربي نعت بالأدب الجاهلي.

فلتقويض أركان هذا الرأي الذي تشكل لدى ندلكه، سأحاول مناقشة مقالته التي جاءت تحت عنوان: " من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم".

فابتداء, نجد أن الكاتب يرى أن القصيدة الإسلامية لم تخرج عن نمطية القصيدة الجاهلية، إن على المستوى الشكلي أو المضاميني, فالافتراض الذي ذهب إليه أن بدايات الشعر الجاهلي كانت أرجازا كلها، مع الاستشهاد بامرئ القيس في بيته فهو من فعل محاكاة السالفين من جيل الشعراء.[2]

ومن أمارات الشعر الجاهلي , الاستهلال الطللي للقصيدة الجاهلية والتي كانت في عهد امرئ القيس , تتسم بالجدة النسبية ويلوح سلطان اجتهاده المحض أن شكل القصيدة الشفوية لم يوغل في القدم، وباجتهاده هذا الذي يراه متقدما على علماء اللغة

---

[1]-32- - نيودكله .ت (1836 – 1930) T.H ولد في هاميون من أسرة عريقة، تعلم اللغات السامية والفارسية والتركية والسنسكريتية، نال دكتوراه عام 1856 واصل دراسته ليزيج وفيينا ولندن، نال جائزة مجمع للكتابات والآداب في باريس عن رسالته أصل وتركيب سور القرآن (1856-1860)، عين إستاذا للغات السامية والتاريخ الإسلامي دو تنجيز سنة 1881 وأستاذ التوراة واللغات السامية والستسكريتية ثم الأرامية في كنيل (1884)، وأستاذ اللغات الشرقية في ستراسبورغ (1872-1920) فإتخذ منها مركزا للدراسات الشرقية في ألمانيا.
من تلاميذه زاخاو، ياكوب ،بروكلمان، شواهي، كان متبحرا في العربية إلى جانب اللغات السامية والإيرانية والتركية والحبشية والآرامية، كما كان متقنا لليونانية والألمانية والفرنسية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية/ يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتاب العلمية بيروت.

[2] - عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ص: 18.

والآداب في فوارق هرمية القصيدة من شاعر لآخر، وينفي في الأخير توافر بيت شعري نطمئن إلى نصه يعود إلى ما قبل عام 500 ميلادية[1].

يقر الكاتب بعجزة عن الوقوف على المحطة الأولى للشعر الجاهلي , حلقة افتقدت في وصل نسيج الشعر العربي والبدء من ابتدائه , في مقابل ذلك يصبح في حكم المستطاع تحديد نهايته والمعايير التي اعتمد عليها , تبقى متداخلة في تحديد البدايات والنهايات التي لا يمكن تقديرها , كونها استندت إلى الذاتية : كما هو الشأن في كل التقسيمات التاريخية الأدبية تقريبا، فيه شيء من التحكم والهوى والتصويب الموجه إلى هذه الأحكام , هو تداخل في التفسيرات بين العصر السابق والتالي، كما نجد أن النمطية القديمة, بقت جاثمة في غالب الأحيان على كاهل القصيدة العربية فيما لحق من عصور, إلا أن النقلة النوعية للشعر العربي كما هو عليه الشأن كله للحياة الروحية للعرب طبعها يتحول إلى المملكة الأموية الذين ينظر إليهم على وجه العموم أنهم يمثلون الاتجاه الشعبي الوثني إلى العهد العباسي الذي يرجع فضل تسجيد مبدأ السيادة الإسلامية الفعلية, ويسقط صاحب الدراسة هذه عن عصر من الزمن حدد الأولى منها بأقل من مائتي عام، تظهر أنها تبدو في رواسب أدب هذه المدة الزمنية وهي بدورها تخضع للتقسيم الآتي:

1- يتمثل في عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وما خلفه من آثار.

2- وهي الآثار التي حق لها أن تضارع أجود الشعر العربي، كتـابات: امرؤ القيس، النابغة، الأعشى .... إلخ. التي قابلتها شاعرية كل من: جرير والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة الذي ينظر إليه صاحب الرأي على أنه قمة الهرم لأمثاله, من شعر عصره لاعتبارات عدة ،منها أنه يعد نموذج الطفرة النوعية للتحول إلى شعر الحداثة كما أنه يتجسد في الصورة المنمطة للحياة داخل الوسط الأموي، ويعترف الكاتب بعجزه وقعوده دونما بلوغ القصد في تحديد بدايات الشعر الجاهلي، ويذكر لنا من معوقـات ذلك عدم الإحاطة بتفاصيل النقد العربي: "إلى أن ذلك يحتاج إلى معرفة بدقائق اللغة

[1] -السابق، ص: 18.

العربية"[1] كما يضيف إليه معوقا ثانيا ذكره, هو ما يتمثل في الاستعمال الذي يعقد مهمة الدارس الأجنبي وإن استعان بالدراسات العربية المتخصصة: والاستعمال الشعري، لا يستطيع اكتسابها أي أجنبي".[2]

وتبقى آماله قائمة إزاء المستشرقين الذي يتناولون بالدراسة , الشعر العربي لاستجلاء ما كان غامضا بالنسبة إليه وتكملة ما بقي ناقصا من فهومات , ومرد ذلك، بعد الشعر العربي عنا زمانيا وجغرافيا من طرح لدى المتخصصين من علماء اللغة للقرنين الثاني والثالث هي معوقات التذهن اللغوي :" وقد أوجدت حتى لعلماء اللغة في القرنين: الثاني والثالث ؛ صعوبات في الفهم اللغوي عديدة وكثيرة ما أعوزهم فهمها"[3].

ومما يعمق مشقة إدراك المقطوعات الشعرية, أنها جاءت مجتزأة مبتورة عما قبلها وما بعدها فالصورة التي يوردها السياق التي جاءت عليه لا تكتمل في ذهن المتلقي الصورة المتكاملة من مجموعة صورة , تفضي في نهاية أمرها إلى تقديم المشهد النهائي ضف إلى أن القصيدة العربية مميزة باستقلالية البيت الشعري الذي يبقى معلما قائما لذاته داخل النص الشعري، وفيها كل بيت مستقل لذاته تقريبا[4] والحيرة يتسع فضاؤها بافتقاده إلى البنية والنسيج اللذين جاء عليهما شأن ندلكه الذي يتقدم درجة, من حيث الغموض في عوالم الفضاء الشعري :"أما بالنسبة إلينا فمن المفهوم أن مثل هذه الشفرات تكون غالبا في غاية الغموض"[5].

لو أتيح للشعر الجاهلي أن يصل إلينا وهو كامل لسهل ذلك تذهن مضامينه؛ لأن ما وصلنا من شعر قديم, يقصد به الشعر الجاهلي- يختلف من منظور الكاتب- عن

[1] - السابق، ص: 20.

[2] - نفسه، ص : 20.

[3] - نفسه، ص :21.

[4] - نفسه، ص: 21.

[5] - نفسه، ص: 21.

الشعر الأصيل الأول إلى الكتابة والتقييد مدة من الزمن وصفت بالطويلة:" فآداب شعب من الشعوب لا يمكن أن تبقى في صورته الأصلية وقتا طويلا بدون مساعدة الكتابة"[1].

وإن الكتابة تضع حدا لمثل التبديلات التي تعمل على عدم استقرار الموروث الشعري الشفهي.

إن الأدب العربي لم يعرف طريقه إلى الخطية إلا بعد مدة زمنية طويلة, تداول فيها الشفاهية واعتمدها كمصدر من مصادر الموروث الشعري, وسيلته في ذلك الاستماع عن راوية احترف هذه المهنة أو من أعرابي كيف ما كان شعره :" بل إن الكثير من القصائد لم يكتب إلا بعد نهاية ذلك العصر لمدة طويلة سجلها عالم من فم راو محترف أو أعرابي أيا كان".[2]

وكانت جبلة, غدت تقليدا حتى بالنسبة للمتضلعين في شؤون الأدب تمثلت في تواتر النص الشعري عن طريق الرواية المسموعة :" وحتى في مدارس العارفين بالأدب بقيت عادة نقل القصائد بالرواية الشفوية غالبا"[3]

مع الاحتياط الشديد برفض اعتباطية التغيير،وهو ما بدت معالمه قائمة واضحة عند نشوء المدارس النحوية زمن العباسيين؛ أما فيما سبق هذا العهد فقد طبعه .... جانب الجدية في تعاطي الشعر الجاهلي، فقد سلكوا مسلكا يتسم بالاستهتار وعدم المسؤولية[4]، لأن التناقل الشفوي وما يفضي إليه من تغيير وتبديل يسهم بطريقة أو بأخرى للنيل من الشعر الأصلي، وينسحب عليه الحكم نفسه للآداب الشعبية للأمم الأخرى؛ لأنها اعتمدت على الذاكرة, والذاكرة وحدها كرافد من روافد تناقل الشعر الجاهلي ,لا تكون رسولا أمينا في الاحتفاظ بالنص الأصلي, دون أن يصاحبه فعل المكتوب, حتى لو كانت هذه ذاكرة العرب المطبوعة بالقوة وسعة الحفظ ، ذلك أنه مهما يكن من قوة الذاكرة عند العرب ... فإن أقوى الذاكرات لا تستطيع أن تحول دون حدوث

---

[1] - السابق، ص ص: 21-22.

[2] - نفسه ، ص : 22.

[3] - نفسه ، ص : 22.

[4] - نفسه ، ص : 21.

تغييرات تدريجية قوية فيما يحفظ[1], وهناك عامل آخر له صلة بثراء اللغة العربية وسعة وعائها, وهو ما أدى إلى تبديل الجملة أو المفردة بغيرها عن قصد أو دونه, مما حدا ممن أسهموا في رواية قصائده، ذو الرمة يشكو من أن الناس كثيرا ما أفسدوا رواية القصائد بأن وضعوا عبارة من نفس المعنى والوزن مكان سهر الليالي في الظفر بها[2] , بوضع عبارة لها معنى والوزن نفسهما بدل عبارة: سهر الليالي، وهو ما جعله يوصي بتوظيف الخطية حفاظا على سلامة النص، ومن جهة ثانية فإن الاختلالات التي طالت مبنى القصيدة الجاهلية تشجع على إسقاط بعض منها أو تبديل في بعض منها تسلسلا يدل على اعتباطية بناء القصيدة الجاهلية , ورود أكثر من رواية للنص نفسه كالاختلاف الذي وقع بين المدرسين مع تسجيل اختلاف في الأبيات نقصانا وزيادة وكذا تباين في تسلسل الأبيات للوحدات.[3]

يدعم الكاتب رأيه بحجج إضافية، وهو سهولة في التصرف في القصيدة في الاستهلالات الغزلية - بعضها - ,أهملت لعامل التشابه، كما أن هناك عاملا آخر, وهو ما تجلى في أعمال ذ وق واضعي المصنفات الشعرية المتأخرة الذي أسهم هو بدوره في تجزئة القصيدة الشعرية بزعم منهم, أنهم انتقوا أجود الشعر الجاهلي، مما عزز فرضية إسقاط كثير من القصائد الأخرى، ذلك ما يسلط الضوء على الكم الهائل للمقطوعات الشعرية في النظام هذا[4] لم يعد على وجه القلة جمع بعض المقطوعات المنفردة التي ترجع في نشأتها إلى مصادر تختلف عن بعضها ؛ إذا ضمها قواسم مشتركة كالقافية والوزن والمضمون كذلك، فحصول ذلك وقع من قبيل السهو والغفلة، ومثال على ذلك ما جاءت عليه قصيدة امرئ القيس في أربعة أبيات منها " 48-51 في نشرة أرنولد"[5].

[1]- السابق، ص : 22 .

[2]- نفسه، ص: 22.

[3]- نفسه، ص: 23.

[4] - نفسه، ص: 23.

[5] - السابق، ص 24.

وكان من رأي السكري, أن رجح انتسابها لتأبط شرا[1] كما نجد أن البيت الشعري نفسه يتداول بالنص ذاته في قصيدتين للشاعر الواحد نفسه أو لشاعرين يختلفان فنجد أنفسنا- والحال كذلك-, أمام أكثر من افتراض، أما أن السياق لا يستقيم في إحدى المناسبات أو أن الخلط صادر عن الراوي مع انتقادنا لمواطن ارتكاز؛ إن داخليا أو خارجيا, تفضي بنا إلى تحديد مواطن الفصل الأصلية في النص الشعري[2]، إلا أنه في بعض المناسبات تتوافر على بعض الأمارات تحصل في اتحاد حر في كل من: العروض والروي في حال حدوث ذلك سيكون من الأدلة التي تأخذ بأيدينا إلى إفضاء السطر الأول الموقف الذي يكون استهلال قصيدة جديدة , وهو ما يؤول بنا إلى أن كثيرا من القصائد, جاء فحواها يوحد بين مجموعة من الأجزاء تختلف فيما بينها، لا يتاح لنا اليوم بحثا أن نركز إلى طبيعة الفصل فيما بينها[3] .

هناك عامل يضاف إلى ما تقدم أصاب الشعر الجاهلي العربي، كونه ملكا مشاعا لشعب استعمر رقعة جغرافية مترامية الأطراف, وهو ذلك التبديل الذي لحق لغة القصائد الشعرية بالرواية الشفوية عن طريق التغيير الذي لحقها عن عرب وعجم الأمر الذي فعل فعلته بحكم عامل الزمن، كما كان للتأثير اللغوي الذي تبتدئ عند الكتابة بالفوارق الحاصلة على المستوى التقعيدي في الأزمنة التي جاءت بعد رسول الله- صل الله عليه وسلم- كالاستدلال على ذلك بيت امرئ القيس :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل[4]

إن التفسير أمامه ظروف لفظية خاصة عند التقييد فتجلى في افتقاد وإلى الأبد الحركات الثلاث (الفتحة، الضمة، الكسرة).[5]

[1] - نفسه، ص: 24.

[2] - نفسه، ص ص : 24-25 .

[3] - نفسه، ص: 25.

[4] - نفسه، ص: 26.

[5] - السابق، ص: 26.

نجد عاملا آخر ساهم في إحداث التبديل على المستوى اللغوي، وهو ما تمثل في الدين, إن ظاهرة التدين لم تكن مشاعة بدرجة تشتد إلا أنه في الوقت ذاته لا يمكن إبعادها بصفة كلية كظاهرة اجتماعية في العصر هذا؛ لأنه ثبت بالدليل المحسوس, وجود قصائد جاهلة تشير إلى التعبد الوثني[1] , وهو ما دفع بالمسلمين التصرف في النص الشعري وبالإضافة :"..... نجد فيها الآن لفظ " والله" وكان في الأصل " والله" (واللات)[2] .

كما يضيف الكاتب إمكانة إقحام الأفكار الإسلامية في فضاء الشعر الجاهلي, ومنه يصل إلى تحريات ذاتية, وهو ما رآه في انتحال قصائد شعرية بأكملها أو بدس في مناسبات أخرى " أبيات كان بدافع الوعظ أو المحاضرة أو الفخر بقبيلة أو ذمها"[3] أو بإملاء من المناسبة المحاضراتية أو هو وازع الفخر أو الذم للقبيلتين.

وهو ما أفضى, إلى وضع قصائد أقحمت إلى الأصلية وانتسابها إلى شعراء جاهلين ذوى ذيع وحيث كبير من صنع رواة المحاكاة والنسج على منوال القصيدة الجاهلية وشعراء ما قبل الإسلام :"... واعتقدوا أن أبياتهم جديرة بأن تهمل اسم شاعر قديم"[4]، يدلل بقصيدة للنابغة الذيباني, من إخراج وطبع دي ساسي فيما اقتناه من شعر جاهلي، البيتان هما (22-23) لفرضية عدم ملاء مة أسلوب الخطاب لمقام الملك سليمان، مؤسس مدينة تدمر وعدم مجاراة الشعراء العرب لمألوف خطابهم:

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه ولا أحـــاشي من أقوام من أحد

إلا سليمــان، إذ قال الإله له قـم في البرية فاحذوها عن الفند

وَ خيس الجزافى إني قد أذنت لهم في احتمالية حذف بيتين فإن ذلك لا يحدث أثرا سالبا في السياق يبنون تدمر بالصفاح والعمل.[5]

[1] - شرح الحماسة، ص، ص:486، 13.

[2] - عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين، ص:26.

[3] - نفسه، ص : 27.

[4] - نفسه، ص: 27.

[5] - السابق، ص، 28.

ومرد الاعتراض, كائن في الاستناد للملك سليمان فالاستثناء هنا يرفضه ملك مسلم فما بالك بأمير جاهلي؟ علاوة على قرينة أخرى. ويواصل نودلكه تقفي الآثار التي يلتمس فيها سبيل بلوغ مراميه، يرى ذلك في تضمين القصائد الجاهلية معاني إسلامية في إقحام الأسطورة القرآنية، مما يوحي بالشك في أصلها.

ويعود إلى الإقرار بتوظيفه أساطير ،ك:"عاد" في محمول شعر جاهلي ثبت صحته: "وإن كان من مؤكد أن أسماء مثل "عاد"... إلخ توجد في أشعار قديمة صحيحة حقا.[1]

إن محاور التغيير هذه ,لامست النص الشعري الموغل في القدم بدرجة أكثر الذي نسج في وقت متأخر فيه, وهو ما يفسر الفارق الناتج عنهما بإعمال الرواية الشفوية عملها في الشعر ردها من الزمن الأول أبلغ من الثاني وذلك باحتساب عنصر الزمن كمنشئ للفوارق بينهما :"الذين لم تنقل قصائدهم بالرواية الشفوية زمنا طويلا"[2] .

ما صان الشعر المتأخر عن الأول, هو رعاية أصحابه وتعهدهم له بالحفظ وتنشيط الذاكرة الخصبة التي رعت ذلك واتخذت له مكانا قصيا عن التحوير والانتحال؛ أما التغيير الحاصل في الفضاء الشعري الجاهلي مددا من الزمن قد تطول ! فهو ماُيدْتقى, من مختلف الروايات التي تناولت بالحديث الأكثر ذيعا في مملكة الشعر الجاهلي, ألا وهو امرؤ القيس فالتفتيش في إحدى رواياته من مجموع رواياته الكثيرة, يرشدنا إلى الحدود التي نأت به عن الحقيقة، فالأبيات تغير ترتيبها والحجم نفسه نجده في أكثر من قصيدة، زد على وصل مقطوعات شعرية بعضها بعضا في شكل قصائد تتباين، والاستشهاد فيما روي عن السكري أن ظاهرة النحل لحقت كثيرا من الشعر الجاهلي :" نجد أيضا كثيرا من الأشعار المنحولة"[3].

وبتفحص الأدلة السابقة, بالتفتيش في النص الشعري الجاهلي وتحديدا , أساليب القول لمجموعة من الشعراء تختلف في الانتماء. قبليا فالنتائج ستؤول بنا من اليقين إلى

[1] - نفسه، ص: 28.

[2] - نفسه، ص: 28.

[3] - السابق ، ص 29.

الرجحان عن مصدر القصيدة الجاهلية التي نتواترها اليوم حيث أن نصيبا معتبرا منها ليس لمن نسب إليهم :" هذا لا يمكن أن يكون صحيحا، فهذا لا يمكن الشاعر قد قاله فعلا"[1], مع الاعتراف من جانب آخر بنسبية هذه النتائج وعند تعدد متن الرواية للقصيدة الواحدة أمكن لنا أن نقف على ترتيب صحيح لــها، كما أتيح لنا في الوقت نفسه, انتحال الزائف من شعرها والحاصل ليس في مقدورنا, القفز على ما بين أيدينا من رواية منقولـة، فالفترة الزمنية تقدر بالطول ما بين تأليفها وكتاباتها.

ضف إلى أن ما وصلنا من شعر جاهلي يعد قليلا، لا يؤهل دراستنا اللغوية إلى فرز الفروق اللغوية والتعبيرية عند الشعراء الجاهليين , لإرجاع النص اللغوي إلى وضعه الأصلي.

لما تقدم من تعديل, فلا سبيل لدارس الشعر القديم إلا الاعتماد على الرواية العلمية المكتوبة للأصمعي أو السكري ونحوهما، وفي المواقف الأخرى وبالتحقيق نصل إلى ما وضع من شعر ونسب إلى الأصلي, يستدرك الكاتب بعد الاطمئنان إلى هذه الاستنتاجات والتخريجات لاعتبارات عدة منها: انعدام الرواية الشفوية الأولى قبل المدونين للنص الشعري على الصورة والكيفية التي جاء عليها، كما أن هذه الرواية النقدية لا تنمو في ذاتها من إيراد شعر يخالطه الوضـع، لم يحقق الاعتراف , بالمقابل, هناك من الروايات التي خضعت للشروط العلمية اللغوية, على يد علماء المــدارس النحوية , فحصل لها بذلك التقدير الســابق :" بينما نجد لدينا روايات يحققها النحويون القدماء بعناية وعن معرفة دقيقة بالغة فكانت لها قيمة عالية جدا"[2].فاحتمالية العودة بالنص إلى فضائه الأصلي وطبيعته الأولى،فإن منطق شطط الرأي هو الراجح في ذلك، وهو الذي سيفرض نفسه؛ لأن ذلك سيتعارض مع منطلق الطرح الفيزيولوجي، لصعوبة الاهتداء والاطمئنان إلى الرواية الأصلية في طبعتها الأولى:" فإنه ينبغي عليه ألا يتوهم

[1] - نفسه، ص: 28.

[2] - السابق، ص: 30.

أنه أصبح أمام النص الأصلي للقصيدة كما أنشدت مثلا في سوق عكاظ أو في قصر الحيرة لأول مرة"[1] .

ويؤكد الكاتب عجزه, بعدم الاهتداء إلى الرواية الصحيحة من بين الروايات المختلفة التي أحاط بها في أكثر من مخطوط ومما زاد الأمر تعقيدا , الشروح التي أضيفت قد تكون لنصوص غير التي ألحقت بها، ضف إلى ما صدر عن النسخ من تهاون وعدم جدية، والوضع كذلك فليس من سبيل المتاح للناشر غير الاختيار. وخير دليل على ذلك "لامية العرب"[2].

وما صدر من حكم على النص الشعري الجاهلي، فهو ينسحب بالدرجة نفسها على الرواية ذاتها, ما تعلق بشأنها أو السياق التاريخي وما حيق بها, من أحداث لصلة رابطة بينهما فلم تنج هي الأخرى من التحوير :" مثلما حد ث لنص القصائد كذلك حدث مرارا للروايات المتعلقة بنشأة وظروف نظمها التاريخية"[3]. إننا نجد, أن كما معتبرا من القصائد تختلف في من نسبت إليهم من شعراء, فأنت تجدها مرة لشاعر وطورا أخر لغيره من الشعراء, مع ثبوت مجموعة من النصوص الشعرية لا يمكن أن يستقيم الأمر لمن نسبت إليهم وإن حدث ذلك, فهو بدافع الإلهام ليس إلا ! كما أنه ليس بممكن, أن يكون الأعراب على دراية بقائل القصيـــدة، ومن المتاح بقدر كبير لجامعي الشعر الجاهلي أن يحصل لديهم, ذلك الخلط بين واضعي الشعر فيما تم لهم من حفظ لهذا الشعر, كما قد يتجاوز هذا الخلط صلب القصيدة إلى القصيدة نفسها وقد يكون لبعض النقود التي لم تتوخ الموضوعية والتحري أن تنسب شعرا مغمورا لشاعر مشهور. وفي السياق هذا ورد على سبيل الرواية أن من علماء أهل الكوفة يتزعمهم قائدهم، حماد الرواية , حصل لديهم الاختلاف فيمن ينسبونه إليه أخر شعر كان أعرابيا مصدره رواية شفوية، فغلبوا الاحتكام إلى الذاتية فصلا في الموضوع والإشكال بقي قائما, في أن نسبة هذا الشعر كان لطرفة بن العبد, ينبنـــي على أساس الإقناع ", لكن السؤال يقوم حول, ما

[1] - نفسه، ص: 30.

[2] - نفسه، ص: 31.

[3] - نفسه، ص: 32.

إذا كانت الأسباب التي استندوا إليها في نسبة القصيدة إلى طرفة بن العبد أسبابا مقنعة حقا؟"[1], ومن التخريجات التي جاءت على وجه الاحتمالية عند الكاتب , أن التحكيم كاد يكون لصالح الشاعر أقل ذيعا وصيتا إذا كان بين شاعرين يختلفان وبخاصة إذا كانا يتحدان في الاسم ذاته؛ لأن دواعي المزج بينها تمليها طبيعة الفهم.

إن ما تعلق بكثير من الأخبار التي لها صلة بتسليط الأضواء حول قصيدة ما, يعود لمطابقة الفهم في حيز من القصيدة وتحديدا , إذا اعتمد معيار التفسير الحرفي السطحي الضيق، وهي أمثلة ساقها صاحب كتاب الأغاني ومن تعداه في الضرب هذا, فيما يتعلق بتناول حكايات الشعراء الجاهليين يرجع إلى إسناده في الفهم والمعنى، وهو أمر له أشباه في الآداب القديمة، أمر طال حتى الكتاب المقدس " يراجع المرء مثلا الأخبار الخرافية عن سوء فهم ما ورد في الآيتين رقمي: 1، 94 من سورة القمر وكذلك كثيرا من قصص " الهجاء ... من النص المقدس"[2] نجد ضربا آخر في السياق هذا في قصيدة لامرئ القيس والتي مستهلها :

لا تسلمني يا ربيع، لهذه وكنت أراني قبلها بك واثقا[3]

يتمثل ملخص روايتها؛ أنها نسجت على المنوال نفسه لقصة " جنقياق " حتى جانب الأساليب استرق كثيرا من الأنسجة فهو يحكي الطريقة التي أراد بها والده قتله بواسطة المسمى " ربيع" , الذي احتال على والده , بأن قدم له عيني ظبي للتقرير، ينضاف إلى ما تقدم ، ما روي عن الكيفية التي مات عليها الشاعر فيما أخذ عنه في بيته الشعري الوارد عنه قبيل وفاته، فالأمر كله يعزي إلى سوء تقدير في الفهم ترتب عنه ما علق بالأذهان تواترا , أخطاء نجمت عن عدم الإدراك, وهو شأن الأخطاء التي جاءت تذكر حياة الشاعر امرئ القيس وإن اختلفت فالمورد واحد.

وعلى وجه العموم, فإن تاريخ حياة هذا الشاعر الأمير تألف معظمها من قصص ذات مصدر متشابه لهذا[1]. وعدم التعاطي الصحيح مع النص الشعري يجد له مثالا ناصعا

[1] - السابق، ص: 32.

[2] - نفسه، ص: 33.

[3] - نفسه، ص: 33.

في مؤلف الحماسة في قصيدة نسبت إلى كبير الهذلي، فإن عدم التعاطي هذا ولد نفسا مصطنعا في الفضاء الشعري للقصيدة لا يجد لدى الكاتب أي تصديق لقبوله والاطمئنان إليه.

ثم ينتقل , نهاية مداخله بالتعريج للحديث عن اسم " المعلقات " التي عنونت بها كبرى وأشهر القصائد الشعرية، فهو يصنفها بالخرافة" المعلقات السبع"[2] ويذهب به زعمه، إلى أن تقييدها ومحوها تبث منذ زمن بعيد ويقدم استشهادا يعزز رأيه نحو، يوكوك في كتابه Specimen[3] مع إبداء جانب التحفظ والشك إزاءها كما يضيف كاتب آخر، هو ريسكه وما ألفاه من مشقة عند تقديمه معلقة طرفة بن العبد ونجده لا يكتفي بهذين المثالين ليقدم ثالثا تمثل في "هنجستنبرج" Hengstenberg ، فهو ينظر إليه، كونه الناقد الذي لا يقبل نقده أي مبالغة فقد جاء عنه عندما قدم لشعر امرئ القيس، فعن زعم تسمية هذه القصائد بالمعلقات ؛ لأدلة رآها هو فيصلا في الموضوع مع الإقرار ببعض الاستثناء، في أن عرب الجاهلية عرفوا الكتابة في مناســبات قليلة، بقي جيل المستشرقين من أمثال من خاضوا بحثا في موروثنا الشعري كـ "هربـلوا"، "ريسكه"، "ويليم جونز"، "ديساسي" إلى حد اليوم ،لا يملكون عن أنفسهم استجلاء الحقيقة مستقبلا.

فيرى أن تعليق القصائد ضرب ذلك بعد من الخرافة؛ لأنه قدم حولها أكثر من دليل، كان في غاية الرداءة، كما يضيف إلى خرافيتها شكلا في صحتها، أن المؤرخين القدامى لم يتناولوا في كتابهم بشيء من التفصيل، ما له صلة بمكة وتاريخها أمثال: "الأزرقي" ولا حتى ابن هشام ويزيد أن المصادر الرئيسة العربية، لم تأت خبرا في الموضوع هذا "....، كي نذكر أن المصادر الرئيسة عن تاريخ العرب وأساطيرهم الكلبي وابنه ، لا يعلمون شيئا عن ذلك الخبر كما أن الانتقاء طال النص القرآني المقدس والحكم نفسه يسحب عن التراث الديني وعدم إيذاء الرسول- صلى الله عليه وسلم-.

---

[1] - السابق، ص: 33.

[2] - نفسه ، ص: 34.

[3] - نفسه، ص: 35.

رأيه بشأن كهذا ، دنيوي مس قدسية الكعبة الشريفة ، يقرر ما فات كما أن المصادر الأدبية القديمة وكذا النقدية لم تأت ذكرا عن مثل هذا الخبر ولو كان هذا الخبر صحيحا كان محمد قد أبدى رأيه في هذا الأمر ....؛ أعني أن تكون مثل هذه القصائد الدنيوية قد علقت على أكبر حرم مقدس عند العرب.[1]

"كذلك لا يذكر كتاب الأغاني أو في أي كتاب آخر في تاريخ الأدب العربي القديم أومن يستند إلى مصدر قديم"[2]. لينتقل الكاتب من وصفه الأول، تعليق القصائد الجاهلية بالكعبة الشريفة من الخرافة إلى الأسطورة التي كان أول مصدر عربي يشير إليها، أحمد بن النحاس من دون ذكر توثيق لها الذي أنكر وجودها " بل أنه رفضها ، على أنها لا أساس لها مطلقا هو أحمد بن النحاس في العهود المتأخرة، ابن خلدون في مقدمته والسيوطي المتوفي سنة 338 أو سنة 337"[3] وممن خاضوا بحثا في الموضوع هذا بعد بن النحاس في العهود المتأخرة، ابن خلدون في مقدمته والسيوطي في ملاحظة أوردها ومنتخبات دي ساسي (ج 2 ص: 480) أو في عنوان المخطوط رقم 68 بليدن :" من مدائح على باب الكعبة"[4]. الشك لا يفارق أحكاما أصدرها الكاتب.

إن آراء المتأخرين: ممن اقتحموا هذا المضمون، جاءت حججهم واهية لا تقوى هي على ترسيخ هذه الظاهرة كونها جاءت منافية لتصرفات العرب القدامى، ومما يفند زعمها حجج وفرضيات استندت إلى القوة وركنت إلى الإقناع بإنشاء النقيض لها، كما أن هناك رعيلا آخر من الباحثين ، وهو ما أعطى صعوبة تحديد القصائد المعلقة الجاهلية، فالحصر العددي لحقه الاختلاف فمنهم من ذهب إلى سبعة وهناك من طرق رقم تسعة وأحكامهم دعامتها، افتراض هيئة تحكيم اتخذت من سوق عكاظ مرتكز التحديد لانتقائها.

---

[1] - السابق، ص: 35..

[2] - نفسه، ص: 35.

[3] - نفسه، ص: 35.

[4] - نفسه، ص: 35.

"إن آخرين قد أشاروا إلى الصعوبة في اختيار هذه القصائد السبع أو التسع من بين القصائد الجديدة"، ويصدر الكاتب شأن هذه الهيئة النقدية العكاظية فالعربي بغيرته وحرصه على التفاخر يرفض مثل هذه الأحكام وهذه الاختيارات، لأنها قد تبدي تحيزها لجهة على حساب الأمصار الأخرى وهو ما يشرح عدم تثمين اعتزاز الجاهلي بانتمائه القبلي وإعطائه حقه الذي يستأهله أما عن انعدام قرائن إثبات المعلقات بماء الذهب فترجع من جانبنا نحن ذلك إلى جنوح خيال الباحثين الأوروبيين ممن خاضوا في هذا الصدد :"إن هذا مجرد خيالات لعلماء أوروبيين"[1] .

وينفي في نهاية المطاف دأب العرب الجاهلين على تعليق المكتوب على الكعبة:" وعلى وجه العموم لا يعرف شيء عن وجود عادة التعليق على الكعبة".[2]

ويذهب ابن النحاس إلى أن حمادا هو الذي قام بلم شتات المعلقات التسع من هنا يستبعد جمعها من قبل قدماء العرب، فالانتقاء من مجموع كثير من الشعر الجاهلي والتقدير والتثمين كان من قبل حماد الرواية فيما ذهب إليه من حكم المفضل الضبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى :" وأيد حكمه هذا حكمان مختصان هما المفضل الضبي وأبو عبيدة معمر بن المثنى.

وهو ما أشار إليه مؤلف "جمهرة أشعار العرب" نقرأ ما يلي: "وقال المفضل: القول عندنا ما قاله أبو عبيدة في ترتيب طبقاتهم، وهو أن أول طبقاتهم أصحاب التسع معلقات، وهم: امرؤ القيس، وزهير والنابغة، والأعشى، ولبيد وعمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، قال المفضل: هؤلاء أصحاب التسع الطوال التي تسميها العرب بالسموط، ومن زعم غير ذلك، فقد خالف جمهور العلماء"[3].

فالحاصل، أن المعلقات سبعة ذكروا آخر ترتيب : امرئ القيس، وزهير والنابغة والأعشى، ولبيد، عمرو بن كلثوم، وطرفة بن العبد، ذلك تصنيف نقله صاحب جمهرة أشعار العرب عن المفضل الضبي والرأي نفسه يأخذ به أبو زيد القرشي في جمهرته،

[1] - السابق، ص: 36.

[2] - نفسه، ص: 36.

[3] - السابق، ص:37.

فالطبقة الأولى، جعلها لأصحاب السبع، تاليتها أصحاب الطبقات الست بتسمية متشابهة للأولى، فمن حماد الرواية تواتر أسماء :"السماط" و" المعلقات" فالتسمية الأولى سهل تذهنها، لوجه الشبه الذي يتوحد فيه حبات اللؤلؤ والقصائد الشعرية نظما وتأليفا فيما بينها، وهو ما وجد انزياحه إلى المجال اللغوي النثري فهي مرصعة منضدة تتآلف وتنسجم فيما بينها كحبات اللؤلؤ التي تشد بعضها بعضا في إحكام وفن فتضفي تلك المسحة الجمالية الفنية فهو سواء بسواء في نظم الشعر وحبات عقد اللؤلؤ، على خلاف التسمية الثانية التي جاءت من باب الاحتياطية ؛ إذ لا صلة بينها وبين مدلولها، كالاستعمال اللغوي العربي لم يورد السياقات ، توظف هذا المدلول ليستسلم الكاتب ندلكه إلى ما ذهب إليه النقاد العرب من ذيوع الخطأ بكيفية واسعة.

"وقد توقفنا طويلا عند هذه المسألة ؛ إما لأنه يتجلى بوضوح كيف تكونت الأسطورة، وإما لأن القصائد التي تتعلق بها مهمة، ولأن الخطأ شائع الانتشار"[1] .

"ويخلص نودلكه، إلى أن ما لحق الشعر الجاهلي، بتغيير نصوص القصائد القديمة الجاهلية"[2] من تبديل وما حاق بها من تحريف وبرغم الاضطراب الذي شهدته روايته، بقيت هذه الشاعرية التـي تبين مكنون الشعر، مكنون جسارة الشعر الجاهلي الذي كان انعكـاسا للحياة البدوية للمجتمع العربي كموروث لا زال يشـهد على خلوده إلى يومنـا هذا "، على أن قوة الشعر العربي البدوي وجماله لم يضيعا"[3] .

والشأن نفسه، طال ملحمة "هوميروس"، إلا أنها وبرغم كل التغيير الذي ألحق بها وما ران على مضامينها من إبهام وطلاسم، بقيت تعبرعن ر بيع الحياة الإنسانية وعن أسطورية المجتمع اليوناني وحياته الميثولوجية : "لا يزال يرق منها ربيع الإنسانية الوضاء، وسماء هلاس الزاهرة"[4] ويمكن لنا من مضمون قصائد بيولاف "BEOWLF" والنيبيلينجن "NIBELUNGEN"، وبرغم ما يكتنف شعرها من

[1] - نفسه ،ص: 39.

[2] - نفسه ،ص: 39.

[3] - السابق ، ص: 39.

[4] - نفسه، ص: 39.

غموض وتحريف فإنه يؤهل لولوج عمق الحياة الروحية الوثنية للمجتمع الألماني القديم.

"وكما أن قصائد "بيولوف" "BEOWLF" والنيبيلينجن NIBELUNGEN" الغامضة المحرفة تمكننا من النفوذ ببصرنا العميق إلى روح الوثنية الألمانية القديمة"[1].

فالجانب المضاميني للشعر الجاهلي، يقدم بين أيدينا التمظهرات الاجتماعية للبيئة الجاهلية ؛ إن سلبا أو إيجابيا، فالشعر فيه، آل على نفسه البساطة في المحاسن والمساوئ، بالعظمة ودونها في وصف الحياة في سذاجتها مع إعمال قليل للخيال، فهو: شعر رجولي يقتحم عوالم النفـــس ويؤثر فيها بالاقتداء على عكس آداب الخنوع الأخرى :"إنها ليست شعرا يسعى لتقديم صورة فوق حسية ... جعلها مهمته الرئيسية ، هي وصف الحياة والطبيعة... بيد أنه في نطاق حدوده عظيم وجميل.... روح تهزنا هزا مزدوجا.... التي نجدها في آداب كثير من الشعوب الآسيوية الأخرى.[2]

نقد نودلكه:

يبقى المستشرق نودلكه, من الباحثين الذين اعتنوا بدراسة الموروث الشعري اللغوي ولعل عنوانا من بين عناوين أبحاثه, توحي في جانبها المضاميني، وهو ما مثله, مؤلفه في :"سبيل فهم الشعر الجاهلي"، الذي أصدره, سنة أربع وستين وثمان ومائة بعد الألف, جاء رؤية إضافية وإطلالة أخرى مهما رفدت من محمول لتمظهراته المختلفة، تبقى في حاجة منا إلى الإقبال عليها والعودة إليها من منظور القراءة الواعية التي تقي الوقوع في شراك الغيرية يضيف إليه عنوانا آخر لمنتوج تحت اسم "الشعر الجاهلي"، عرف الإخراج سنة واحد وعشرين وتسع مائة بعد الألف وهو ما يوضح لنا

[1] - نفسه، ص: 39.

[2] - نفسه، ص: 40 .

نحن البحث الجاد من قبل هذا المفكر فهو يخوض في الشعر الجاهلي بنسق متواصل يبغي الإدلاء بدلوه فهل من مطلع ؟ ! وهل من ناقد ؟ !

إن القصيدة الجاهلية جاءت تخضع للنمطية الواحدة:" إلا أن ما فات الكاتب استثناء إزاء النمطية هذه وهو ما مثله شعر الصعاليك، الذين لم يخضعوا قصائدهم للبدايات الطللية لامية العرب للشنفري وتأبط شرا...

فهم لم يثوروا على الشكل وحده, بل ثاروا كذلك على المضمون, فجاءت أشعارهم ثورة اجتماعية على مألوف الوضع القبلي، فهم ثاروا بشعرهم وفي الوقت نفسه بأسيافهم إلا أن الكاتب عاد أدراجه لينتقض رأيه بقوله: "أن بدايتها ترجع إلى أزمته عميقة ساحقة " لامية العرب الشنفري:[1]

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل
أديمُ مطال الجوع على أميه وأصرف عنه الذكر صفحا فأذْهلُ
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له على من الطول امرئ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب يعاش به إلا لدي ومأكل
ولكن نفسا حرة لا تقيم بي على الضيم إلا ريث ما أتحول

فعزة النفس والإباء دفعت بهم إلى التحليق في أدب الإنسانية الرحب والترفع عن كل ما هو وضيع والرضا ببساطة العيش ولو كان ذلك استفاف التربة.

وها هو عروة بن الورد، الذي يعد أبا للصعاليك يقول:

دعيني أطوف في البلاد لعلني أفيد غنى فيه لدى الحق محمل
أليس عظيما أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معول[2].

فغير هذه النماذج كثيرة حوتها بطون الأدب العربي، فشعرهم جاء ثورة على بنائية القصيدة الجاهلية، هذا من حيث ما هو شكل؛ أما من حيث ما هو محتوى، فجاءت أشعارهم تمردا على الفوارق الاجتماعية الصارخة التي لا تراعي فيها سواد الفقراء، حتى كأنهم رأوا من وجهة نظرهم أنه استراق لحقوقهم وحقوق الفقراء الذين يمثلونهم،

[1] - زين كامل الخويسكي و سالم عبد الرازق سليمان، في الشعر الجاهلي، دراسات ونصوص، ص، ص :107-108.

[2] -فوزي أمين، الشعر الجاهلي دراسات ونصوص، ص: 417.

فعزة النفس جبلة ماثلة فيما فرضوا من شعر في ظل الاختلالات الاجتماعية القائمة، إلا أن الوسيلة التي استعملوها تلك منهجية لا نشاطرهم نحن الرأي فيما ذهبوا إليه، فالحريات الجماعية والفردية مكفولة بحكم القانون السماوي، ولا يجرؤ كائن من كان استيلاب ما أعطاه اله لعباده! والتفاوت الاجتماعي، ذلك شأن طبيعي خلق عليها بنو الإنسان.

إن فكرة :أن القصيدة بدأت أرجازا فكرة مسبوقة، لم يأت فيها الكاتب بجديد، كون هذا البحر سهلا، جاء يسايربدائية الشعر العربي.

إن ظاهرة الاستهلال الطللي للقصيدة الجاهلية ذلك تقليد دأب عليه شعراء جاهليون، فهم يبدؤون قصائدهم بذكر الحبيبة الواحدة، سواء كان ذلك واقعا معيشا، أم مجرد محاكاة لهرمية القصيدة:

ألا يا دار عبلة بالطـوى كرجع الوشيم في رسخ الهدى[1]

ولخو لة أطلال ببرقة ثهمد وقفت بها أبكي وأبكي إلى الغد[2]

و في روايتين أخريين :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباق الوشم في ظاهر اليد[3]

لخولة أطلال ببرقة ثهمد وقفت بها أبكي وأبكي إلى الغد[4].

فالوقفة الطللية أضحت ظاهرة فنية، تناولتها كثيرات الدراسات التي تخصصت في الميدان هذا، أما القول أن في عهد امرئ القيس ،عرفت سبيلها إلى الجدة، أزعم أن هذا تقليدا فنيا، كما أسلفت وأن امرأ القيس, مقلد فيه باعترافه هو في قوله:

هل غادر الشعراء من متثلم أم هل عرفت الدار بعد توهم؟[5]

---

[1] -عفيف عبد الرحمن، الشعر الجاهلي، حصاد قرن ص، 79.

[2] – نفسه، ص : 398.

[3] - الزوزني، شرح المعلقات السبع ، قدم له ط فركوجان، ص113.

[4] - ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين، منشورات محمد علي بيضون، ص:202.

[5] - السابق، ص: 317.

فالبدايات في ذلك ,لا أحد يقف فيها على قرار، فالإجماع شبه حاصل على جهل مبتدآت الشعر الجاهلي لا نستطيع استصدار أحكام كالتي ذهب إليها الكاتب.

والكاتب في لغة استدراكية، يقر بذلك بإيغال البدايات في عمق التاريخ، وفي الأدلة كثير على ضياع كثير الشعر الجاهلي، ففي بعض مقطوعات الشعر ما يدل على الابتسار والبتر، ومن ذلك قول ربيعة بن مقروم الضبي في يوم بزاخه مفتخرا، مبتدئا بهذا البيت:

وآل مزيقياء وقد تداعت حلابتهم لنا حتى فرما[1]

وفي قصيدة أخرى لم يسلم منها إلا هذا البيت، قال:

لقد كنت جار ابني هجيمة قبلها فلم يغن شيئا غير قتل المجاور[2]

فلا يعقل ,أن يهجو الشاعر متيجم بن وئيل الرباحي يحط من شأن طارق الربوعي في بيت واحد ؛لأن ذلك لا يشفي الغليل !، هذا ناهيك عن بداية البدايات، فالحكم الفصل في مثل هذا الموقف غير وارد البتة ! ؛لأن ما بين أيدينا من معطيات لا يفي شمولية بالغرض.

فالموروث الشعري الجاهلي, الذي حفظته بطول تاريخ الأدب العربي يمسح زمنيا قرنا وفي أوسع تقدير قرنا ونصفا، فهل هذا هو كل الشعر الجاهلي؟ ! ، من جاهليته الأولى إلى آخرته ؟، فالجزم هنا بالنفي مؤكد ... وإلا كيف نفسر التطور الفني الذي وصلت إليه القصيدة الجاهلية التي هي بين أيدينا اليوم، فالتبصر يملي علينا أن هذا النضج جاء بعد مسيرة تاريخية فنية للنص الشعري الجاهلي، نفتقد اليوم نحن حلقاتها الأولى وسبل وصلها، فجاءت هذه الحلقات الشعرية ينفصل بعضها عن بعض ونتصور أن البدايات جاءت محتشمة، تتعثر في بعض مواطنها، فهي طفولية المنشأ وما يصاحب ذلك من هنات، تفسر طبيعة تصرفات الطفولة الأولى، هذا عن البدايات الأولى لنشأة القصيدة الجاهلية، أما عن الضياع فيرجع ذلك إلى عوامل، نذكر منها: "... فإنه يقرر أن الشعر قد قطع مرحلة طويلة في تطوره، ومن ثم فإن القصائد الطويـلة التي ترجع إلى

[1] -عفيف عبد الرحمن ،الشعر الجاهلي، حصاد قرن، ص140 ،

[2] - نفسه، ص:141.

حوالي مائة وخمسين سنة قبل الإسلام، ليست إلا تطورا أخيرا أو صورة كاملة لهذا الشعر، وإن الشعر الجاهلي أقدم وأبعد زمنا من تاريخ هذه القصائد"[1].

أ-عاديات الزمان: إن الحضارة لم تقدم الإمكانات المادية التي نعرفها اليوم كالحفاظ على الأرشيف، وإخضاعه للمنهجية الحديثة، التي تمكن العودة إليه متى شئنا، وبالطريقة التي نريد، ضف إلى انعدام الأماكن المخصصة لتحافظ عليه دونما تأثر بفعل العوامل الطبيعية، فانعدام هذا الشرائط جعل كثيرا من الشعر الجاهلي تطاله نوائب الدهر وتجعله عرضة للإتلاف.

ب-الاضطرابات السياسية: إن المجتمع العربي- وعلى مر التاريخ- جاء يخضع ،لحركية نزعة عدوانية فسلطان الخضوع والولاء إلى القبيلة وبدوافع الذود عن حياض هذه القبيلة وصون شرفها، وفي كثير من الحالات كانت لأسباب تافهة، فحرب البسوس، أو داحس والغبراء، والتي دامت زهاء الأربعين سنة أو يزيد، أو لغيرها من العوامل الأخرى ...، أججت نار الفتنة والاقتتال في المجتمع الجاهلي، هذا في عصر بنائية القصيدة الجاهلية، فعادت هذه العدائية سلبا على الشعر الجاهلي، يضاف إليه اضطرابات أخرى أعقبت الأولى، وهو ما تجلى في الاختلالات الاجتماعية والسياسية والتي أثرت سلبا في المأثور الشعري العربي.

ج- هناك عامل آخر، وهو ما لحق بالمراكز الحضارية من إتلاف، كان في بداية أمره على يد المغول، هذا العنصر المتوحش القادم من مواطنه البدائية، فعاث فسادا وأحرق من الكتب والمؤلفات ما ذهب بمداده نهرا دجـــلة والفــرات، دون أن نجهل عاملا آخر, وهو ما تجسد في قيام الحضارة الغربية على أنقاض حضارتنا ؛ منها النفائس الأدبية والشعرية، فتمت سرقات هذه اللآلئ، وتحويلها إلى مراكزهم الحضارية للاستفادة منها أولا والإساءة إليها ثانيا وذلك لمسحها بشكوكهم لما تحويه بطونها من ذخائر*.

[1] - السابق، ص: 141.

* - الباحث .

على ألا يفهم مما فات، أن الضياع انسحب على الشعر العربي جميعه، بل أن ذلك جاء على بعضه، لوجود عوامل عملت على صونه، ومنها العصبية القبلية، فبرغم ذكر أسباب أسهمت في ترسيخها، إلا أن هذه الأخيرة وبدافع الحفاظ على شعر القبيلة وذكر تمجيد مناقبها وتعداد مثالب أعدائها، سعى رواة القبيلة للحفاظ على سجل حياتهم القبلية[1] يقول شوقي ضيف:" ويجب أن لا يبالغ مبالغة عمرو بن العلاء فقد بقي منه كثير ألفت فيه مجلدات ضخام"[2] ، ويبقى إشكال آخر طرحه الكاتب ،هو هل من وجه حق أن الشعر الأموي يمثل الاتجاهات الشعبية الوثنية ؟، فمن باب المنهجية التي رصدتها لهذه الرسالة ، لا أسمح لنفسي الخوض فيها شأنها، شأن التساؤلات الأخرى والانزلاقات التي ذهب فيها الكاتب مذاهب شتى، وأبقى أنا أبحث عما يهمني في مادة بحثي، أسعى جهدي لإعطائها ما تستحق من النقاش، ومن ذلك ما جاء عن الكاتب، إقراره بعجزه عن الإحاطة علما بالاستعمال الشعري، وهو ما يعقد وضعه أمام غموض الشعر، أو إشكال ما جاء منه ناقص الفهم ومرد ذلك نأي الشعر العربي عنا جغرافيا وتاريخيا، وهو إشكال جثم واقفا أمام علماء اختصوا في هموم اللغة في عصور الجمع والتدوين وما زاد في تعميق الهوة الفاصلة، هو ما جاء من مقطوعات الشعر مبتسرا، في حاجة إلى اكتمال دائرة فهمه بحثا عما اجتزئ عن جسمه ، فالقصيدة كمشهد هي في حاجة إلى جميع أجزائها لتظهر في صورتها الفنية المتكاملة.

يشير نودلكه إلى استقلالية البيت الشعري وانفصاله ككيان داخل هرمية القصيدة الكلي، فإن كان ذلك فإنما حدث على المستوى الظاهري- كما يتصور - إلا أن الوحدة النفسية للقصيدة، هي العنصر الموحد لأجزاء القصيدة وليس البيت كما ذهب إليه.

وتحسس عمق التجربة الحضارية والإنسانية التي رافقت المجتمعات العربية والروح التي كانت تغمرها يتجلى في تضاعيف التعبير الأدبي، الذي كان أوضح في

[1] - الشعر الجاهلي، حصاد قرن، ص: 143

2 -شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص: 188.

مجاله دنيا الفكر، وهي روح عربية كانت تعيش مخاضا مستمرا لتعبر عن ذاتها اجتماعيا[1] .

يرى يوسف اليوسف، في ما بحث في شعر المعلقات، فإن ما ينبغي للدراسات الحديثة، اليوم أن تعنى به، في تناول الشعر الجاهلي بالبحث في بالإيمان بوحدة القصيدة الجاهلية، وليس هذا فحسب، بل إحالة الظاهر على الباطن وتوثيق الصلة بين الظواهر نفسها، ولأنه يرى تداخل الجوانب الفنية وتشابكها، من حيث لا يمكن الفصل فيما بينها، كما يشرح هذا الرأي في مؤلف له آخر تحت عنوان :"مقالات في الشعر الجاهلي"، في قوله :" إن الشعر إفراز اجتماعي، إضافة إلى أن القصيدة تبدعها نفس معينة لها أحوالها وحاجتها الشخصية"[2] .

فباستنطاق ما فات من نصوص، نفضي إلى أن العمل الإبداعي الفني للنص الشعري، مرده إلى سراديب النفس الواحدة تمسح العمل الفني بطابعها، فوحدة العنصر النفسي، هي الأساس في تقويم الظاهرة الشعرية، وأن تراكمات التجربة الإنسانية الإبداعية ، إنما أساساتها الروح الوثابة التي هي تفسير كل ما هو خلق فني على ممر التاريخ.

فالمسيرة التاريخية للشعر الجاهلي وتواتره في كل ذلك مشافهة ، جعله يحافظ على أصالته، فما بين شفاهيته وكتابته مدة زمنية تطول:" بل أن الكثير من القصـائد لم يكتب إلا بعد نهاية ذلك العصر مدة طويلة، سجلها عالم ... أيا كان"[3]، لا يمكن لنا إنكار أن الشفاوية كانت مصدرا للشعر الجاهلي :" ... نحن نقبل الرواية من حيث المبدأ أو نعتمد عليها في قبولنا للشعر الجاهلي ولا نتهمها بالانتحال"[4] ، فهي ؛ أي الرواية الشفوية, ظلت من الروافد التي رفدت الموروث الشعري الجاهلي ردها من الزمن بكل تجلياتها

---

[1] - السابق، ص255.

2 – نفسه، ص: 255.

[3] -عبد الرحمن بدوي ،دراسات المستشرقين : ص: 22.

[4] - الشعر الجاهلي، حصاد قرن، ص :741 .

نقلا وانتقادا وذوقا من قبل رعيل من الرواد المحترفين، ولا يمكن لنا اليوم وصفها بالتزوير أو القدح في أمانتها، ولا يمكن لمتبصر في وقتنا الفصل ما بين الرواية الشفوية والكتابية، إلا إذا جنحنا تعسفا دونما رؤية واجتزأنا الفكرة وأخذنا بأنصافها :"ظلت رواية الشعر الجاهلي شفوية بالفعل والاصطلاح على مدى زمن طويل مستمر حتى أن تم التدوين، لأنه كان تسجيلا خطيا للرواية الشفوية"[1] ، التخلص من ازدواجيتها، فهو واقع أملـى شروطه على الصيرورة التاريخية لرواية الشعر الجـــاهلي، في جانبها الخطي والشفهي، وفي جميع الأحوال، بقيت الشفاهية رسولا أمينا بالرغم ما لحقها من شوائب، قد تكون ذاتية أو موضوعية ، رافدا ومصدرا أساسا أوصل إلينا عبر قنواته موروث الشعر الجاهلي، تبقى حاجة في النفس وهو الجزم، بأن الشفاوية وحدها، نقلت هذا الكم المتلاطم من الشعر الجاهلي، هذا في نظرنا، يبقى من واحدية الطرح والأقرب إلى الأذهان، هو تزاوج المسموع والمكتوب معا في تناقل هذا الموروث الشعري، فإن الذهاب مذهب إقصاء الكتابية عن المجتمع الجاهلي، نرى فيه إجحافا وتهربا أمام حقائق قائمة بذاتها تمليها قرائن مادية وتاريخية كثيرة في حق حضارة المجتمع الجاهلي ؛ لأن الكتابة واقع فرض نفسه، ففي هذه الأبيات برهان على ذلك:

عرفت الديار كرقم الدوا ة يربـرها الكاتب الحميري
برقم ووشى كما زخرفت بميشمها المزدهاة الهـدي
أدان وأنبـــأة الأولو ن أن المدان المـلي الوفي
فنمنم في صحوف كالريا ط فيهن إرث كتاب مجـي[2]

ففحوى أبيات أبي ذؤيب ينطق كتابه، فمن أدواتها: الدواة، الكـاتب، رقم، صحف، كتاب، فهي كلها مجتمعة تؤسس لفعل الكتابة.

وفي مثال آخر للشاعر معقل بن خويلد:"

[1] - نفسه، ص : 775.

[2]- مصادر الشعر الجاهلي، ص: 123.

وإني كما قال مصـلي الكتا ب في الرق إذ خطه الكاتب:

" يرى الشاهد الحاضر المطمئن من الأمر ما لا يرى الغائب"[1]

ففي مضمون هذين البيتين دلالة المكتوب، وما تحيل عليه من : كتاب ومكتوب.

أزعم أن هذا وغيره من الاستشهادات بكاف على ازدواجية تناقل الشعر الجاهلي سمـاعا وكتابة، دونما إقصاء لواحد على حساب الآخر وإن اختلفت النسبة !.

إن الكاتب يحوم حول فكرة رئيسة، مفادها التشكيك في رسالة الرواية الشفوية، ولعله يبغي من ورائها محمول هذه الرسالة. إن التشكيك لا يقوى، أن يبقى قائما أمام القرائن المادية الكتابية التاريخية، فالرواية الشفوية برغم ما لفق حولها من اتهام، إلا أن ذلك لا ينسحب عليها جميعها، قد يصح في جزء منها؛ أما وأن يعمم ذلك الحكم فلا يستساغ، فالرواية الشفوية كمصدر من مصادر الشعر الجاهلي يبقي الشعر مضمارها، دأبت العرب على تمرير الرسالة الشعرية عن طريق راوي الشاعر، يخصص ذلك تخصيصا، فزهير بن أبي سلمى كان راوية الشاعر أوس بن حجر التميمي كما كان لزهير راويتان يرويان عنه شعره، وهما ابناه كعب والحطيئة ولهذا الأخير راوية، هو هدبة بن خشرم العذري ورايته هو كذلك كثير عزة[2] ، والشأن نفسه عند باقي الشعراء، وبهذا تكون الرواية الشفوية، قد أدت دورها التاريخي الذي كان يجب أن تقوم به، أما أن تلقى الأمور على عواهنها ورميها بطلانا كلها بأنها لم تكن أمينة، شيئ لا يستسيغه العقل ولا تحتكم إليه الموضوعية فابن سلام يقول بشأنها: "رواة الشعر أعقل من رواة الحديث، لأن رواة الحديث يروون مصنوعا كثيرا ورواة الشعر ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع"[3].

نفهم من ذلك أن رواية الشعر صحبتها حركة نقدية، وقفت لكل دخيل، كل منحول بالإبعاد أو في أقل تقدير بالا شارة إليه.

---

[1] –نفسه، ص :124.

[2] –علي أحمد الخطيب، الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، ص ص : 138-140.

[3] -شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص :156.

جاء عن الدكتور عفيف عيد الرحمن: "ومن الواضح من خلال عرضنا لتراجم أوليات الرواة، أن غالبيتهم موثقون، أو على الأقل لم نجد بين أيدينا من المصادر ما يخرج روايتهم"[1]. وهو تعزيز لما صدر عن ابن سلام من حكم، فالرواية خاض مجالها من الرواة من اتصفوا بالأمانة كالمفضل الضبي والأصمعي، عمرو بن العلاء وغيرهم...

شهدت الرواية الشفوية، على يد المتضلعين من أهل اللغة، والرواية، كحركة صحيحية عميقة، غربلتها، مما لحق بها من زيادات، إلا أنه لا يمكن تجاهل مداخلا تهم التنقيحية، كان ذلك في مجالات محصورة كاستبدال كلمة بكلمة، أو إخضاع الألفاظ بعضها، لتعقيدات لغة قريش، فأدى ذلك إلى تصليح ما سقط من لغة الشعراء، وقد يطال التصليح وزن القصيدة ، إلا أنهم وفي كل ذلك بقوا مسلحين بروح الأمانة العلمية بأن حافظوا على كيان القصيدة وتمريرها إلى الأجيال في صورة تكاد تكون أصلية[2].

وما يستقي من كلام شوقي ضيف، ما لحق القصيدة الشعرية الجاهلية، من تغيير مس جوانب شكلية جزئية، ولم يتعد ذلك إلى الجوهر فيها، حيث بقي هذا يعبر عن انتمائها الجاهلي روحا وتاريخا وفنا.

وفي السياق نفسه يذهب إحسان سركيس في دراسته " مدخل إلى الأدب الجاهلي" ،أنه لا يتم ذلك إلا بمعاينته.

إن الزعم ،أن لغة قريش لم تكن متداولة بالكيفية التي سحبت على الشعر الجاهلي، فأمر نراه في حاجة إلى مناقشة، فلغة القرآن كانت سائدة في الجاهلية، وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها، وأنها كانت لهجة قريش، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية[3].

---

[1] - نفسه، ص: 156.

[2] - هو الكلام نفسه يحتكم إليه عبد القادر الرباعي، في دراسة عن التفسير الأسطوري في الشعر الجاهلي " .. تجاوز الحسية والغرض ووحدة البيت الجزئية، التي ما زالت الدراسات التقليدية تتابعها .... إلى ربط الشعر الجاهلي بالتجربة الوجدانية للإنسان العربي، حتى أصبح الحس روحا، والغرض حدثا، والوحدة الجزئية بناءا دراميا، تتفاعل على داخله، المتشابهات والمتنافرات لتشكل وحدة نموذجية جذرية، يلتقي فيها الواحد بالمتعدد والذات الشعر الجاهلي، حصاد قرن ص ص : 213،214

[3] -شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي ص : 167.

إن هذا الرأي يقيم حجة نراها نحن مقنعة، فلغة قريش وتحت عوامل متعددة لقيت رواجا، وذيوعا، فمن حيث المعتقد، كانت الكعبة محجتهم يلتقون فيها في مواسم دينية، ومن حيث ما هو اقتصاد، كانت أسواق مكة يؤمها المتاجرون يبغون حاجاتهم وقضاء مآربهم، ومن حيث ما هو سياسة، فالخوف على عبادتهم الوثنية من العدوان الأجنبي من قبل أعداء الجوار كالروم والفرس والحبش، وكذا الخوف من المد الغربي للمسيحية واليهودية، فكانوا عينا ساهرة ويدا واحدة على من عاداهم: " فقد كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش، على أطرافها، كما كانت ترى هجوم الديانتين؛ المسيحية واليهودية، على دينها الوثني فتجمعت قلوبها حول مكة وهوت أفئدتها إليها""[1].

إن التكامل بين اللغة والحديث، فهو لم يطرق هنا لاستقلاليته كلغة لذاتها وإنما كوعاء للشعر الجاهلي، ذلك هو المقصود في هذه المناقشة، وما أثاره من اختلاف بين المدرستين: البصرة والكوفة، وما أفضت إليه الدراسات النحوية واللغوية، جاءت توجه إلى الأخذ بالتخريجات البصرية، التي اعتمدت التمحيص والتحري، والمنطق فيما ذهبت إليه من تخريج، فهم وضعوا تعقيدات وسننا لغوية، وجب التعامل بها في التعامل اللغوي وكان من أعلامها الذين يرجع إليهم الفضل في ذلك ،" أبو عمر ابن العلاء، والخليل ابن أحمد، ويونس بن حبيب، والأصمعي، وهم يريدون بذلك التثبت والتحري والأمانة في النحل والأداء ؛ لأن هؤلاء الأربعة كانوا أركان الرواية في اللغة العربية... فقالوا أن الأصمعي كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل بن أحمد يحفظ نصف اللغة وكان أبو قيد مؤرخ السدوسي من تلاميذ الخليل، يحفظ اثنتين وكان أبو مالك عمرو بن كركرة الأعرابي يحفظ اللغة كلها""[2] .

أوردت محل الشاهد لأقف فيه أنا شخصيا، على الدرجة العلمية اللغوية للعالم الأصمعي، فوجدته آخر الأربعة الذين ذكوا في رواية أخرى " بأن الأصمعي يجيب في

[1] - السابق، ص: 133.

[2] - نفسه، ص ص: 343- 344.

ثلث اللغة، وأبو عبيدة في نصفها، وأبو زيد الأنصاري في ثلثيها وأبو مالك الأعرابي فيها كلها[1]، وحتى في هذه الرواية فهو لا يبرح مكانته السابقة، وما كنت أبغي مناقشة ما ذهب إليه من صدود وإعراض "، ثم كان لا يفسر شعرا يوافق تفسيره شيئا من القرآن"[2]، كان ذلك بداية التحرج الذي تثيره المسألة في نفسه، وهو الأمر الذي لا يسمح به معتقدة، وفي شرح أبي عبيدة في كتابه: " المجاز في القرآن" الآية: "وطلعها كأنه رؤوس شياطين"، وفسر ذلك بوقوع الوعد، فما حصل فمخاطبة الله -عز وجل-، العرب, جاءت بلغة يعرفونها هم ويتواصلون بها ودلل عل ذلك بشعر امرئ القيس: "ومسنونه رزق كأنياب أغوال" ؟، مع أن الغول لم يعرفه العرب إلا كدليل على هول وعداء[3]. وباستقراء ما فات وبرغم تفاوت درجات التقويمين، يبقى تحفظه تمليه عليه أمور هو شدد فيها على نفسه، لم يرد الخوض فيه لحواجز رأى عدم تخطيها، قد يكون إيمانه الديني وثقافته الإسلامية، كما ذكرت أو عوامل أخرى لم يأت على ذكرها، لكننا رأينا أن أبا عبيدة لم يكن هو الوحيد الذي أثار التواتر اللغوي بين النص القرآني والنص الجاهلي مما يعزز الرأي لدينا، بأن لغة القرآن الكريم كانت هي اللغة التي تواضع عليها الجاهليون خاصة في مرحلتها الأخيرة التي صهرت فيها اللهجات العربية لأسباب جئنا على ذكرها من قبل ولا سبيل يقنع أن ننكر ذلك اليوم.

فإذا تضمنت القصيدة الجاهلية معاني تقاطعت مع مضمون القرآن، ذلك أمر لا نحسب أنه يثير الاستغراب بل هو ينبت في حياة الأنسجة العربية التي تمتد للتواصل ونتقطع عن كيانها الأم كروح لا يمكن الفصم فيما بينها.

النظرة الاستشراقية للغة العربية ،إنما جاءت إسقاطات لتصورات غربية - غالبا- تعسفية، وتحميل قوالبها اللغوية ما لا تستطيع حمله كإقحام المصطلح والنظرية وبدت دراستهم متنامية من جيل لآخر بداية بجيل كاسباري Caspari

[1]- نفسه، ص :344.

[2] - نفسه، ص: 344.

[3]- السابق، ص: 344.

وفلايتشر Fleisher وترومب Traump ويأتي بعد ذلك فيشر Fiesher، مقدما العربية في توجه غزلي[1].

فالعربية عندهم تحامل غربي، فأنى لهم ذلك؟! ، فهي روح عربية خالصة والفكر يواكبها في مسارها التاريخي، لتبقى تؤازره في نظر الباحثين المتضلعين في شؤون الدراسات، فهي المصادر التي تشد حلقات التواصل اللغوي للسان العربي، ليبقى- من وجهة نظري-، قصور يشوب ما حام حوله المستشرقون وفي كثير من الحالات، أعلنوا عجزهم بأنفسهم في الميدان هذا.

بقي في حكم الطبيعي هوأن ما يلحق باللغة في القصيدة الجاهلية، من تبديل في المستوى اللغوي، ذلك شأن بقي يميله التواتر الشفوي للرواية، فبصمات الرواة واختلافهم، تبقى تسم القصائد بميسمها؛ لأن ذلك لا يعني التغيير الكلي للنسيج اللغوي، فالأمر لا يعدو تغيير كلمات في أقصى تقدير، وما عنى من تباين في التقعيد الذي جاء في اللغة العربية، مرده إلى أن التقعيد جاء كآليات لنشوء اللغة للغة جاءت لتتداول بالسليقة، فالنقط والأعجام والحركات، برزت في فترة التدوين العلمية، خوفا على اللغة العربية من اللحن الذي أصابها، جراء عدم الضبط من الأعاجم الذين تعربوا حديثا، وعلى وجه التحديد الخوف على النص القــرآني، والمدارس النحوية من بصرية وكوفية خاصة، أثارت هذا الاختــلاف، وما يعززه الاختلاف قراءات قرآنية، عمرو بن كيساء، عمرو بن العلاء...

إن النقد العربي المصاحب علم الرواية الشفوية العربية، جاء خاضعا لعامل الذوق الشخصي الذي يعد المحور الجوهري في الحكم على النص الشعري المروي " إن الذوق الشخصي أساس الحكم على الشعر"[2] فهو في الفخر الشخصي، المعيار الغالب في العملية النقدية، شريطة تسلح الناقد بــ:

ا-الدراسة الواسعة؛ بمعنى أن يكون الناقد متضلعا في بحثه محيطا به من جميع جوانبه وتبقى إضافة عامل النسبية إلى هذا الشرط فالعلماء القلة يحتفظون بآرائهم،

[1] -إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون، المناهج اللغوية، ص:113.

[2] - عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، ص :184.

وأحكامهم لصالح الأغلبية :"وقد اختلف العلماء بعد في بعض الشـــعر، كما اختلفت في سائر الأشياء، فإما اتفقوا عليه، فليس لأحد أن يخرج منه"[1]، فنجد أن الحركة النقدية يخضع لسلطانها ما أجمع عليه أغلبية النقاد، على تقدير أن الأغلبية من العلماء، لا يمكن له أن تضل سبيلها.

ب-الدربة وممارسة النقد الشعري: "فإذا كانت المدارسة تعدي على العلم بالشعر كما يقول فإنه الدربة هي التي تربي الذوق وتعين على موضوع الاستحسان في الشعر".[2]

ومن الأمثلة الحسية التي ساقها ابن سلام: "وكذلك البصر بالرقيق، فتوصف الجارية، فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشطب، نقية الثغر، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، ظريفة اللسان... ولا يجد وصفها مزيدا على هذه الصفة... ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء.أنه لندي الخلق، طل الصوت، طويل النفس، مصيب اللحن، ويوصف الآخر بهذه الصفة.وبينهما بون بعيد، يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع بلا صفة، ينتهي إليها ولا علم يوقف عليه[3].

نقف مما فات من استشهاد، على أن إصدار الأحكام القيمية، لا يتأتى إلا من مرجعيات ومؤهلات نقدية عميقة، وهو الأمر الذي لا نقف فيه على قرار، بل يجيء تحقيقه بتنمية الجانب الممارساتي.

إذا لم يتوفر هذا لدى الناقد، يصبح ما يصدر من حكم من التعابير الفنية، وإن تفاوتت، إنشاءات تبقى مكررة.[4]

فالنقد كعملية مواكبة لحركية الرواية، جاء يفرز الأصيل من الدخيل ردا على الأحكام التي جاءت تنسحب جميعها على الشعر الجاهلي كله، فما بين أيدينا يخضع لعملية المراقبة من قبل نقاد أولين، بذلوا الجهد كله في التعامل مع رواية الشعر الشفوي

[1] - نفسه ،ص: 184.

[2] - السابق، ص: 184.

[3] – نفسه، ص 184.

[4] - نفسه، ص ص : 184-185.

الجاهلية، منهم المفضل الضبي، الأصمعي، ابن سلام الجمحي، أبو عمرو بن العلاء، ابن الأعرابي، أبو عمر الشيباني، أبو زيد، أبو عبيدة، وغيرهم من هذا الرعيل، اتفقوا في ذلك كله على ما حاز من إجماع واحتفظوا باستثناءات ما خرج عن هذا النطاق.

بقي أمر لابد من الوقوف عنده، وهو ما قصد بالانتحال، فيما يتعلق بنسبة القصائد الجاهلية، إلى غير أصحابها، ومرد ذلك عائد إلى مجموعة من الدوافع:

1-اشتراك القصيدتين في الوزن والقافية، إشكال طرح نفسه بحدة أمام الرواة عبر مسارا لقصيدة التاريخي الطويل، فابن الأثير في الكامل، ينسبها للربيع، والديوان ينسبها لقيس، ما تعلق بقصيدتي قيس بن الخظيم والربيع بن أبي الحقيق اليهودي.

2- وقد يكون من نسب القصيدة والتي مطلعها:

ما بال عينك منها الدمع مرهاق سحافلا عازب لا ولا راق

3-مرة نسبت للخنساء وأخرى لعزة بنت مكرم.

وقد يحصل لاتحاد الأسماء، فيقع خلط في صاحب القصيدة، فمثلا تماضر بنت الشريد السلمية، زوج زهير بن جديمة، فكانت إن قد رثت ابنها مالك بن زهير، والخنساء، تماضر بنت عمرو، رثت هي الأخرى أخاها صخرا فالاشتراك في الغرض والاسم معا، جعل الاختلاط قائما بينهما والقصيدة:

فأن العين خالطها قداها لحزن واقع أفنى كراها

فمن الروايات من أسندها للخنساء ومنها من أسندها لأم مالك بن زهير.

4- أو قد يكون لداع آخر، وهو ما يتجلى في صلة القرابة بين الشاعرين، فمن ذلك ما نجده بين الشاعرين، متمم بن النويرة، ومالك بن نويرة لصلة الأخوة التي تربطهما ببعض، فالروايات تضاربت في نسبة القصيدة إلى أيهما، فمنها من نسبها إلى الأول ومنها من نسبها إلى الثاني[1].

ونحن عقرنا مهر قابوس بعدما رأى القوم منه الموت والخيل تلحب

عليه دلاص ذات نسج وسيفه جزار من الحنثى أبيـض مقضب

[1]- عفيف عبد الرحمن، الشعر الجاهلي، حصاد قرن، ص ص : 135-136.

طلبنا بهـا، إنا مداربك قبلـها إذا طلب الشأو والبعيد المغرب[1]

أكتفي بما تقدم لأخلص، أن هذا المزج يعود في أصله؛ إما إلى طبيعة السهو عند الرواة أو النسخ- بعضهم - ، وذلك عائد لانعدام التحقيق في القائل، وإما للبس يغشى الفهم، وإما لمجموع الأسباب العامة، تدفع بصاحبها إلى الخلط في نسبة الشعر[2].

هذا الشأن لا ينقص للود قضية، فما وقع من خلط، في نسبة الشعر وإسناده إلى صاحبه، لم يمس الشعر الجاهلي عنوه، وإنما منه ما لم يخضع للتحري وكان عرضة، لما تقدم من أسباب ذكرت أو أسبـــاب أخرى لم تذكر، ويبقى الباقي بعيدا عن الوقوع، في هذا الشراك لا ينسحب عليه الحكم جميعه.

ثم يخلص نودلكه، إلى أنه برغم ما أحيط بالرواية الشفوية من شكوك، جعلت الريب يخامر متون هذه الرواية، إلا أن الشعر الجاهلي لم يكن وحده من الآداب العالمية التي وسمت بذلك، فالتـي سبقته كان الشأن نفسه الذي عانى منه الأدب اليوناني، وهو ما عرف بالمشكلة الهـوميرية، والآداب الألمانية القديمة التي بقت لتنقل نضارة الحياة البشرية في أبهـى صورها، وما تحمله تضاعيفها من أسطورة وحياة العالم ما ورائي، التي ترشح سبر كينونة، وولوج عوالمه العجيبة.

إذن الرواية الشفوية عند نودلكه، ليست كلها مشكوكا في صحتها، بقدر ما أميط اللثام فيها على ما كان استشهادات كتحليل على هذه الفرضية.لتبقى الرواية الشفوية عند نودلكه، رسولا بلغ بالنص الشعري الجاهلي المكانة المتميزة والتي أرادها أسوة حسنة للمجتمع الألماني وآدابه.

تفسير، في أن تسمية المعلقات إنما جاء من باب ما تنطوي عليه من نفاسة جعلتها تتربع على عرض الشرف.

وهذا أفضل أن تتمسك بالتفسير الذي قاله بعض العرب وهو أن معلقة تعني لنفاستها رفعت إلى مكان الشرف.

---

[1]- نفسه ،ص ص: 135-136.

[2] -السابق، ص ص : 136-137.

ومن تسمية المعلقات التي اتخذتها القصائد الجاهلية المعروفة، صدرت أسطورتها فروج للمقام الأول اسم المعلقات متقدما عن أي تسمية أخرى، وبقي الإشكال قائما عن مكان تعليقها ولما لم يكن في شبه الجزيرة العربية قاطبة مكان أكثر قداسة من مقام الكعبة الشريفة، لقد دأب العرب قديما تعليق كل وثيقة ذات شأن على الكعبة الشريفة، ومنه نصل إلى أن القصائد الشعرية الجاهلية انسحب عليها هي الأخرى الأمر نفسه فعطفا على ما تقدم من عادات ضربت بجذورها في عمق التاريخ ، فليس ببعيد، أن تلقى هذه النصوص الشعرية ومثيلاتها من: عهود ومواثيق تطهيرا للكعبة الشريفة، من أدران الأوثان على يد النبي محمد- صلى الله عليه وسلم- أثناء فتح مكة .

عرض آرائه :

ومن الذين تناولوا بالدراسة جانب الروية الشفوية في الأدب الجاهلي، المستشرق أهلوارد فيلهلم[1] W.Alward الإشكالية التي انطلق منها آهلوارد هي:

إلى أي مدى يحق لنا أن نشك في صحة القصائد القديمة بوجه عام[2] ؟ ، هي إشكالية سبق للمؤلف أن تناولها قبل هذه المناسبة في الفصل الأول من كتابه:

H.Ahloward Bemerk migen uber der aechcheir Der alten arabishen gedichte 1872 (neudruch)

1972 pp 1-34 (3) ،osmabuch ،verlage ،Biblio

كما تناول الدراسة نفسها نيودلكه في كتابه :

kenntniss der peosie der alten araber ،zew ،Beitrage ،Noldeke

؛لأن الإشكالية لا ينظر إليها من مقام هذا على أوليتها في الطرح كما أنه لا يتوفر جانب الجزم واتخاذ أحكام قاطعة بصددها.

والإجابة المترتبة عنها ستحدد ملامحها بناء على ما توفر من تراكم معلوماتي بشأنها، وكذا على المرجعية الدراساتية في السياق هذا، ضف خاصية الذكائية وقدرة التحكم في مهارة التركيب، كما أن الدارس لا يمكنه التنصل من فرضية الشك فيما يتوصل إليه من نتائج، كما أنه والحال كذلك لا يمكنه إلزام الغير بالاقتناع بما يذهب إليه من رأي، ومع ذلك

[1] - ألورد فيلهم (1838- 1909) W.Alward وهو بروسي ولد في جرايفسفالد تعلم العربية وشغف بآدابها صوب معالم الإستشراق لاستنساخ مخطوطاتها ليقوم باجتهاده الشخصي بعمليات التحقيق والشرح والتعليق فكان أن طارت له شهرة بالصنيع هذا، كما عرف عنه أنه واضع فهرس مكتبة برلين.

من آثاره شرح ديوان طعهان الكلابي (لندن 1858) وقصيدة تأبط شرا، والفخري في الآداب السلطانية لابن طعمان الكلابي وديوان أبي النواس على مخطوطي برلين وفيينا (جراسفيالد 1861) وله العقد لثلثين في دواوين الشعراء الستة الجاهلين بمقدمة إنجليزية وتذليل يشتمل على المخطوطات الباريسية والجوطية والليدية وذكر السبب في قول المعلقات واختلاف نسخها (لندن 1870، باريس 1902) وقد بلغ الذروة في وضعه فهرس المخطوطات العربية في مكتبة برلين الوطنية في عشرة مجلدات جسيمة، قام بوصف ما يزيد عن عشر آلاف مخطوط عربي تمثل جواهر اللغة العربية وصفا يتسم بالعلمية والدقة (برلين 1881-1999).

[2] -عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ص: 11.

يمكن الركون إلى تخريجات تستند إلى درجة كبيرة من الإقناع انطلاقا ، من عموم تعليل ووقائع تنعت بالخاص مما له صلة بالبيانات خاصة في ظل انعدام المرجعية الوثائقية.

والمتصفح لمصنفات "الحماسة" لصاحبه أبي تمام، أو ما تعلق بمبتدءات الموروث الأدبي، نحو كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني أو "المغني" للسيوطي سيتوصل في جميعها ،إلا أن قسطا أوفر من مجموع هذا الشعر القديم، جاء يسجل اختلافا كبيرا في إسناد القصائد إلى أصحابها، مما جعل عنصر الشك يتسرب بدرجة كبيرة حول صحة هذا الشعر، وهو ما يستقي من أن الخطية لتقييد هذه القصائد في الزمن هذا كان منعدما: وأن البعد بين زمان الشعراء وبين الزمان الذي جمعت فيه قصائدهم وقيدت كتابة يستغرق 150 عاما أو أكثر"[1].

"إذا ما تذكرنا أن استعمال كتابه لتقييد القصائد الكبيرة في تلك الأزمنة من المؤكد أنه لم يكن موجودا"[2]، وأن الهوة الزمنية سحيقة في نظم القصائد وكتاباتها، حيث قدرت بمائة وخمسين سنة أو تزيد وأن مصدرها التداولي كان الرواية الشفوية السماعية مما يجعلها عرضة للنحل والانتحال عن قصد أو من دونه، ومما يحاصر حيز الشك لدى صاحبه، هو أنه حتى في عهد ازدهار التدوين بقي الشك يبسط سلطانه حول جانب أوفر من الشعر القديم.

كما قام بنشر خلف الأحمر (جراسفيلد 1895) ومجموع أشعار العرب في ثلاثة أجزاء وذيول في تفسير وفهارس الأول الأصمعيات وبعض القصائد الشفوية من مخطوط كوبر يللي في 110 صفحات، وذيل في 89 صفحة (برلين 1902) والثاني ديوان الأراجيز للعجاج والرقيات ، وأبيات مفردات منسوبة إليها في 100 صفحة وذيلين في8 6 صفحة (ليبزيج 1903) والثالث ديوان رؤبة بن العجاج وأبيات منسوبة إليه، وديوان أبي المرقال في 192 صفحة، وذيلين الأول من 122 صفحة والآخر من 114 صفحة (برلين 1903) وترجمته بالألمانية برلين ،1904 ومن مصنفاته شعر العرب وشاعر بينهم (جوتنجيز 1856) وملاحظات على صحة الشعر الجاهلي (جرايفسفالد 1872)[3].

[1] - السابق، ص:42.

[2] - نفسه، ص: 42.

[3] -يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، ص ص 99 - 100.

"وإن رواياتها انتقلت من فم إلى فم مما عرضها لأغلاط غير معهودة أو لتزييفات مقصودة".[1]

"وستتضاءل دهشتنا من هذه الحقيقة ،حين نجد أنه حتى في الزمن الذي نمت فيه الكتابة نموا كاملا وكثر النسخ، بقي الشك يحيط بنسبة كثير من القصائد"[2] والشك هذا يمتد من الشعراء إلى شعرهم فحجم القصيدة قد يضيق ويتسع وما تعلق بمستهل القصائد قد ينعدم، كما قد تتعدد للقصيدة نفسها، والشأن ذاته ينسحب على ما شاكله. فالقصيدة الواحدة قد تكون لها خاتمة كما قد لا تجد لها هذه الخاتمة التي ثبتت من قبل وترتيب الأبيات معني هو الآخر بهذا التحوير، من حيث التغيير وعدم الاتساق، بل حتى البيت الشعري وما يتضمنه، من : صدر أو عجز هو كذلك شهد تزييفا، من حيث ما نسب شعر لآخر.

وبالإجابة عن السؤال الآتي: "على أي أساس جمعت القصائد القديمة وكيف تم جمعها؟"[3].

يمكن لنا تعليل ما تقدم من الثابت أن الدراسات اللغوية جميعها كان مصدرها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ فالقرآن الكريم، مثل االجانب العقدي والمصدر الثاني مثل الجانب العملي والمؤمن ملزم بالأخذ بالمصدرين، كما أنه من الراسخ أن النبي محمدا -صلى الله عليه وسلم-، يجاوز الدعوة بالدين الجديد إلى الإتيان بقوالب أسلوبية جديدة؛ بمعنى أن الجدة ظهرت، فيما هو مضمون وما هو شكل ، والشواهد عليها كثيرة إلا أن العجز الحاصل في الفهم، لم يبق في المساحة هذه، بل جوهر الإشكال ، هو ورود القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بلسان قريش وهو اللسان الذي استعصى فهمه- بعضه أو نصفه-، خارج مجال قريش ،والإشكال في الفهم والتذهن كان في حاجة إلى تبيان لمن هم في حاجة إليه.

وعن "جوستان فوجل"، في مؤلفه: :"المدارس النحوية عند العرب"، ازدهرت الدراسات النحوية اللغوية في حاضرتي البصرة والكوفة اللتين تأسستا حديثا فكانتا مضمارا

[1] -عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين، ص : 42.

[2] - نفسه، ص: 42.

[3] - نفسه، ص: 42.

للتنافس العلمي والعربي مدة تطول من الزمن ، وما رشحها لذلك موقعها الاستراتيجي في الدولة الإسلامية والاحتكاك بالأجانب.

تطور الدراسات اللغوية، ليس هو المقصود في هذه الدراسة بقدر الاهتمام وتسليط الأضواء علي القواعد الأولى؛ كيفيتها، مناهجها والمنطلقات الأساس التي شكلت قطب الرحى في هيكلها .... ، في الصنيع هذا، هو الشعر الجاهلي فكان ؛ أي الشعر الجاهلي محل استشهاد وتدليل في الدراسات اللغوية والنحوية التي أشرنا إليها- سابقا-، في غياب أدب نثري يعول عليه ينافس الموروث الشعري الجاهلي، الذي بما توافر عليه من صنعة، وفق شعر بين انسجم في جانبه المضاميني. والحال أن التدليل اللغوي اعتمد أقدم نص شعري ، لا يفسر هذا أفول نجم الشعر في القرن الإسلامي الأول؛ بل هو على النقيض من ذلك ؛ لأن الخلق الشعري ظل متواصلا بالنسج على منوال القصيدة القديمة فأنتجوا لآلي شعرية تضاهي بل تفوق أحيانا شكلا وحجما ما حاكوه من شعر."وأنتجوا أعمالا أكبر حجما وذات أهمية رفيعة"[1]. وإنما الأمر كله يعزى إلى أن النص الشعري القديم وما رافقته من مثل، جاء يحمل ثورة لغوية سليمة من كل شائبة خالصة من كل عنصر دخيل، لم يلحق بها اختلال على المستوى المضاميني أو الشكلي بفعل العهد الحديث ، مع أن هذا الحكم لم يسلم هو من النقد ،حيث واجدون نحن ألفاظا دخيلة حتى في القصائد التي تنعت على أنها أكثر إيغالا في القدم، وإن اتخذت لها صياغة عربية، ومع ذلك تبقى محدوديتها قائمة. إن هذا التفسير، مرده إلى أن اللغة العربية وتحت تأثير التيارات الوافدة الأجنبية؛ فالعنصر غير العربي كان يقيم بين ظهراني العرب، كالعنصر اليهودي مثلا الذي لم يكن بالقلة التي يجب التغاضي عنها أو تجاهلها كعنصر مؤثر، يضاف إلى ما تقدم سيادة العنصر الأجنبي.... مددا من الزمن على البلاد العربية إلا أن هذا التأثير وإن حصل فجغرافيته وتاريخيته محدودان فتأثيره جاء قائما في الأوطان الحدودية المتاخمة للعنصر الأجنبي، يضاف إليها بعض الأمصار القصية على عكس القبائل العربية :" بل إن الأجانب الذين كانوا مع ذلك سيطروا زمنا طويلا على تلك البلاد"[2]." اقتصر على مكان صغير نسبيا على فترة من الزمن محدودة بوجه عام"[1] التي ما

[1] - السابق، ص :44.

[2] - السابق، ص: 44 .

أثرت في العمق والتي ظلت بمنأى عن هذه التفاعلات والتلاحقات وإن تم هذا فهو لا يعد القلة، حتى أنهم عدوا عربا وأقحاحا " من حيث اختراق العنصر الأجنبي" فكتب لهم الاستقلالية العرقية واللغوية :" أما القبائل المبعثرة في داخل البلاد فلم تتأثر أو لم تتأثر إلا قليلا، لقد حق لهم أن يعدوا أنفسهم خلصا غير منحرفين في استقلالهم وطهارة أعرافهم ومحوض لغتهم"[2].

فكان لما سبق الأهمية البالغة وعنصر الفصل كمرجعية معتمدة عند الاحتكام إلى الشعرية اللغوية المدونة، مرجعيتها النص القرآني المقدس والحديث النبوي الشريف الأخذ بمبدأ القياس، أمكن إصدار حكم التشريع اللغوي، وهو ما فتئ سائدا في اللغة المكتوبة التي أقصت من دائرتها كل ثنائية لغوية علقت باللهجات العربية. فهذا التبرير اللغوي نجم عن وعي قمع اتساع رقعة الكتابة في ميدان الأدب ارتسمت معالم تدوين اللغة المكتوبة على درجة كبيرة من الانضباط أملت التزاما صارما بقواعدها :"، وفيما بعد تحدد مسار لغة الكتابة على نحو صارم بحيث كان على المرء الالتزام به بكل دقة"[3].

قد يجول بخلد المرء أن الفوارق اللغوية في اللهجات العربية محدودة وضيقه جدا، والدارسون العرب لا يشيرون إليها إلا قليلا، مع ذكر بعض الاستشهادات الكلامية والأسلوبية المنعزلة التي لا تتعدى في مجموعها بعض الأوراق؛ فجاءت اللغة الكتابة عند أصحابها على نمطية موحدة وإن اختلفت مشاربهم القبلية وتعددت، حتى تلوح أنها لغة جامعة موحدة، فقراءة القصيدة من مختارات كتاب "الحماسة" أو " المفضليات" أو ما ينشر الآن مجتمعا فالشكل اللغوي يظهر هو في ذاته. فالاختلاف اللغوي غير وارد ولو جاء منفردا ، من حيث توظيف ما هو لفظ أو تقعيد نحوي، في مساحات منتوج لمن انتموا بصلات إلى قبائل متباعدة متباينة :" أيا كانت القبائل التي ينتسبون إليها تبدو ولو كانت في جلها نفس اللغة.... "1.

---

[1] - نفسه، ص: 44.

[2] - نفسه، ص: 45.

[3] - نفسه، ص: 45.

ولو قرأنا قصيدة من " الحماسة " أو "المفضليات" فإن الطابع اللغوي يبدو واحدا هو هو نفسه، ولا تعثر على فارق واحد .... في إنتاج ما ينسبون إلى قبائل بعيدة بعضها عن بعض[1].

إن ما تقدم ، لا يقيم استدلالا عن انتقاء الفروق بعضها- وإن قلت-، إن القوالب النحوية بدت في ظاهرها واحدة حتى ولو ظهرت القصة ، على عكس ذلك وجب علينا إنشاء الافتراض بأن النحاة أجروا تعديلات للشعر غير القريشي لغرض إخضاعه لنظام الوزن، وهو أمر لا يمكن حدوثه، إلا أن اللغة المنطوقة حملت بعض الفوارق وعلى وجه التحديد وما تعلق، بالصوائت الإشكال الذي لا يمكن أن تتحكم فيه الكتابة على وجه التدقيق ، إلا أن الفروق الجوهرية، تمثلت فيما حصل من اختلاف في جانب الألفاظ، وفي تداول الكلمات وفي سياقات مختلفة...

وهو المضمار الذي أثرى عمل اللغويين، فقاموا بتجميع الألفاظ ممكنة الجمع وجمعوها في باب لغوي واحد يضم جميع ما يصنف في هذا الباب من بيئاتها الأصلية.

فهذا الصنيع أسهم في تعويض ما ضاع من لهجات عربية. فإسهامها عزز إثراء اللغة بوجه عام ، وتفسير ما انتابنا من حيرة وضياع إزاء الكم الهائل من الألفاظ التي جاءت مدلولاتها متعددة متناقضة حتى كأنها من نسيج واحد ، فمرد ذلك في جزء أوفر منه يعزي إلى ما تقدم من تفسير.

ومع ذلك فإن كل ما اكتسبته اللغة المكتوبة جاءت آفاقها محدودة ، ليس على مستوى اللفظ وحده، وإنما من حيث ما هو شكل لم يتغير، فقد تأثرت بالقوالب اللغوية للهجة قريش وما تعدى هذه الدائرة يصنف في عداد التعابير العامية، والتي لا ترقى إلى لغة الكتابة ويقيم دليله الكاتب بتوظيف مقــولة، الرواية والتي فحواها، احتكام العرب في شعرهم إلى الشعر القريشي " وهنا أشير إلى الخبر المنقول عن حماد الراوية و.... أن العرب كانوا يحتكمون في قصائدهم إلى قريشيين"[2]، واحتكاما إلى ما سبق تلقى القصيدة قبولا أو رفضا، إن هذا النقد مزعوم لا يمكن أن يطال شاعرية وفنية القصيدة في ذلك العهد القديم، إن لم يمثلها

[1] - السابق، ص: 45.

[2] - السابق، ص: 45.

شاعر من شعراء قريش ذوي صيت ذائع، إن هذا الإدعاء بالتربع على عرش الشعر العربي، لم يكن يلقى استجابة وتسليما من قبل غير القرشيين حتى إن .... الشعرية اضمحلت وتراجعت في شأن الشعر وأول من رفع لواء الشعر القريشي عاليا.

ها هو عمر بن أبي ربيعة يضاف إليه العربي :"وعمرو بن أبي ربيعة، هو أول من جعل لهم بعض المكانة في هذا الميدان وكذلك العربي"[1]. فالمراد بسيادة قريش، يفسر في أن لهجة قريش كانت هي المرجع اللغوي لما عداها من اللغات الأخرى، وما شذ عنها فهو مصنف في باب اللغة العامة إما لانحياز للهجة قريش التي كانت هي المرجع اللغوي لما عداها من اللغات الأخرى وما شذ عنها فهو مصنف في باب اللغة العامة إما لانحياز لهجة قريش أو عجزهم عن سبر أغوارها فسقطت من اهتمامهم :" أما بالنسبة للشواذ اللغوية ... فإن علماء اللغة العرب،... وكانوا متحيزين بالرغم من تعمقهم الشديد لم يفهموها حق الفهم .... واكتفوا بأن سموها" لغة العامة"[2].

ينضاف إلى ما تقدم عامل ثان، وهو ما جاء كضرورة لغوية اقتضت توظيف الشعر القديم كشاهد نحوي أو لغوي، إلا أن العديد من اللغويين المتضلعين في الشئون اللغوية عند ترددهم الإقامة بالأرض العربية الأم محاطين بأعاجم أو بمن لا ينتمون إلى العرب الأقحاح يتحرون الأمانة العلمية ؛لأن الصفوة العربية لا تتوافر إلا نادرا باستثناء الصحابة والتابعين في عهد المدرستين اللتين ترعرت فيهما الدراسات اللغوية والنحوية.علاوة على ذلك ، هو أن الدارسين اللغويين نشئوا بالولاء والمربى خارج ديار الجزيرة العربية مما جعلهم يعتمدون في تحصيل اللغة العربية، تعلما واكتسابا والحال كذلك أمام خيارين لاثالث لهما الأول : إقامة العرب... بينهم و.... من الزمن قد يطول أو يقصرو الثاني، انتقالهم هم أنفسهم إلى المواطن التي تصفو فيها مشارب اللغة العربية، وذلك بالإقامة بين القبائل العربية التي تعود انتماء إلى الأصل العربي الصحيح، والظاهر أن الاختيارين قد حدثا في الزمانين ؛ الأول والثاني فكانت الضرورة اللغوية تملي في بداية الأمر، الاقتصاد إلى الميل وإلى حفظ الشواهد الشعرية لأهميتها- وإن قلت- ، في إطار ما يعرضه سياق الكلام قصد توضيح

[1] - نفسه، ص : 47.

[2] - نفسه، ص: 47.

المعنى، فمن المنهجية هذه مجموعات الأشعار المختارة المفردة إلى جانب مجموعات أخرى تعني بكلمات مفردة لتصدير تدليلات حسب ما وقع من توافق وأسلوب.

وعلى المنهجية هذه جاءت مؤلفات، نحو:" كتاب المعاني" ،أو" كتاب التواتر"[1] .وجاء على هذا المنوال كثير.

إن الاهتمام بالشعر القديم ؛ حجما وتصنيفا لم يأت ذلك برغبة في جانبه الجمالي ولا تعلقا به بقدر ما كان سلطان الجانب التقويمي لشهرة الشاعر وحسن انتقاء العبارات، وتوظيف جيد الأفكار والشعر الذي كان يخضع لمثل هذه المعايير النقدية، يصنف صاحبه مصاف كبار الشعراء . أما النقد الذي ينظر إلى القصيدة ،على أنها كل متكامل في ذاتها أخذا بالاعتبارات النقدية العامة، فلم يعثر له على أثر يبقى ذلك بعيدا المنال على الذوق العربي في تلك الحقب الزمنية لنشوء أدب لا يتجاوزه إلى سواه، بفعل اعتنائه وفي الأصعدة جميعها بكل ما هو جزئي ومفصل.

فالاهتمام بالشاعر وبظروف تأليف القصيدة لم يكن يعرف تاريخيا إلا مع أواخر القرن الهجري على وجه التسليم، عند تطور الدراسات اللغوية، وكذا إقامة العلماء في البوادي مدة طويلة، ينتقلون بين القبائل العربية لجمع ما يقدم بين أيديهم في الوقت هذا تم التأسيس عليه تحقيق في منتهاها وفي المواطن الأصلية لأعلام الشعر الجاهلي تم الحفظ عليه بشكل وثيق وبكميات كبرى فترسخت ظروف نشأتهم حفرت في الذاكرة بما فيها مناسبات نظم القصائد:" وفي أوطان الشعراء المشهورين حفظت فيما يظن أشعارهم على نحو أوثق وبمقدار أكبر وكانت أحوال حياتهم هناك أرسخ في الذاكرة والمناسبات التي نظمت فيها القصائد لم تنس".[2]

فتمخض عن ذلك قصائد طوال وما أحاط بها من : خبر وسيرة ، إلا أنها جميعها ذات أوصال ممزقة مبعثرة، بفعل تأثير الرواية الشفوية التي ذهبت بها كل مذهب :" وكانت ثمرة هذه المجهودات، قصائد أطول ومعلومات عن سيرهم، لكنها جميعا ممزقة مفككة ، كما صنعت بها الرواية الشفوية طوال أزمان، فلونتها وشذبتها وصغرتها أو كبرتها"[3]. إن الأمور

[1] - السابق، ص :48.

[2] - السابق، ص ص : 48-49.

[3] - نفسه، ص : 49 .

والقضايا التي كان ينظر إليها من قبل على أنها هامشية أضحت في منظورنا الحديث من الأولويات، وأن الاعتناء بتاريخ الأدب وما شهدته هذه الظاهرة الأدبية من دينامية لا تعرف التراجع أبدا ،أسست لفعل لغوي اتخذ من الشعر الجاهلي مصدرا له فضلا على ما فيه من مسحة فنية شعرية عالية الدرجة، وجه الاعتناء الى هذا الموروث الشعري، صونا له من ضياع واندثار هذه البذرة الشعرية، وهو الأمر الذي وجد ضالته لدى كثير من دارسي هذا الاختصاص.

فتعاقبت أجيال، تحمل مشعل هذا التراث منذ توقفت قريحة الشعراء الجاهلين عن العطاء . يتناقل هذا الموروث عن طريق الرواية الشفوية، برغم ما شابها من اضطراب وبخاصة الشعر القصير الذي أتخذ الهجاء غرضا له. فوظفت للاحتذاء بالإبل، وكذا في مناسبات أخرى للاستمتاع والتلهي وللتخفيف عن المسيرة إلا أن حماسة الشعر ورواته، رفع لواءها عاليا رعيل من الرواة، في المناسبات التي وردت فيها، كراوية القصص التاريخية وتناقل روايتها من متلق لآخر.

وشرائط الراوي التي يجب توفرها في صاحبها؛ اتصافه بالذاكرة الخارقة وامتلاك حاسة الأسلوب الشعري حتى أن البعض منهم كان شاعرا مبتكرا، ليس كل من كان في مقدوره ممارسة مهنة الرواية الشفوية كان على استعداد لممارستها، وبرغم ذلك فإن العاملين في حقلها لم يكونوا قلة وما حوته ذاكرتهم الشعرية لم يكن هو الآخر بالهين

والفضل يعزي إلى الرواية الشفوية، في الحفاظ على الشعر القديم :" ولولا روايتهم الشفوية لضاع شعر العصر القديم تماما، حيث لم تكن الكتابة واسعة الاستعمال باستثناء البقايا القليلة التي بقيت على لسان شعب"[1] لعدم رواج فعل الكتابة، يستثني من ذلك النصيب القليل الذي وعته الذاكرة الشعبية أوجاء هذا التقدير سيان عند القلة من الشعراء، وهو ما وجد صعوبة عند من أرادوا التأثير بشاعريتهم، وهو ما مثله كأنموذج قادتهم وروادهم فحفاظا على شعرهم من الفناء يتناقله جيل إلى الذي يليه، في ذلك كانت حاجتهم ماسة إلى صنيع الرواية كمهمة للأداء، ومن وجهة شخصية، رأى الكاتب ملازمة الرواة الشعراء في حلهم وترحالهم، وإن ما جاء من ذ كر الصاحب أو الصاحبين في مطالع القصائد القديمة،

[1] - السابق، ص: 50.

دون الحديث عن محاكاة المتأخرين للقدماء بحكم العادة. إن هذه الصلة من الضرورة بمكان، بتعاقب الوقت اتجهت هذه العادة إلى آخر فلم يقتصر عمل الرواة على شاعر بنفسه بل تركوا عنان الذاكرة واسعا ليطال كل مقدور فجاءت أعمالهم ضربا من الخوارق تغذى حديث الأسطورة.

حاجة علماء اللغة كانت ماسة، كجمع الشعر فجاء الاحتياج ملحا للعودة إلى أعمال الرواة وان كان عنصر الزمن يباعد بينهم بين قرض هذا الشعر والاتصال به علميا مما فسح المجال واسعا أمامهم .... نتائج المعارك الجهادية أثناء صدر الإسلام قد كان لها الأثر البالغ بموت كثير ممن كانوا على دراية وصلة بالشعر الجاهلي، ضف إلى ما طرح نفسه، كالاهتمام بحكم الحياة الجديدة ومنطلقاتها، أمالت إليها كثيرا من المهتمين بها ولما افتقر، ولما لم يكن الوقت ملائما لجمع مادة الشعر والإمعان فيه، كان الاتجاه ماضويا طرح أشكال ضياع كثير من موروث الشعر الجاهلي، بحكم العوامل المتقدمة، ولم ينج منه إلا القليل القليل إلى منتصف القرن الثاني الهجري : "... وضاع شطر كبير من شعر الأجداد ولم ينقذ منه في العصر إلا بقايا قليلة نسبيا، لم يجمع شيء ولم يقيد كتابة"[1] ومات الكثير أو فسد ولم يحفظ في الذاكرة إلى القليل، وما وصل إلينا حتى منتصف القرن الثاني للهجرة هو أقل القليل.[2]

"...وضاعت القصائد بضياع الرواة، ولم يبق بين أيدي الناس إلا القليل مما له قيمة"[3] من الآثار الإيجابية للدرجات اللغوية، هو أنها تمكنت من إنقاذ من بين الاستشهادات الشعرية، مما تبقى من مأثور الشعر الجاهلي ، مع أن ذلك لم يكن بالأمر الميسور أمام العوائق التي طرحت أمامها، تحت تأثير النظرة الدينية الإسلامية والحديث النبوي الشريف اللذين جاءت أحكامهما مسبقة فيما كان له علاقة بالشعر الجاهلي، فسر ذلك بالكراهية الصريحة للنبي محمد- صلى الله عليه وسلم-، مما كان له التأثير البالغ على المؤمنين الذين تقيدوا بهذه النظرة، وحتى على الدراسات العلمية التي جاء طابعها دينيا، وهو الأمرالذي

[1] - السابق، ص: 51.

[2] - نفسه، ص: 51.

[3] - نفسه، ص: 51.

كرس العلماء أنفسهم لخدمته، مع نشوء بعض الاستثناءات، كجهود العالم الأصمعي، الذي... عن هذه الرؤية مما وجب... مثل هذه الاجتهادات في الدراسات الشعرية.

وكما سلف ذكر النهضة المسجلة فيما قارب منتصف القرن الثاني للهجرة، التي رعت ما تبقى من الشعر الجاهلي بالجمع والكتابة، وأصبح التقدير والاحترام موجهين إلى مالك المقطوعات الشعرية الجاهلية، وهو ما حمس القوم اهتماما بالشعر القديم.

وبإلقاء نظرة ثاقبة إزاء حملة كتابة وجمع الشعر الجاهلي، بعيدا عن كل انحياز، نقف على ما وقع من خطأ وما ذهب إليه من وهم كمعرفة علماء اللغة الذين آلوا على أنفسهم الجمع وأجهدوا أنفسهم للإحاطة علما بفنون الشعر الجاهلي، فالأمر نفسه ينسحب كما وتقديرا على الرواة سواء بسواء، فمنه وجب على الراوي التحلي بالسذاجة وهو بصدد ممارسة فعل الرواية أمام جمهور له دراية بثقافة الشعر؛ وضعا وصحة، بيد أن الظاهر من أسلوبها وفحواها، أنها إلى الوضع تصنف إلا أن الرواة الذين امتلكوا باعا في المهارة الشعرية تمكنوا من تقمص روح القصيدة الجاهلية ونسيجها اللغوي باستطاعتهم في هذه الحال، خداع وتضليل من كانوا على دراية في هذا الميدان، وعلى وجه التحديد إذا كانت أدوات القراءة الشعرية غير متقدمة وعميقة، وهو ما طرح إشكالا، يبقى مستمرا في ظل غياب ثقافة النقد القويمة داخليا وخارجيا لفرز الصحيح من الزائف.

إن ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن بما يمكن أن يذهب إليه الرواة من تضليل أهل الشعر القديم، إن هذه الفرضية ليست ممكنة الحدوث فقط . بل هو أمر مؤكد الوقــوع، يضاف عامل آخر إلى ما تقدم، وهو عامل الغرور فقد وجد سبيله إلى من سولت لهم نفوسهم معرفة الشيء كله، فهم لا يترددون عن الإجابة عن أي سؤال وعند الوقوف موقف العجز، تراهم يصطنعون من تلقاء أنفسهم عند وجودهم الجمهور الذي يصدقهم من هنا حق لنا اعتقاد منهم، أنه من إملاء ذاكرتهم جمعوا تحت عنوان شاعر واحد.

فمن القصائد من نسب- جزؤها- ، إلى من نجهل من الشعراء ! وعند إنشاء القصيدة القديمة التي عرفت بصحتها، يدلون فيها تبعا لأهوائهم بالزيادة والنقصان تارة والتبديل في مناسبات أخرى ! ،هب أنهم توخوا الصدق فيما ذهبوا إليه من تصرف، ما توفر لهم من إمكانات هل يفي بالغرض هذا؟، أم أن الذاكرة المتاحة لهم تتوافر على القدر الذي يرشحها

لسعة العبارات جميعها: حفظا والأبيات كلها ترتيبا، دونما إسقاط أسماء أعلام الشعراء أو الوقوع في هنات الخلط فيما بينهم؟ !.

وهو الأمر الذي حدث لهم خارج دائرة مستوى الإنشاء، بإقحام ما له صلة بالجانبين المضاميني والشكلي وفي محطات أخرى للخلط بين الكثير من حيث ما هو انتساب إلى أصله. !إن الاقتناع بهذا يظل قائما، وما يشفع لهؤلاء الرواة هو أن وعاء الذاكرة الإنسانية- وإن اتصفت بالقوة -لا تبقى بمنأى من أن ينتابها ضعف في فترة من فتراتها.

ولندع عصر الرواة المتأخرين جانبا، إن وضع الرواية للفريق الذي سبق ظهور النبي محمد- صلى الله عليه وسلم-، لم يكن بأحسن حالا ممن جمعوا الرواية والشعر معا، مع ما لهم من شهرة طائلة، هل بإمكانهم الحفاظ على الثروة الأجنبية في ظل توافر ثروتهم الشعرية المتميزة والمستمرة ? فهم لم يستعيروا لأنفسهم ما هو لغيرهم كما في الوقت نفسه لم ينسبوا لأنفسهم ما هو لغيرهم ، لا يجب أن يذهب بنا الظن مذهب عدم سحب الحكم الذي نسبناه إلى الرواة على ما اتهمنا به الشعراء على وجه الاستمرار، لا يمكن أن يشتركوا فيما بينهم من شعر غيرهم، بأن ينسبه الواحد منهم لنفسه ويحوزه إلى شعره يعد : أبو داود[1] ، من الشعراء ذائعي الصيت، رغم أن غيره ممن طارت لهم شهرة أكثر منه قد غطوا عليه هو إلى جانب طفيل والنابغة الجعدي الذي كان امرؤ القيس راوية شعره يجود خصوصا في المواضع التي يكون فيها راكبا فرسه[2] ، يقصد من وراء ذلك أن الملكة الشعرية الوصفية للخيل متوفرة بامتياز، من الوجهة هذه حق لنا نسب كثير من جيد شعر الوصف وبخاصة إذا ما حوى خبايا لا تقع من قبل القائمين يشكون الخيل ،!إن الصنيع هذا يمكن حدوثه، ومن المبررات التي يمكن أن تجد لها مسوغاتها. إن وعاء الذاكرة وإن اتصف بالسعة والحفظ الحصين، ما جاء مركبا من عموم الحقائق والأوصاف مما يبقى بعيدا عن الذات الشخصية نتاج تصورها إزاء الحياة وما تتيحه من مساحة الملاحظة ؛لأن النية السيئة - وفي جميع الأحوال- ليست تنحو هذا المنحى وتتجه هذا الاتجاه.

[1] -السابق، ص :54.

[2] - نفسه، ص: 54.

إن هذا الدأب في رواية الشعر وتعلمه يطرح صراعا بين المتناقضات؛ بين الصدق والكذب فيما هو صحيح وما هو موضوع بغية الانتصار لجهة على حساب الأخرى، وما شجع الوضعية هذه، هو ما قامت به الرواية من دور التي لم تحرص الحرص كله لأجل توخي جانب الدقة والإحاطة بالجزئيات تفصيلا عبر مساحات من الزمن تعاقبت فيها أجيال تلو أجيال، سيطرح الأمر من قبيل العادي، فيما يلحق القصيدة :إن داخليا أو خارجيا، إن ثقتنا بالرواية الشفوية وما قامت به من دور في صون الذاكرة الشعرية، ليست بالكبيرة ، فهي في جوهر أمرها، لا تتعدى الحفاظ على المقطوعات الشعرية التي لها صلة بالأحداث التاريخية والتي جاءت تقوم- في أغلبها- على الارتجال، وما عدا ذلك تبقى عاديات النقل الشفوي تفعل فعلتها خلطا وتزييفا وترتيبا.

وبرغم ما سبق، فإن الكاتب يولي وجهه عنه، ويعيد الحديث على أن الرواة الحقيقيين بقوا المصدر الرئيس الذي يستقي منه كل من اهتم بعملية جمع الشعر، ويبقى حماد وخلف الأحمر من أعلامهما؛ لما لهما من أهمية وجب الحديث عنهما بشيء من الاستفاضة، وتكمن أهميتهما كون جهد كل منهما واكب ظهور مجموعات القصائد الشعرية القديمة ، كما يسلط كثيرا من الضوء على الأجواء التي تتخذها موضوع حديثنا.

"كان حماد بن سلمة بن دينارالمتوفي سنة 167 هـ معاصرا لعمرو بن العلاء الذي استفاضت شهرته بعلم اللغة ومعرفة الشعراء"[1].

عاصر حماد الرواية ، عالم اللغة عمرو بن العلاء وإن كان لكل واحد مؤهلاته وخصوصياته، وما يميز حماد الشهرة التي طارت له لتفوقه علي كل معاصريه بغية حفظ الشعر، وماله صلة بالأخبار، مما أثار كثير الاستغراب الأمر الذي حصل حوله لجماع العارفين بحيازته لقب " الرواية". يرى الأصمعي، إليه الفضل يعزى فيما وصلنا من شعر امرئ القيس[2]، ما عدا النزر القليل، كما إليه الفضل يرجع في جمع المعلقات السبع وإجمالا، هو من جمع القصائد القديمة وما تعلق بها من خبر [3] .

[1] - السابق، ص : 55

[2] - نفسه، ص 55.

[3] - نفسه، ص ص:55-56.

إن مقولة ابن سلام الجمحي التي سبقت تجد الاقتناع لدى اهلوارد ما لابن سلام من باع وعمق في الاطلاع علي تاريخ الأدب العربي، فضلا عن كونـه نزيها، واضح الرأي.

كما يبقي حماد من وجهة نظر المستشرق اهلوارد ، من يرجع إليه السبق في جمع الشعر العربي، حتى أن ما قام به من نشاط في المجال هذا يأتي علي من سبقه حتى لا يحق ذكر أحد أمامه! ؛ لان عمله جاء منفردا عن غيره، لأنه توخي الجمع لأجل الجمع ليس إلا !،علي خلاف من جاء جمعهم لغرض الاستشهاد اللغوي والنحوي، لتنقلب الموازين فيصير الثانوي رئيسا والعكس صحيح ويعد من المبالغة التصديق بما قيل عن حفظه ثلاثة أحرف قصيدة جاهلية، زيادة علي ما حفظ من شذرات جاهلية وإسلامية كما أنه كان بإمكانه إنشاء سبع مائة قصيدة استهلالاتها: "بانت سعاد". مع أن التحري اثبت وجود ستين قصيدة فقط :"بانت سعاد ".[1] ويبقي هذا من الأدلة التي عززت ما ذهب إليه انه خيل الصدارة في جهة الشعر العربي ما لم يكن احد معاصريه من القيام به علي وجه الإطلاق.

إلا انه في الوقت نفسه لم يكن موثوقا به، فهو لا يتردد ولا يمانع في الإجابة عن الأسئلة كلها التي تطرح عليه ومن حيث ما ينسب إليه البيت الشعري أو القصيدة كلها، كما كان غير أمين فيما حاز من علم، وإجمالا كان يقصد التزييف مما يستدعي التعامل معه بحذر مستمر يبقي هذا من اضعف الإيمان رأي علماء اللغة البصريين، وما وجهة المفضل الضبي من اتهام حيال حماد لتضلعه في لغة العرب وطرائقهم في ثنائية القصيدة الشعرية، دفع به هذا إلي خلط شعره بشعرهم ليخرجه ذلك في طبعة شعر غيره ، مما يعجز النقاد المخصصون عن فرز ما هو أصيل مما هو دخيل ، الأمر الذي لا يتوفر بالمرة وجود مثل هذا المصنف من ذي الاختصاص !: "... بأنه لعلمه الدقيق بلغة عرب القدماء وبطريقتهم في نظم الشعر فانه مزج أشعاره هو بقصائدهم وقدم عمله على انه عملهم لا يستطيع أن يميز ما هو صحيح منها مما هو مزيف إلا أن النقاد الحذاق، وأين هم ؟!"[2].

إن مثل هذه الأحكام التي صدرت بحق حماد كثيرة ويكفي في كل ذلك الاكتفاء بواحد منها ويعني بها القصيدة الرابعة من شعر زهير. فخلف الأحمر لم تحصل معرفته بها إلا

[1] - السابق، ص : 56.

[2] - انفسه، ص: 56-57.

البدء بالبيت الرابع في النص المقدم للاستشهاد والتمثيل، فقام يجتهد اجتهادا مضنيا ليتذهن تعليل مطلع القصيدة بـ َدعْ ذا وغد القول في َهرم

ليجيب المفضل الضبي أمر المؤمنين وبكل صدق ، انه لم يتناه إلي مسمعه هذا من قبل، إلا انه ما وصل إليه من إملاء تخمنه هو التفكير في قول يقوله، أو القسم في قول الشعر، ليعدل عن ذلك إلى مدح هرم، فجاء قوله :" دع ذا " أو قد يكون منهمكا في تفكير بشيء، لينصرف عنه بقوله : " دع ذا" – بمعني اترك ما شغل تفكيرك واهتم بالقول فتوجه الخليفة الجعدي سؤال بعد إلى حماد بمثل ما حال به المفضل فأجاب : ما قال زهير هذا... هو لمن الديار...

هذه الأبيات: "اعترف هذا الأخير بأنه هم من وضعها وأضافها إلى زهير[1] وما يقاس على هذه الرواية كثير في شأن حماد . إن هذا الرجل أخرج بما أقدم عليه من عمل الشعر الجاهلي من إطاره التاريخي، كما أفقده نكهته القديمة. إن ما لحق الشعر القديم من زيف بفعل الميولات والأغراض الشخصية، سرب إليه الشك من كل جهة " طال فيه لحجم إن سلبا أو إيجابا، كما مس بنائيته، وأصبح متن الشعر خاضعا للنزوات الشخصية، فأصبحت المناسبات مفتعلة تأثرا بقدوتهم الأولى، حماد .

إن ظاهرة الانتحال لم تتوقف عند حدود حماد في قضية الشعر الجاهلي .

فإننا سنقف على شخصية في هذا الصدد هذا أكثر منه حده والمقصود في هذا كله معاصره الأصغر منه سنا " !خلف الأحمر المتوفى حوالي سنة 180هـ "[2] عرف بالبراعة اللغوية، حصل له اطلاع كبير على الشعر القديم، وانفرد به عن غيره بتوافره على الملكة الشعرية، وهي خاصية تميزه عن حماد على سبيل التخصيص، وهو ما خول له محاكاة الشعر القديم والتصرف فيه،ليخرجه، وكأنه هو الشعر الجاهلي عينه، فهو من وضع قصيدة الشنفرة وأضافها إليه والعمل نفسه قام به مع تأبط شرا، مختارات ومفضليات مخطوط فينا

[1] - السابق، ص: 58.

[2] - نفسه، ص: 58.

127 المنسوبة إلى..... وأمثلة ذلك في السياق هذا متعددة ولا يمكن الخوض فيها تفصيلا[1].

من الثابت هنا أنه تمكن من توظيف اقتدرا ته الشعرية الكبيرة ونفذ منها لتظليل حتى العارفين والمتضلعين. ينتقون الثقافة الشعرية في مدينتي العلم الكوفة والبصرة حتى أنهم اطمأنوا إلى أخطائه بدل الثقة به عند الاستعداد بالاعتراف بما وضع وأضاف من شعر اتصف شعره بالجمالية الشعرية، أضفت عليه طابعا خاصا، فعنه قال ابن سلام الجمحي: " ...كان الناس حين يسمعونه ينشد الشعر لا يحفلون بالتحقق من المؤلف الحقيقي لهذا الشعر"[2] .

في ظل جملة من المتناقضات، تمثلت مجتمعة في من لم يتوانوا في الانتحال وفي حسن النية التي خدعت أصحابها ومأثور شعري صحيح لم يتسرب إليه الزيف، وجد من آلوا عن أنفسهم القيام بعملية جمع الشعر الجاهلي كثيرا من المعاناة إلى حد الاستحالة ظهرت، في عدم القدرة على تمييز الصحيح من الدخيل ، وكذا في نسبة الشعر لمؤلفيه الأصليين، بقي هذا الإشكال قائما حتى على يدى من وسموا بالورع والعلم، نحو عمرو بن العلاء، المفضل الضبي والأصمعي وظلوا قاصرين على أن يبلغوا المرام مكتفين بإبداء تحفظاتهم في كثير من المواقف[3].

إلا أن الخوض في مثل هذه القضايا التي ينتابها كثير الشك جلب إليها مسحة جذابة تطال حتى الباحثين المرهفي الحس للولوج إلى أعمالهم؛ خلقا وانطباعا حول ما توافر من رواية عن الأصمعي الذي لم يحز إجماع الثقات. وأبــو عمرو بن العلاء، الذي أضاف بيتا إلى قصيدة الأعشى فهذا من الأمثلة الممكنة في مثل هذا المقام.

وبرغم كل ما سبق لا يمكننا التسليم بان التغيير الذي حصل في الشعر القديم، لم يكن من صنع الرواة وحدهم ،فبالا بمكان، فإننا نجد في بعض الأحيان ، أن اللغويين هم من قاموا بالتصرف بغرض الهدف اللغوي، وطورا آخر يكون هذا الغرض دينيا. فما يثير الاندهاش

[1] - نفسه، ص: 59.

[2] - السابق، ص:59.

[3] - نفسه، ص:60.

خلو الجانب المضاميني لخمسة عشر ألف بيت التي بين أيدينا للشعر الجاهلي، لم تشر إلا إشارات عابرة للعبادة الوثنية فمهما يكن من مبرر لا يمكن القفز على مثل هذا الواقع المعيش الجاهلي وما ذكر أقصي وفي أحانين أخرى لحقه التغيير كما حصل في قصيدة النابغة رقم 08، الأبيات 3-17-21[1].

وفي مناسبات غير هذه أضيفت أبيات بغية إزالة غموض قد يكون ذلك حصل في زمن متقدم، وهو ما نجده في الأبيات التي أضيفت إلى قصيدة الخامس عشرة للنابغة الذبياني في الأبيات 8-18، لأنني أري أنها منحولة وأدرجت بغرض شرح البيت السابع – وهناك مثال إضافي في البيتين22، 23 والأبيات 21، 27 كانت مدار اعتقاد صحيح إلى عهد متأخر أما عن البيت 26 فأبن الأعرابي وقف وقوف حائرا، وهو الأمر نفسه بالنسبة لمعظم من تقدمه من القدماء[2] يختلف "القورت" مع "نودلكه" في تحليل الإضافات وكذا في الترتيب كل بحسب اجتهاده الشخصي .

وما يضاف إلى عوامل الانخداع في ظاهرة الانتحال، يكمن في عامل نمطية القصيدة الشعرية العربية الطويلة، الذي لاءم ارتجالها بحر الرجز بعد توسعه.

جاء في الأغاني :" يقال أن أول من رجز الأراجيز الطـوال من العرب، قال ابن حبيب : كان العـرب تقول الرجز في الحرب والحُدَاءْ والمفاخرة، وما جري هذا المجري فتاتي منه بأبيات يسيرة.

فكان الأغلب أول من قصد الرجز ثم سلك الناس بعده طريقه[3]، وهو ما أشار إليه الكاتب انطلاقا من مرجعية عربية .

إلا أن أبا عبيدة يأخذ منحى أخر حيث يقول :" إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة، ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر - حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده

[1] - نفسه، ص: 61

[2] - السابق، ص: 61.

[3] - الأغاني، ج 2، ص:63.

وشبب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليها .واستو صف ما فيها وبكي علي الشباب، ووصف الراحلة .كما فعلت الشعراء بالقصيدة[1].

فهو هنا في لف ما ذهب إليه ابن حبيب ، من رأى من حيث السبق في تطوير الرجز في القصيدة الجاهلية ، إلا أن توظيف مختلف الأوزان الشعرية الباقية في شكله الناضج جاء ينم عن أنه مسبوق لمحاولات مبتورة مجتزأة عرف سبيله إلى الكمال بعد مسيرة شعرية طويلة.

جاء عن الأصمعي في المزهر :" إن بين ظهور القصائد الطويلة المؤلفة من حوالي ثـلاثين بيتا وبين ظهور الإسلام أربعمـائة سنة، أي وقتا طـــويلا جدا".[2] وعند البحث عن ملاءمة الوزن الشعري لا علي التحديد لما له صلة بالصدق الفني أو المضمون، فإننا لا نقف علي قرار في مثل هذا البحث ، بيدا أن توظيف بحر الرجز جاء يمثل ضعف باقي الأوزان الأخرى ، فالرجز جاء موظفا في التعابير الانفعالية الذاتية يبقي استعمال الأوزان الباقية الأخرى في المجالات الموضوعية التي لا تتقيد بزمنية اللحظة الطارئة، إلا أنها تبقي في الوقت نفسه متصلة بذات الشاعر. إن عالم الشاعر رحب جدا ، إلا أن الشاعر لا يقف فيه إلا على ماله جانب اهتمام في نفس الشاعر، وهي معالم حدوده، فضلا علي جعل المتلقي هو الآخر في مركز دائرته في المجال هذا مع مراعاة رقم آخر لا ينقص شأنا عن سابقيه، وهو ما نعنى به سلطان الوزن والقافية، وهو الذي يحتم عليه الإيجاز هذا العامل الأخير الذي يصنف الشعراء ويرتبهم، وهو ما يعزز جانب الاعتقاد لدينا ، فالبدايات الأولى للقصائد الجاهلية جاء فضاؤها محددا ما بين 7-10 أبيات، أما ما جاء من قصائد طوال زمني امرئ القيس والنابغة الذبياني، فلا يمكنها ردها إلى هذا الزمن المتقدم . كما أن الحكم نفسه ينسحب على النضج الفني للقصيدة الشعرية [3] .

فالارتجال في فرض الشعر، كان ممكنا إلى عهد قريب فجاء هذا على سبيل الاستثناء ولعل هذا كان معدا من قبل بفعل صقل اللغة الشعرية وتطوير فن الشعر ممارسة وصنعة،

1 - نفسه، ج2، ص: 63.

2 - المزهر، ج 2، ص: 239.

[3] -عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين، ص :64 .

أما عن العهد الأول، فجبروت كل من الوزن والقافية بقيا من العوائق :" دون بلوغ المراد ، حتى أن من عدوا انتسابا إلى العصر المتأخر مع ما يتوافرون عليه من ملكة شعرية وتطويع الآلة اللغوية ظلوا في حاجة إلى وقت ليس يوصف بالقصير ربما عن قافية واحد لإحدى قصائدهم.[1]

"وهو ما نرى نموذجا له عند الشاعر زهير بن أبى سلمى . الذي كان ينقح ويقضي الوقت الطويل في نظم قصائده، حتى سميت " الحوليات "[2]، "والحكم نفسه يمكن سحبه على الشاعرين أوس بن حجر وطفيل الغنوي اللذين كان زهير راويا لهما"[3]، ،فضلا علي أن الجانب الموضوعاتي للقصيدة، ظل يفرض سطوته ومنطقه في إنتاج القصيدة، الذي لم يتوافر بالليونة، التي تسمح بالإبداع الظرفي غناء.

إلا أن ميدان الشعر بدأ يعرف سبيله إلى الاتساع، من حيث ثراء في المادة والتنوع في الطرح ، وهذا في حد ذاته أضفى على الفن ترسيم معالم محددة ، فالشعر لم يعد محاكاة للطبيعة، ولج عالم الصنعة، وهو ما وجدنا نماذج له فيما ورثناه من شعر قديم[4].

يبقى أن هناك من الشعر، من ذاك الذي لم يخضع وزنه إلى تفعيلات الرجز بالموازاة مع حضور الشعر الذي اتخذ الوصف غرضا له بقسط وافر على ما كان عليه سالفا، إلا أن هذا لم يقص هامش حرية التصرف في بنائية القصيدة مع التقيد في الوقت نفسه بعلائقية حسن الانتقال من موضوع لأخر، لأنه كان من القيود التي يفرضها النقد الفني، وهو ما وجد تجسيده من قبل رعيل الشعراء المتأخرين بنحون به نحو تحقق الكفاف ؛ إلا أن هذا لا يعني الوقوع في شراك الخدعة، فما وصلنا من أقدم شعر برغم ما كتب له من فنية شعرية، فانه لم يبلغ حد النضج في التحكم فنيا فيما ذكر من انتقال على جهة سوية بشكل مستمر. ففجائية الانتقال واعتباطيتها ، تحيل عليها بنائية القصيدة نفسها، دونما العودة إلى المرجعية النقدية، وهو ما يفضي في الوقت ذاته إلى هشاشة البناء وإمكانة تجزئتها أجزاء غير موصولة

[1] - السابق ، ص : 65.

[2] – ابن قتيبة، الشعر والشعراء ،ص: 08 .

[3] -عبد الرحمن بدوي، دراسات المستشرقين، ص : 65.

[4] - نفسه، ص:66.

ببعضها، كان هذا ما شهدته القصيدة الشعرية ليتدارك فيما بعد فنيا في مراحل تعاقب الحلقات التاريخية للشعرية العربية، وهنا تكمن الخطورة فيما يتسرب إلى دواخلنا من وهم حول الوحدة العضوية للقصيدة، ففي أمثلة متعددة، واجدون نحن الشاعر يقف موقف الوصف بوزن وقافية يختلفان، وهو ما يؤدى عند حدوث التشابه بينهما وبين قطعة شعرية في البناء ضمها بعضا إلى بعض، دونما عناء برغم عدم الانتساب إلى القصيدة الواحدة ، أو تحت تأثير عاملي نقاط التقاطع يؤدي إلى إحداث وقوع الذاكرة تحت طائلته، أو قد يحصل بتعسف الراوي في ضم مقطوعة شعرية إلى قصيدة أخرى أجنبية عنها، وهنا لا يمكن لنا ببساطة الوقوف على مثل هذه المواضع.

إلا أننا وفي مناسبات تتكرر يتحقق لنا ذلك، وهو ما نجده عند وصف أكثر من امرأة في القصيدة الواحدة، وهو ما يتنافي والواقع على مر الزمن، إن ما ذهب إليه احد المفسرين؛ في أن المحبوبة الواحدة تنعت بأكثر من اسم، حجة لا تتوافر على جانب الإقناع، والأمر نفسه عند ذكر مواطن لا تحقق الاتحاد فيما بينها، في النص الشعري الواحد، فالأمر قد يتحقق في الوصول إلى الفصل بين الأجزاء المتفرقة إذا حصلت لدينا الإحاطة الجغرافية الدقيقة بهذه المواقع، فالشعر القديم وصفي لا غنائي، وعن قراءة الوصف فيه، ذاك أمر لا يمكن لأحد الإحاطة به علما مسبقا فلا يمكن لها التكرار بالطريقة نفسها، كما لا يمكن لها أن تقع في النقص فيما بينها، إلا انه لا يجب الاتجاه في منهجية مرسومة معالمها فحجم القصيدة لا تقف له على قرار، وهو الأمر نفسه عن حدود الأجزاء التي تختلف في القصيدة :" وطول القصيدة غير محدد، كذلك طول الأجزاء المختلفة فيها"[1] فبحكم التجربة المتوافرة فان الفضاء الشعري في القصيدة يمتد من ستين(60) إلى مائة (100) بيت شعري تطرق فيها الانشغالات التي تحتل مركز الاهتمام لدى الشاعر، ويبقى طبيعيا فجائية الوصف والانتقال الاعتباطي بين ثنايا القصيدة، وهو أمر لا نحسبه خطا في ترتيب هيكل القصيدة، لان الفنية الشعرية كانت في تجربتها الأولى، وهو ما يمكن أن يحدث اختلالات علي مستوى الترتيب للقصيدة، ويبقي من الصعوبة بمكان اتخاذ الموقف الحاسم من ذلك، والنقد بمفهومه الكلاسيكي في كل ذلك سيحيد عن إصابة الرأي، فالموقف هنا يستدعى رهافة الحس

[1] - السابق، ص: 67.

وتوظيف الممارسة الدقيقة لأنحاء القصيدة لغرض دقة التحديد، وفي المعظم تكون النتائج سلبية، فحتى المتضلعين في شان اللغة وسبر أغوار حقول الشعر من الصفوة الأولى في القرن الثاني الهجري وقفوا حيارى أمام الحسم في ترتيب راو، أو عن صحة لغة حيال النص الشعري .

فحجم القصيدة لا يهم وإن تألفت من أجزاء لا تنسجم فالعرف الشعري يستوجب توحيد قافية القصائد كل من الضرب، والروي، وما بقي من شعر فتوحيد القافية لا يعني إلا الأواخر دون سواه ؛ أما المواضع المطروقة فهي إجابة عن خلجات عاطفية اتجاه المحبوب وهو التقليد الذي أضحي ضربا فنيا، مع ما دهاها من تحول بفعل الزمان والأمر سيان في حال وجود الحسية أو عدمه فالشكوى قائمة عند الصدود والإعراض، أو الوفاء والخيانة إلى غير ذلك من المضامين التقليدية ، حتى كأن الأمر واقع بذاته، أو البقاء على شباب ولى وما يحيل عليه من حب فاشل، أو أشباه هذا كثر ...

ولعل الاستثناء ما أنشأه الشنفرى في قصيدته المطولة المنعوتة: بلاميه العرب، لان المقام لا يليق بشعر الصعلكة الذي يأبى ذلك ويرفضه لطبيعة متأصلة في ذات أصحابها، وكذلك الاستهلال بموضوع جديد بمطلع جديد ذي قافية مزدوجة، يبقي هو الأخر ضربا غير مألوف، ومن مجموع المائة وثمان وعشرين قصيدة التي جاء علي ذكرها المفضل الضبي ، لم نقف إلا على خمس قصائد من بين اثنين وستين قصيدة مطالعها مزدوجة القوافي، جاءت تخالف هذا العرف نعوزها بالخاصة : أما ما تبقى من قصائد طويلة لا تتوافر على مطالع مزدوجة القوافي، فتظهر أنها احتفظت بصورتها الأصلية فيما وصلنا من شعر لافتقادها[1].

لقد وقفنا على حقيقة، مؤداها تفكك الأجزاء في القصيدة الواحدة ، حتى أننا نذهب إلى أن كل الارتباط من قبيل الاعتباطية ليس إلا ! وأن طابع الشعر القديم يحليه الوصف ، إلا أنه بالإمكان تناول العلاقة الشخصية لما لها من صلة بالأخر، فيغطى الوصف هذه العلاقة،

[1] - السابق، ص :69.

فمواطن بدايات القصائد ب:" ألا أيها ... عني رسالة أبلغ فلانا أو فلانا الخ ... عديدة بشكل غير عادى ، بل انه توجد قصائد كثيرة تبدأ بهذه البداية "[1].

فبصرف النظر عنها ، فهي من وجهة نظر شخصية قطع مجتزأة من طول قصائد، تعد جزء رئيسا في قصائدها الأولى ؛ أي أنها لا تلقي ذلك الصيت الذائع عند مقارنتها بقصائد أخرى لا تتوافر علي ذلك، والتي تلقى وصفا للحال أو الواقع وفي كل الأحوال، فهي تتوافر علي مميزات القصيدة، فإذا اقتضي الحال تسمية القطعة الطويلة باسم : "القصيدة " إننا نمدده ليطال القطعة القصيرة في تكاملها في نفسها ، فالإشكالية قائمة نقصها أمرا [2].

إذ كان لكل قصيدة في العهد الجاهلي المتأخر نهاية، فهذا أمر يخصها، فالصنعة الشعرية شهدت تطورا عبر مسارها التاريخي، فالأمر هذا لم يكن كالعهد الأول بزمن الشعر الذي كان حدثا عارضا، فالقصائد الطويلة ليست بذلك لما جاءت عليه من أوصاف للأشخاص أو للأشياء، واسم القصيدة انطبق عليها، حتى من غير الأرجوزة ، وكما يمكنه أن يضاف إليه كل شعر اتخذ بحر الرجز ثوبا له مع بقاء البيت الشعري متصلا علي غير ما كان عليه من قبل[3]، كما ينسحب هذا النعت علي ما عرف بالمعلقات التي لم يصل فيها بعد، إلا أنها سميت كذلك لتعلق كل قطعة بالأخرى، وإن المقصود بالطول هي سبع أو تسع قصائد[4].

كما نجد اهلوارد لا يتفق مع المستشرق فون كريمر "von Kremer" الذي اجتهد في تأويل هذه الكلمة، ففي مقدمة كتاب له تحت عنوان "القصائد العربية القديمة " جاء عنه أن تعليق الكتابة عن إنشاد الرواة[5]. فمن مدلولات الفعل "علق" الإضافية في العهد المتأخر مدلول النسخ أو ما كُتبَ إملاء متصلا دونها بدون انقطاع . فالوقوف علي مثل هذا التفسير في الزمن الأول ، لا يحصل إلا نادرا ومن المشقة بمكان، يبقى الشك يحوم

[1] - السابق، ص: 69.

[2] - نفسه، ص ص :69 – 70.

[3] - نفسه، ص: 70.

[4] - نفسه، ص: 71 .

[5] - نفسه، ص: 71.

حول النسخ أصلا لهذه القصائد فإجماع المصادر القديمة كلها في أسبقية حماد الراوية في جمعها ونشرها، ومن المسميات الأخرى للقصائد الطويلة :"الطوال" و"السموط " وأيضا "المذهبات"، من النادر أن يستفاد من لفظ "المعلقة " علي غير مدلول "المذهبة"، أما عن رواية تعليقــها بالكعبة مع ما جاء ذكره في العهد المتأخر تواترا غير ما مرة، والأمر كذلك، حول ما جاء عن الرواية الثانية ، كونها حفظت في الكنز الملكـي، فالروايتان معا حظوظهما قائمة على مجرد افتراض ليس إلا ! الغرض من ذلك ركوب شطط الرأي لأجل شرح المسمى[1] إن ما قيل عن المنافسات الشعرية، كسوق عكاظ،أمر لا يَمُتُ إلى الحقيقة بصلة ، فكل ما في الأمر تبارى الشعراء فيما بينهم ليظهر كل اقتدرا ته الشعرية مع تبادل الأحكام فيما بينهم والشأن هذا وجد تكرارا في غير مناسبة[2].

وانطلاقا مما تقدم، ليس في وسعنا إلا أن نخلص إلى قضية مؤداها، أن صحة القصائد الجاهلية أمر يغلفه كثير الشك وبيان ذلك، فهو موجود بإحدى الطرق ؛أما بالطريقة التي تم بها نقل الشعر الجاهلي إلى العهد المتأخر، أو بالآثار التي لها صلة بالإعطاء والقبول، وكذا في منهجية بنائها، وأن الثقة فيما ساقه علماء اللغة من أدلة لا يمنع من أن يتسرب الشك إلى مستوياتها المختلفة، من مؤلفين وسعتها وتسلسلها الداخلي، وفي جزء من أبياتها التي وردت مفردة.

لم يعد من الميسور حتى على جهابذة أهل العلم، نحو الأصمعي أو ابن الأعرابي، أن يتوصلوا إلى فرز قديم الشعر من جديده ، و هناك من الأخبار التي تواترت تبين المواطن التي جانب فيها حماد الراوية جادة الرأي :" وهاك واحدا منها أنشد إسحاق بن إبراهيم الأصمعي هذين البيتين (من الخفيف):

هل انطوى إليك سبيـــل فيروي الصدى ويشفى الغليـل ؟

إن ما قــل منك يكثر عندي وكثير ممـــن يحب قليـل

فسأله الأصمعي، لمن هذان البيتان ؟ فأجاب إسحاق: لشاعر عربي قديم ، فصاح الأصمعي: وأيم الله إنهما أشبه بالبساط السلطاني! فاعترف إسحاق قائلا : كلا لقد نظمتها، أنا

[1] - السابق ، ص ص: 71-72.

[2] - نفسه، ص ص :72 -73.

في الليلة الماضية .فقال الأصمعي ، متضايقا: نعم إن المرء ليلاحظ فيها التصنع والإجهاد "[1].

إن الحكم على الشعر الجاهلي : هو كالحكم على التاريخ القديم فالأخبار التي يوردها المؤرخون، ك :" ابن إسحاق أو الطبري وأو ابن الأثير، أو غيرهم لا يمكن الإقرار بهذه الأخبار، إلا إذا وضعت علي محك الاختبار ومقارنتها بوقائع أخرى لتظهر مدى مصداقيتها أو دون ذلك، والأمر ينسحب بالدرجة نفسها على أخبار علم الأنساب، فالاختلالات الرابضة فيها وما شابها من اضطراب وذلك لانعدام المعيار النقدي الذي لم يواكب روايتها ! والحكم ذاته يقال عن الشعر فما ورد إلينا من أبيات مفردة في القرن الثامن، قد تكون سبل اتصالها غير صحيحة، فهي إلى القدم تنسب أو توغل في القدم، ومهما يكن من أمر فالقبول بصحتها قبل الامتحان، أمر لا يمكن أن يحصل، ولو تحـلت أخبارها بدرجة كبيرة من الثقة، فالاختبار لابد من أن يطال درجتها المتعددة والمختلفة، إن هي في ذاتها أو ماله شأن بالسياق الذي وردت فيه أو عن الشاعر الذي نسبت إليه[2].

الاجتهادات النقدية هي في حاجة إلى الإجابة عن الإشكالية الآتية: هل لدينا الوسائل الكافية للقيام بهذا العمل ؟ هل نملك الأدوات اللازمة للنهوض بهذه المهمة؟ هل نحن في حال تمكننا من الفصل في مثل هذه الأمور خير من الوضع الذي كان فيه اللغويون العرب؟.[3]

فالأدوات لا تكفي إجمالا، فهي لا تفي بالحاجة؛ لأنه لا تعوزنا دقة الملاحظة وعمقها على مستوى التوظيف اللغوي على مستوى كل شاعر، وعلى مستوى كل عصر فبدرجة أولى لا نملك الأدوات التي تتيح لنا الوقوف على الفارق اللهجي وتحديدا ما ارتبط باللفظ، فالإفادة قد تتحقق لو أننا بحثنا في الآثار المختلفة لشاعر من قريش ثبتت صحته مثل عمر بن ربيعة أو البحث في ديوان حسان بن ثابت الذي جاء يسع ألفا وثمان مائة 1800 بيتا

[1] - السابق، ص:73.

[2] - نفسه، ص: 73.

[3] - نفسه، ص : 73.

شعريا، كونه رسولا لشعر الحضر ليقابل هذا بشعر البادية على أن يمتد هذا البحث ليشمل جميع مناحي البحث[1].

ومع يقيننا بتفوق علماء اللغة علينا في مجالات تخصصاتهم، إلا أنهم لم يولوا هذه المواضيع ما تستحق من بحث، زيادة علي أن جلهم من الأقدمين كانوا إلى العجم ينتمون، ومنه كانت حاجتهم ماسة إلى دقة الإحساس اللغوي مع ما يظهر من شك في إدراكهم الفوارق اللغوية في درجتها الدقيقة التي تميز لغة العصر الجاهلي من لغة العصر الإسلامي، ويبدو أن ثلة قليلة منهم ، وبرغم أننا نحن كذلك ينقصنا هذا الإحساس اللغوي، لأننا عاجزون على أن نقف على الفوارق اللغوية عند جرير والفرزدق، كما نحن في حاجة إلى زادهم المعرفي .

فهل وصف الناقة قد أنشأ مواصف بدوية أو حضرية ؟، وعن تصفيف المواضع هل حصل ذلك دون رابط يربطها ببعض ؟، وما درجة التوافق فيما بينها ؟ هل المجاز له صلة ببيئته أو يحيل على رواسب حضارية متعاقبة ؟، تبقى هذه الإشكالات وغيرها، تقيم جدار صد بيننا وبين بلوغ المرام، تشكل في مجموعها طلاسم نعجز عن فك شفرتها !.

إلا أن مسألة الترابط بين أجزاء القصيدة، أو بين أبياتها نقد توفر لدينا، دون أن يحصل لعلماء اللغة العرب برغم تناولهم هذه القضية ، إلا أنهم لم يخوضوا فيها خوضا معمقا فاختلاف ترتيب الأبيات لقصيدة ما، من راو لأخر هل مرده إلى النقد والتأمل، أو هو من صنيع راوي القصيدة ؟، و المرجح أن الاحتمال الثاني أقرب إلى الصواب، والفارق الحاصل بيننا وبين علماء اللغة، يتجلى في كوننا، الأكثر اقتدارا في الوصول إلى الشبكة العلائقية التي توصل أجزاء القصيدة بعضها بعضا، بما تتوفر عليه من امتلاك حاسة الارتباط الباطنية على خلافهم هم الذين لم يتجاوز الأخذ بالمعيار المفرد، وحكمنا على شاعر ما ينطلق من تناوله لهذه الملاحظات فابن قتيبة في مقدمة كتابه: "طبقات الشعراء "[2]، وفي غير هذا الكتاب نقف على إصابة رأي فيها، إلا أن الاهتمام ولى وجهه للجزئيات والتفاصيل على خلاف تحكيمنا الجانب النقدي لموضوع بحث أصبح الشك يخامرنا منذ

[1] - السابق، ص: 74.

[2] - السابق، ص: 74.

الوهلة الأولى. لقد وقفنا على تناقضات وفجوات وزيادات مرفوضة لم يتمكن علماء اللغة لسد حاجاتهم من بلوغها، ومنه تكرار أسماء نساء في أبيات متعاقبة أمر كهذا يمكن أن يجد تسويغه الداخلي، كالإفصاح عن انفعال فني طارئ ، إلا انه يبقى من الصعوبة بمكان الاطمئنان إليه في الأحوال الهادئة للنفس المستقرة .

بصورة أوضح ما تظهر في تعدد الأسماء للمرأة الواحدة ،" يبقى من أن القصيدة التي تكون نموذجا لهذا، تطرح فرضية امتزاج أكثر من قصيدة في القصيدة الواحدة.

ومما يثير الغرابة، هو احتواء قصائد الجاهلية الأولى أو حتى المتأخرة أبياتا تتطابق ليشمل ذلك حتى القافية ولا يظهر التباين، إلا في الكلمات بعضها، أو تأتى متطابقة نصفا ومن الأبيات الشعرية والتي ليست بالقليلة سجلنها في الجاهلية المتأخرة تتقاطع في الأفكار نفسها محتفظة بشيء من الاختلاف في الجانب الشكلي تتجاوز عنه النظر لوجود ما يسوغه، لفرضية الاستعارة لا نفسر على ديمومتها وتكراراها واجتهاد نفر من النقاد العرب سعيا منهم، للوقوف على ما استعاره المتبنى من أرسطو، مآلها البطلان .

وتفصيل ما سبق وقوفا عند الاحتمالية الأولى بحصول توافق بيتين كاملين في الجانب الشكلي، لا يمكن أن يجد مبرره بحجة عامل الصدفة ؟ والحال نفسه في التطابق بين الشطرين[1].

ومؤدى ذلك ،عائد لأحد الأسباب الآتية :

أ-استعارة احد الشاعرين من الأخر.

ب- انتفاء البيت عن واحد منهما .

ج- وقوع الحافر على الحافر فالاستعارة تعنى السرقة .

إلا أن الثقافة الأخلاقية التي جبل عليها الجاهليون الأولون وطبيعة الآباء وخصلة التعفف، تبقى الشاعرين الجاهلين ،بعيدين عن الإسفاف الأخلاقي، بالوقوع في السرقات الأدبية، ومثالهم في ذلك ما جاء عن الشاعر حسان بن ثابت في :

لا أسرق الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري

إنـي أبي لي ذلكم كسبـي ومقـالة كمقالع الصـخر[1]

[1] - نفسه، ص: 77.

من المستساغ تواتر ذكرى لأشعار سالفة، على شرط أن تسوق في شكل متجدد، وهذا النحو من التوافق ينبغي له أن يرد مثلا أو تعبيرا كلاسيكيا ، فالمسؤولية هنا يتحمل وزرها راويها أو جامعها ، و هذا القبيل من الشعر، هو الذي يلقى الخلاف في إسناد القصيدة إلى صاحبها وقضية تقل حدة عن السابق، إذا وقع هذا على مستوى الأبيات أو الأشطار عند الشاعر نفسه، وهو ما يملى تفسيرا، مفاده عدم وضع وإدراج هذه الأبيات والأشطار في مواطنها اللائقة بها والأمر سجل فيه بعض الاختلاف في حال ورود الفكرة نفسها مكرورة بتعبير يختلف، وهو ما يدفع بنا إلى الشك في أمره، لقد تناول النقد الشعري القديم هذه الظاهرة دونما ذكر لمواطن الحذف[2].

وكثيرة تلك القصائد التي تبدو كاملة، إلا أنها وردت من دون استهلالات ومحل الشاهد قائم في قصيدة، زهير رقم تسعة عشر (19) وطرفه 8-14-17 والنابغة، 4-10-11-26 وأبيات طرفه 41 -49 في قصيدته الخامسة (05) للنابغة قصيدة مستقلة لحالها، لما عدت[3].

وهناك من القصائد ما جاءت مبتورة الخاتمة، دونما إثارة وجهة الاستغراب كالقصيدة 14، الرابعة عشـر وقصيدتي امرئ القيس العاشرة (10) والخامسة والستين (65)، وهناك ضرب أخر من القصائد وردت مبتورة الاستهلال والخاتمة على حد سواء، وهو ما نجد صورة له عند امرئ القيس في قصيدته التاسعة عشر (19)، قد تأتي المطالع متوالية متصلة، أو يفصل فيما بينها بأبيات شعرية، كما قد يصادفك استهلال جديد في عمق القصيدة وتتابع هذه الاختلالات البنائية، فتظهر في قصائد تحتوي خاتمتين اثنتين، نموذج ذلك في قصيدتي امرئ القيس المرقمتين 47-52، وهو ما لا يتماشي ونظام شكلية القصيدة، فالمتعارف عليه، هو أن لكل قصيدة مطلعا وخاتمة غير متعددين، أما ما عدا ذلك من مطالع وخواتم، فهو حشو للوزن والقافية نفسيهما، تكون دواع أخرى قد أملتهما[4].

---

[1] - السابق، ص:78.

[2] - نفسه، ص ص: 79-80.

3 - نفسه، ص :82.

4 - السابق، ص:82.

وتعد القصائد التي جاءت مطالعها متعددة، واردة على سبيل الكثرة، وهو ما يفسر اضطرابا في روايتها ولا يطمأن إليها يضاف إليه أن إنشاد هذه القصائد ورد على وجه الكثرة وفي حال القلة معها اختلاف الرواية حولها وتبقى بمنأى عن أن تلحقها عاديات التبديل.

فانتفائية الاستهلال تبقى من الصعوبة بمكان، وهو ما لم يتناوله النقاد اللغويون العرب، بالكيفية التي يستحقها أن مثل هذا الجُهْد يسهم في إحداث الفصل بين المقطوعات الشعرية وفي إنشاء التمايز الحاصل في المقطوعتين فأكثر تستقل كل واحدة فيهما عن الأخرى، فالشأن قد لا يحدث على وجه القلة اشتمال المطولة من الشعر على مقطوعتين أو قد يزيد، لا ترتبطان برباط خارجي وهو ما يجد تباينا له في القصيدتين، توحي باستقلال الواحدة عن الأخرى برغم أن لها سبل الاتصال لتتشكل منها القصيدة الواحدة[1].

إن الخوض في القصائد بشكل يسبر العمق، وهو ما يكون في حاجة إلى الإتيان على الكثير من دقائق الأشياء، وهو غير ممكن في المقام هذا ويمكن الذهاب إلى أن هذا الأمر هو في حاجة ماسة إلى رهافة حس وعمق دراية، إلا انه في الوقت نفسه يبقى جانب الحيطة والحذر أمرا قائما والحال كذلك.

إلا أن النظرة ستغير فيما له صلة، بالتعرف إلى منشئ القصيدة ومن وجهة نظر شخصية فبمعرفة أسلوب الشاعر نهتدي إلى صاحبه، ففي عصور متأخرة جذا عن العصر الجاهلي، لا يمكن لنا التصرف في مؤلف القصيدة، فما بالك بأدب العصر الجاهلي نفسه ! حتى انك بدراسة استقرائية للظاهرة الأسلوبية تصل حتما إلى فرز المنحول من الأصيل، الصحيح[2].

هناك عامل ثابت يكون قد أسهم وغذى هو الأخر بدوره إلى جانب ما تقدم ظاهرة الشك في الشعر القديم، وهو ما نعني به تسمية أكثر من شاعر بالاسم نفسه، كاسم امرئ القيس الذي يوقع لأكثر من قصيدة واحدة، فالتباين وارد هنا في الاختلاف إلى من تنسب إليه القصيدة، وفي كثير ما عرف عن النابغة وزهير يكون قد لفق إليهما تلفيقا من قبل أبناء

[1] - نفسه، ص: 83.

2 - السابق، ص : 84.

عشيرتهما، مع افتقادنا نحن إلى الخيط الرفيع الذي يشدنا إلى حقيقة الأمر، ومنه ما نسب إلى الإمام على بن طالب- كرم الله وجهه - وأضيف إلى ديوانه ، والتي مطلعها :

الناس من جهة التمثال أكفـــاء أبوهـم ادم والأم حـواء

فالقصيدة هذه صاحبها الحقيقي، هو سمية على بن أبى طالب القيروانى[1].

وهناك داع أخر نسوقه هنا لدعم ظاهرة الانتحال، وهو ما تجلى، في تغنى الشعراء لمحبوبة نفسها، وقصيدة النابغة رقم 14 ورقم 01 تكون محل شاهد لنا، والمواضيع ذاتها والأشخاص أنفسهم، كما يمكن أن يكون للطابع الذي عرفت به القصيدة الشعر المطبوع لأعلام الشعر البارزين، داعيا لإثراء التشكيك في نسبة القصائد لأصحابها، امرؤ القيس، الشطر 15، القصيدة رقم 35 القصيدة 20 البيت 6، القصيدة 16 الأبيات 47 وما تلاه[2].

جاءت المناسبات، ليست بالقليلة إضافة قصيدة إلى شاعر مشهور لعلاقتها بما ذيع عنه بأخبار عرف بها، قد تكون هذه الأخبار من قبيل الخرافة، فجهلنا لتفاصيل الحياة عن شاعر الشنفرى ، يفتح المجال واسعا لإضافة إليه شعرا ينسجم مع ما وصلنا من أحاديث كالقوة والصعلكة، والتعدي على حريات الآخرين ، وهو الحال الذي ينطبق على امرئ القيس في القصيدة الرابعة 04، السابعة 07، ويبدو أن ما نسب إلى مشاهير الشعراء بفعل اللغة والعرف سمحت بتعزيز الشك في سير حياة هؤلاء الشعراء، وهو ما اتهم به شعر امرئ القيس، حيث أن ما سجل على هذا الشاعر الزيادة في شعره من قبل رحالين تجهل حتى اليوم أسماؤهم [1].

ليبقي في المحصلة، أن نقر أن الإمكانات النقدية المتاحة لنا محدودة ،إلا أنها جدية وقيمة في جوهرها، فعن الصحة، فجزء أول منها جاء صحيحا وجزء ثان جاء يفتقد إلى هذه الصحة والجزء الثالث يحمل بذور الشك في أصله، وتبقى هذه من الاجتهادات هي التي تقربنا إلى الحقيقة، وفي مواطن أخرى ، لا يمكن لنا الخروج عن دائرة ما نقل إلينا من متون

[1] - نفسه، ص ص :84-85.

[2] - نفسه، ص:85.

الرواية، وتبقى مواطن أخرى نحسب أن الحقيقة قد تتجلى يوما، خاصة فيما تعلق منها بالشعراء ! الستة[1].

نقد القرت :

بدا الشك يحوم عنده على اختلاف النقاد العرب، أمثال: أبى تمام في حماسته، أبى الفرج الأصفهاني في مؤلفه الضخم :" الأغاني" والسيوطي في: " المُغني "، في إسناد القصائد إلى أصحابها، بحكم أن الروايات الشفوية والتي تداولت الشعر الجاهلي، حوالي مائة وخمسين سنة، كانت أحد العوامل في ذلك، ونحن نكون قد كررنا أنفسنا، إن نحن عدنا إلى ما قلنا مع المستشرق نودلكه، فقط نضيف نقاش نقطة هنا ،ألا وهي الشك في عدم أمانة الرواية الشفوية، اتجاه إسناد القصائد في البدء، الإشكالية التي تطرح نفسها :

هو، هل أن الرواية الشفوية وحدها كانت مصدرا نقل إلينا الموروث الشعري العربي؟

ولعل الإجابة نراها من خلال استقراء الأدلة الآتية تتمثل في النفي، فهناك ما يشبه الإجماع، على أن العرب في جاهليتهم عرفوا ضروبا من الكتابة في مواطن من شبه الجزيرة العربية، ونقصد شمال شرقها وشمال غربها اليمن إلى الجنوب، وكذا في الحجاز وفي مكة والمدينة فيقال: "إنه عند مجيء الإسلام كان في مكة تسعة عشر كتابا، وفي المدينة أحد عشر، وإذا كان المظنون أن عددهم في هاتين المدينتين كان أكبر من ذلك"[2].

ومما ذهب إليه البعض، انتقال الكتابة إلى بعض الأمصار والبوادي نُقل أن " أكثم بن صيفي وهو من علماء تميم معرفته للكتابة[3].

كما جاء عن الأغاني، أن الشاعر الجاهلي المرقش الأكبر كان على دراية بالكتابة، كما نجد أن القران الكريم يدعو إلى الكتابة لتقيد الدين في أصول سورة القران الكريم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ

[1] - السابق، ص: 86.

[2] -حسين نصار نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، ص :23.

3 - عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي ،ص:13.

كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "[1].

وفي آيات أخرى: "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"[2] وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ "[3]. إن الخطاب القرآني جاء متوجها إلى العرب بما كانوا يعرفـــون، ومعرفتهم هنا حاصلة للكتابة وآدابها سبقت هذا المحاباة؛ لأن الحوار أحادى الطرح في جانب الرواية أردت أن أكمل بهذا ما جاء مبتورا في نظره ؛لأن القصيدة كانت منسية و أن الموروث الشعري رفدته الشفاهية والتي لم تكن في نظره بقادرة على حماية نفسها أمام عاديات الزمان؛ إذن فجانب الكتابة ثابت، وأن كثيرا من الروايات الشفوية اتخذته لنفسها منطلقا فلا سبيل بعد هذا الغرض تقويض أركان الشفاهية التي بقيت كخاصية من خصائص العربي إلى جانب الكتابة تؤدى دورا فاعلا في إثراء التراث العربي، وإن كانت هناك بعض الجوانب السلبية في بعض محطاتها، لا يفسر ذلك برميها بعموم الشك .

ومن المسائل التي يجب الوقوف عليها، هو أن اهلوارد، في إثارته لقضية كتابة القران الكريم والحديث النبوي الشريف دونما لهجات أخرى، فما وصلنا من شعر جاهلي يعد من النموذج اللغوي المتواضع عليه، فهو يقدم لنا أدبية ترفعت عن تباين اللهجات العربية الأخرى التي لا ترقى إلى لغة الإبداع : " فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته

1 - سورة البقرة، الآية: 282.

[2] - سورة القلم، الآية 1.

3 -سورة الطور، الآيات 1-2-3.

المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ومن ثم اختلفت جلت الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلا جدا[1].

مما وحد لغة الشعر العربي الذي أصبح يخضع لقوالبها وأنسجتها، عبثا حاول رعيل من المستشرقين ، البحث عن بدايات اللغة العربية، نحو "نودلكه " ، فيما ذهب إليه من أن تركيب اللغة العربية ركبت من الاختلافات اللهجية لأقاليم الحجاز ونجد والفرات و رأى " فيشر" إلى أنها؛ أي اللغة العربية ، هي: أصلها لهجة واحدة مع عجزه عن تحديدها، وها هو "نالبنو" ، يزعم أنها لغة القبائل التي فرضت الشعر ،عرفت به ليقوم النحاة واللغويون بجمع شواهدهم النحوية اللغوية من مادة شعرهم وهذه القبائل، هي :معد التي نشأت من إحدى لهجات نجد، وعرفت صقلها في عهد مملكة كندة، لتصبح اللغة متداولة في الأوساط العربية، كما يذهب "هارتمان" و"قولزر" إلى إحداث الشعر تحويرات كبيرة في لهجة نجد واليمامة ويمضى "قولزر"، زاعما أن البلاد العربية الباقية تكلمت لغة تختلف إلى أن يصل، أن لغة القران الكريم كانت لغة شعبية، ليكتب بعدها الفصحى[2]. وتتواصل دائرة الظن مع بروكلمان" الذي ذهب به الظن إلى أن فصحى لغة فنية مهيمنة وإن شكلت من مجموع هذه اللهجات... أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غذتها جميعا"[3].

إلى غيرهم من المستشرقين الذين خاضوا في هذا الموضوع، إلا أنهم-غالبهم- ،جاءت فرضياتهم ضربا من التخمين تعوزها الحجة العلمية، وكان القصد بذلك، نفى نزول القران الكريم بلغة قريش قول أبي نصر الفرابى: "كانت، قريش ،أجود العرب، انتقاء للأفصح الألفاظ، وأسهلها، على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس " [4]. ويقول احمد بن فارس نقلا عن إسماعيل بن أبى عبيد الله: "اجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة شعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم، أن قريشا أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله- جل ثناؤه- اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم

1 -شوقي ضيف ،العصر الجاهلي ،ص :131.

2 - نفسه، ص: 131.

3 - بروكلمان، تاريخ الأدب العربي ، ج.1، ص: 42.

4 -السيوطي، المزهر، ج1، ص:211.

نبي الرحمة محمدا- صلى الله عليه وسلم - فجعل قريشا قطان حرمه وجيران بيته الحرم وولائه ، فكانت وفود العرب من حجـاجها وغيرهم يغدون مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم ... وكانت قريش من فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم، أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى ذخائرهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا تري أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، وعجرفية قيس، ولا كشكة أسد، ولا كسكسة ربيعة"[1]، ويقول ابن خلدون: "كانت لغة قريش، أفصح اللغات العربية لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ".ففصاحتها متأتية عن أنها جاءت بعيدة عن بلاد العجم، " حتى أن سائر العرب على نسبة بعدهم من قريش، كان الاحتجاج للغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية "[2].

فباستنطاق ما تقدم من نصوص، فمن نص الفرابـى نهتدي إلى انتقائية الأفصـح، والأسهل نطقا والأحسن سمـــاعا والآبين تصويرا في خـوالج النفس، ومن نص ابن فارس المنقول عن إسماعيل بن أبى عبيد الله، أن قريشا هي أفصح لسـانا والأصفى لغة باختيار من الله -عزوجل - اصطفاء الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- ،سكان الكعبة الشريفة قبلة الحجاج العرب، إليها يحتكمون في لغتهم وشعرهم، صقلت وظهرت في صورتها المتكاملة التي ترفعت بها عن أي عيب في اللهجـات العربية الأخرى، ومن نص ابن خلدون، الذي يرى أن اللغة القريشية، أفصح اللغات العربية، حتى أضحت حجة لغوية لدى القبائل العربية كلها.

مما سبق نقف على إن لغة قريش، لها من المؤهلات اللغوية والاجتماعية أهلتها جميعا لأن تكون الوعاء اللغوي للشعر الجاهلي والذي اختاره لغة لما لها من مقومات إبداعية وفنية ترشحها لذلك على ما تبقى من لغات أخرى، فلا تخضع بالرأي لمن حاجج تعسفا واشتط في رأيه نكرا، وهي لذلك كله، اختـارها الله عزوجل - لينزل

[1] - شوقي ضيف العصر الجاهلي ص ص : 132 -133

2 - نفسه، ص: 133.

بها محكم كتابه وفيها يقول إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ "[1].

فالخطاب موجه بالدرجة الأولى لأولى الألباب الذين يتدبرون، وليس من عجزت قلوبهم وعمت بصائرهم عن الاهتداء إلى جادة الرأي.

وزاد من الاهتمام بجمع الشعر الجاهلي، الدراسات اللغوية والنحوية التي اتخذت من متونه شواهد لها تجمع ما شهدته من تطوير في أساليبها، وتنوع في مدارسها، وجه إلى الشعر العربي القديم، وكان هدف الدارسين من وراء هذه الدراسات التوجه إلى المشارب اللغوية الصافية، بقصد الحفاظ على الأنسجة اللغوية التي لها صلة بالنص القرآني والحديث النبوي الشريف: "ومما يسوغ اقتصار علمائنا القدماء على دراسة اللغة إلى عصر الاحتجاج، رغبتهم في الحفاظ على اللغة في صورتها التي ترتبط بالقران الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وسيرة السلف الصالح من الحساب عن الأول[2]. ففي تناول ظاهرة اللحن بالدراسة، كان الغرض منها، تقديم ما وقع فيه الناس من الابتعاد عن المعيار اللغوي العربي: "وفي هذا ما يوضح الهدف من دراسة بعض اللغويين لظاهرة اللحن اللغوي في العصور اللاحقة لعصر الاحتجاج ...فهي دراسات ترمي في جملتها إلى إصلاح ما يقع فيه الناس من خطأ"[3] واللسان العربي، كانت ثمة في هذه الجهود قبائل بذاتها وهي الأقرب للغة القران :" تمثل أساليب العرب ضمن إطار زمني لا يجاوز عصر الاحتجاج ولا يتخطى بيئات مكانية محددة، تمثلها قبائل معينة، وهي أقرب القبائل إلي تمثيل لغة القران الكريم "[4].

فالدراسات في جانبها اللغوي والنحوي، أسهمت من جهتها في جمع الشعر الجاهلي، وقد تكون من هذا الباب عاملا إضافيا حافظ على الموروث الشعري، الذي تلقفته الرواية السماعية من أن يضيع.

إن حركة التدوين والتي رأى الكاتب أنها جاءت تناهز مائة وخمسين للهجرة، جاءت لتحفظ ما تبقى من الشعر الجاهلي، قادها رواة تخصصوا فيها،سمح لهم تضلعهم في الشعر

---

[1] - سورة يوسف الآية :02.

[2]إسماعيل احمد عمايرة، المستشرقون، المناهج اللغوية :24.

[3] - السابق، ص: 24.

[4] - نفسه، ص: 24.

العربي محاكاة النسج على منوال القصيدة الجاهلية، ومنه تضليل حتى ممارسي الثقافة الشعرية، إن تحديد تاريخ التدوين ب: 150 سنة، ذلك أمر لا نوافقه فيما ذهب إليه من زمن، لأنه كما سبق وأن أوضحنا أن الكتابة و الشفاوية جاءتا متداخلتين ومن باب التعسف نحاول الفصل بينهما، والأمر أنهم ؛ أي الرواة نسجوا على المنوال، فهو إقرار ضمني يعزز فرضية وجود النص الأصلي ولا طريق للنفي، لأنه يفترض في المقلد أن يتقفي الأصيل .

ويذهب في منهج شكه بإضافة عنصر الغرور ليدعم به فرضيته، هذا الغرور الذي يدفع بالراوي إلى ركوب رأسه، ومحاولة الصنعة والوضوح فيما لم يجد له إجابة، فإذا صح هذا... البعض من الرواة سبق النقد العربي إلى إبانة ما أحاط من زيادة، فهو لا يشفع إلى الرواة الآخرين خاصة ممن شهد لهم بالتحري والأمانة العلمية، ويواصل سيره عبر سبيل الريب، في أن ذاكرة الرواة وإن اتصفت بالقوة سوف لا تقوى على الحفاظ على النص الأصلي زيادة أو نقصانا، فمن البدهي أن الذاكرة المعنوية مهما أوتيت من خصائص الدقة والسعة فهي في بعض محطاتها تبدى ضعفا، وهو تفسير لما ينتاب القدرات البشرية من نوبات عجزت، فهذا يكون في أجزاء منها وليس في كلها ،في بعض فتراتها وليس في جميعها ، ليبقى الجوهر قائما والاختلاف لا يحدث إلا فيما هو فرعي .

وبرغم ما وجهه من أسهم نباله يشك في صحة ما انتقته الرواية الشفوية، إلا انه يحترز لنفسه ببعض الهوامش، حين يعترف لأعلامها، أمثال: حماد وخلف وعمرو بن العلاء ويثمن ما قاموا به من جهد لإرساء تقاليد النقل الشفوي الشعري، بحيث عد كل واحد مدرسة لها مقوماتها وأمارتها تتكامل فيما بينها لتؤسس لفعل الرواية السماعية، فبذكر هؤلاء الأعلام نقف على ما قاموا به حماد الراوية، فباعتراف الرواة أنفسهم، ومن سايروا الحركية النقدية ،اعتراف من قبل من اهتموا بجمع المعلقات الشعرية ، فهو كان يختلف عمن جمعوا من علماء اللّغة والنّحو، الذين جراو وراء قصدية الشاهد النّحوي أو اللّغوي، أو هما معا، فجاءت إنتقائيتهم ضيقة تدور حول دائرة مغلقة لا تتعدى قطرها أما هو، أي حماد فجاء ت روايته ضعيفة لأجل الجمع ليس إلا! فجاء عمله موسوعيا، شهد للرجل بحفظ آلاف مئات القصائد، حتى ضربت حوله الأساطير في سعة الحفظ،ويبقى من كل ذلك نستنتج أن الرّاوية حفاظة للشعر العربي، ومضي بالرّاوية الشفوية بعيدا، فعدّ بحق مصدرا من المصادر

الروائية يقول فيه الأصمعي :" كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حمّاد الراوية، إلا نتفا سمعتها من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء.[1]

نستقي من كلام الأصمعي ما يعزز الحجة فيما ذهبنا إليه من حكم اتجاه الرجل.

وبرغم الحجم الشعرى القديم الذي تختزنه بطون مؤلفات تاريخ أدبنا العربي ،إلاّ أنه وقياسا بما فقد من حلقات يبقى قليلا، فها هو أبو عمرو بن العلاء يصرّح :أنّ ما انتهى إلينا من الشعر العربي القديم إلاّ أقله، رغم ما قام به جماعو الشعر والخبر"[2] ومع ذلك كلّه توّجه نبال الشك إزاء ما جمع حمّاد من شعر عربي، فهو لعلمه بلغات العرب وحفظه للشعر تبوأ مكانة أهلته لدّس شعر من صنعه هو وحسبه على الشعر الجاهلي، أعجز حتى المتخصصين لفرز أصيله من دخيله : "... بأنه لعلمه الدقيق بلغت العرب القدماء...إلاّ النقاد الحذاق، وأين هم ؟!"[3]، فبتأمل هذا الرأي، نجده ينطلي على عجز للوقوف على ما وضع من الشعر، حتى أمام النقاد العرب المتضلعين في علوم اللّغة العربية والعارفين بشؤون الشعر، فما بالك بمستشرق يعترف بعدم بلوغ مرتبة النقد العربي، هذا أولا، ثم أن أحكاما كهذه تلقى على عواهنها، دونما تقديم براهين مقنعة وشواهد من الشعر تبقى ضربا من ركوب الهوى الشخصي ! هذا ثانيا.

أما ما حدث للخليفة المهدى مع حمّاد بشأن الأبيات التي أضافها إلى قصيدة زهير، وبإلحاح من الخليفة، قام يعترف أمامه،هذه مسألة أثارها النقد العربي القديم، وعلى رأسه ابن سلاّم الجمحي، ولم يقدم أهلوارد أي إضافة إلى ما سبق، ويبقى الاختلاف بين الطّرفين، أن الأول توخي الموضوعية والنّظر إلى إشكالها من وجهتها الشمولية، لئلا يصل إلى استخلاصها تؤدي به إلى فرزالإضافة في الشعر الجاهلي ،أما الثاني،أهلوارد توّجه إلى النقد الانتقائي، نحن نراه سلبا، لأنه اجتزأ الرؤية وقصد بعضا منها، لحاجة في نفسه! وهو ما أفضى به إلى التخريج الذي ذهب إليه، بسحب الشك –جله- على كل ما روى حمّاد، من هنا جاءت أحكامه مبتسرة لا تراعي الكلية ولا الموضوعية فيما ذهبت إليه من طرح .

[1] - عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية واللغوية، ص:55.

[2] - نفسه ،ص: 55.

3 -ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، ص : 56.

وبعد حمّاد ينتقل إلى راوية آخر،ألاّ وهو خلف الأحمر،وتبقي الرؤية نفسها يسحبها عليه، يبقى هو الثاني تحت رحمة الشكوك التي وجهها إليه، فبحكم خبرته اللغوية ومقدرته على تقفي أثر النّص الشعري الجاهلي، مما عقد المهّمة لمعرفة المطبوع من المصنوع، من أمثال ◌ِ ◌ِ ◌ِ :عمرو بن العلاء والمفضّل الضبي والأصمعي، وغيرهم من استبانه حقيقة الأمر لتداخل المطبوع والمصنوع إلى حد المطابقة.وتجد أهلوارد هنا لا يتعدى الطرح النقدي الغربي، فضلا على أنه لم يتبع آراءه بشواهد تعزز ما ذهب إليه من قول .ويواصل مع راويتين آخرين، الأصمعي، الذي لم يسلم هو الآخر من أحكام الكاتب، شأنه شأن الرّاوية الذي حاز كثير الثقة في كثير من النقود دون الأدلة ،إلا أنه وباعتراف منه يوضح ببيت شعري[1]، سحب عليه الأحكام السابقة، وهل بإضافة بيت واحد،ذكر باعتراف الرّاوي تكفيرا عن ذنبه، تسلط سطوة الشك على مجموع ما روى ؟ ذلك لعمري هو التعسف بعينه فيما ذهب إليه من رأي، وإلاّ ما حجم دس إبرة في كومة قش ؟!.

ودواعي الشّك، لازال أهلوارد في رحلته السّردية معها ليزيد عليها، النحل يباعث الشاهد اللّغوي، الذي لم يتوفر فاختلق لخدمة الغرض اللّغوي، فإذا وافقناه فهو حاصل في بعض ما ذهبت إليه المدرسة الكوفية، وليس في جميعه أما الأمر يختلف تماما مع المدرسة البصرية التي جاءت نظرتها مؤسسة على الموضوعية والقياس العلمي المحض.

"... وكان في هؤلاء غريزة التحقيق والتمحيص دون الكوفيين"[2].

كما يرّى أنّ الظاهرة الدينية وراء الوضع، فهو يستغرب، خلو الشعر الجاهلي من ذكر أوثان العرب التي كانوا يعبدونها،إنّ الشعر الجاهلي لم يخل فحواه من الإتيان بذكر الجانب الرّوحي والعقدى للإنسان الجاهلي، ففي دراسة حديثة في مجلة عربية للعلوم الإنسانية، للباحث عبد القادر الرّباعي، تحت عنوان :"مدخل إلى دراسة المعنى بالصورة في الشعر الجاهلي،وهو بحث في التفسير الأسـطوري، وتفاعل في حنايا الشعر الجاهلي على ماله صلة بالشاهد اللّغوي جاء عنه:

[1] - وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيبا وأصلعا

[2] - شوقي ضيف ،تاريخ آداب العرب ، العصر الجاهلي ا،ج.1.ص:309.

"ولماّ اشتغل هؤلاء الكوفيون بعلم العربية، وكان في طبعه الشذوذ ...سهّل عليهم قبول الشواذ،ولم يتخرجوا من الصنعة لاستشهاد لأنّ الصنّعة من شذوذ الرّواية أيضا، فزاد ذلك في الشعر عندهم بالحياة الرّوحية في النفس الجاهلية، ومنه الجانب الوثني والدّيني "[1] وفي السيلق نفسه :

"...بأنّ الصّورة الشعرية الجاهلية ،هي ابنة العقلية الجاهلية ذات الإستراتجية، الرّوحية في تعاملها مع الأشياء لذا كانت منابعها هي المنابع الجاهلية التي شكّلت الأصنام الوثنية والشعائر الدينية،ثم الممارسات السّحرية والحكايات الخرافية "[2].

إذن فذكر الأوثان كموضوع في مضامين القصيدة الجاهلية وارد، ولا يحق تمرير عنصر الشّك لغرض الفخر على الجانب الوثني بدعوى تعارضه مع المعتقد الإسلامي، فطرح كهذا يبقى بمنأى عن أسباب الموضوعية. فضلا عن القصور الذي انتاب مثل هذه الرؤية[3].

إن ما ذهب إليه أهلوا رد في انتحال ما أضيف إلى شعر النابغة الذبياني، يبقى من اجتهادات الكاتب نفسه،لأنّ حاجتها ماسّة إلى النّص الذي يكون مرجعية في حال الحسم عند إصدار أحكام الوضع، وهو ما لم يتوفر لدى الكاتب: "إنّ دراسة النّصوص الشعرية تقودنا من جهة ثانية إلى وضع مبدأ يقضي بعدم امتلاكنا أي أثر شفهي في شكله الأصيل المحدّد بدّقة... ونعلم لكي تتم المأساة، أنّ المقلّدات قد امتزجت بالعناصر القديمة التي تختلف تحريفها قله أو كثرة، دون أن تتمكن في كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات"[4].

فجاء ما أشار إليه من إضافات للأغراض التي ذكرها، لا تملك الفيصل بحيث يمكن الاطمئنان إليها.

إنّ مسألة بدايات الشعر الجاهلي ،لا يمكن لنا أن نقف فيها على رأي حاسم، لأنّ الأقوال تضاربت فيها، ولا يمكن الانتصار فيها لواحد على حساب الآخر، إلاّ أنّ هناك

[1] - شوقي ضيف، تاريخ آداب العرب ج.1،ص:308.

[2] -عفيف عبد الرحمن، الشعر الجاهلي، حصاد قرن : ص:255.

[3] - راجع، ديانات الجاهلين الجزآن 5-6 من تاريخ العرب قبل الإسلام وجواد على، بقايا الوثنية العربية،و"لهُوزَرت

[4] -ريجيس بلاشير، تاريخ الأدب العربي : ص:198.

إجماعا شبه حاصل، على شكله وليس تاريخه،فالأوّليات فيه ،كانت مقطوعات تمليها مناسبة من المناسبات .قال ابن سلاّم: "لم يكن لأوائل العرب من الشعر الأبيات يقولها الرّجل في حادثة "[1].

وقال القتبي: "ولم يكن لأوائل الشعر إلاّ الأبيات يقولها الرّجل عند حدوث الحاجة "[2]، نحو : يقول دويد بن زيد بن فهد:

ألْقَى عليّ الدّهر رجلاً ويدًا

والدّهر ما أصلــح يومًا

يصلحـه اليوم ويفسده غداً[3].

والحلقات قد تتسع عند إضافتنا أمثلة أخرى في السياق هذا، فطبقات فحول الشعراء لابن سلاّم، والشعر والشعراء لابن قتيبة، جاءت تعدّد محل الشواهد، وتخرج من ذلك كلّه، أنّ البدايات كانت مقطوعات، يضاف إلى شبه الإجماع السّابق.

البّحر الذي نظمت به هذه البدايات الشعرية، هو بحر الرّجز، فعلا في نصوص شعرية لم تتجاوز حجم العشر أبيات، ويبقى السؤال الذي يفرض نفسه، متى نضجت القصيدة الجاهلية فنيا؟ في خضم تباين كثير الآراء، فنصل من كل ذلك إلى أن ما ضاع من الشعر الجاهلي لاختلاف العوامل وتعددها، يجعلنا نستقر على رأي مفاده ، في أن مسيرة الشعر العربي القديم طويلة، لا يمكن لنا في ظل ما فقد من معطيات تحديد بداية البدايات، قال أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم ممّا قالت العرب إلاّ أقلّه، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير"[4].

والمظنون أنّ البدايات جاءت متعثرة فعبر تاريخيتها الشعرية ، اكتملت حلقات نضجها لتصلنا في شكلها الفنّي الناضج، الذي هو بين أيدينا اليوم فيما اختير إلينا من شعر جاهلي، ولعلّ الصورة التي تقدمه مكتملا، ما عرف اصطلاحا بشعر الحوليات، ليبقى الشاعر زهير

[1] - الزوزني، شرح المعلقات السبع ، ص 7.

[2] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص: 51.

[3] - الزوزني، شرح المعلقات ،ص:8.

[4] - نفسه، ص:10.

بن أبي سلمى خير من يمثله، قال فيه الجاحظ : " من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (كاملا) وزمنا طويلا يرّدد فيها نظره ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه، اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه، شاهد على صحة الشعر الجاهلي فإذا كان ثمة وضع، فهو حشو في تضاعيف النّص الجاهلي لا يؤثر على صحته !

فيجعل عقله َزمًـا على رأيه، ورأيه عيارا على شعره، إشـفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوله اللهّ من نعمته، وكانوا يسّمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات، ببصر قائلها فحلا حينئذ (تاما) وشاعرا مغلقا "[1] نستسقي من هذه المقولة ما بذل من جهد مدة زمنية قد تطول لأجل إخراج القصيدة الشعرية في طبعتها المتكاملة، وهناك من الشعراء من يشارك زهير هذه الخاصية، كما بقي مضمون القصيدة الجاهلية يجثم على صدرها، فهو الذي صار يفرض منهجيته وبقوة على من أراد تقفي أثر الشاعرية العربية، فهو لم يترك كثير الفرص للتملص من سطوته، والخروج عن مألوفه فالصحراء والطلل، والرّحلة والطعينة والوشم والحيوان والزمن والعشق والخلوة والحرب، والكرم[2] . كلّها تداخلت فيما غير ترتيب في هيكل القصيدة لنستنطق بها نحن فحوى ما جاء من شعر يحملها .

أما عن الوحدة العضوية وما لحقها من إختلالات، فالمقصود بها الوحدة النفسية للشاعر كما أسلفنا مع نقد نودلكه وليس كما يتصورها فيلهلم أهلوارد.

ضف إلى ذلك عدم الإحاطة دراسة بنواحي القصيدة الجاهلية، كما ذهب إليه طه حسين، أو الاستسلام لسلطن اختيار الرّاوي، الذي قد يكون ألحق اضطرابات في ترتيب القصيدة الشعرية :"..أنّ الذين ينكرونها إنّما ينكرونها لسببين هما : لعدم دراستهم الشعر القديم دراسة يتعمقون فيها أسراره ومعانيه، ويصدّقون ما يقال فيه من الكــلام، ولأنّهم يقبلون ما يقوله الـرّواة في غير تحفظ ... ولم تحسن الــرّواية، فكثر فيه الاضطراب، وظّن المحدثون أنّ هذا صفة الشعر القديم "[3].

[1] - الجاحظ، البيان والتبيين ج2 ،ص: 09 .

[2] - عفيف عبد الرحمن ،الشعر الجاهلي، حصاد قرن ،ص ص: 235-236.

[3] - طه حسين ،حديث الأربعاء، ج1،ص:33.

وبقي النقد - وان تخصّص- قاصرا اليّوم على فرز كثير من الشوائب علقت بالنّص الشعري الأصيل، سواء أتعلق الأمر بترتيب القصيدة أو بالمستوى اللّغوي الذي يسم النّص بميسمه.

إنّ شعر الصّعلكة، ظّل فعلا ينشئ الاستثناء، فمرده إلى الوقفة التقـليدية للشعراء الجاهلين، تلك الوقفة التي استنطقت الطلـل الدّارس ،في صورة استحضار، الزمن الغائب، وذلك لتعارضها مع النفس الأبية الثائرة، المتمردة على كّـل عرف، من رجل تأبط سيفه، وامتطى، صهـوة جواده ليقيم هو وجماعتـه، الخروج عن طاعة القبيلة، فجاء شعرهم، يجسد هذا الطّيف الاجتماعي بكل تجلياته المضامينية والفنية.

فبرغم ما قيل عن مختارات المفضل الضّبّي، تبقى هي التّي ضمّت العدد الأوفر من القصائد الكاملة، فكانت هذه الأخيرة، هدفا مرسوما فيها،وأنّ ما ورد من مقطوعات شعرية، لم تبتر من نصّها الكلّي، وإنّما قيلت هكذا في مناسبتها الأولى وجاء الاختيار، فيها يخضّع لصنعة الفنية ليس إلاّ، وهو الأمر نفسه ينسحب على الجانب المضاميني[1].

فغدت القصائد في المفضليات تنم عن ذوق أدبي رفيع المستوى : " وأما من الناحية الأدبية فإنّه تتضمن قصائد كاملة، كانت تعد أروع ما في الشعر القديم من قصائد "[2].

إن الخوض في مسألة ما عرف اصطلاحا بالمعلقات يبقي يثير كثيرا من الإشكالات، ما عددها ؟ فالاختلاف حاصل في عددها، فمنهم من يذهب إلى أنها سبعة وأصحابها هم : امرؤ القيس، زهير بن أبي سلمى، النابغة الذبياني، الأعشى ، لبيد، عمرو بن كلثوم وطرفة بحسب رواية أبي عمر أبي زيد القرشي .

وقال المفضل :" هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط، فمن قال أن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة[3]. "أما الزوزني فجاء ترقيمه كالآتي :أمرؤ القيس، طرفة ،زهير، لبيد،عمرو بن كلتوم، عنترة والحارث بن حلزة"[4].

---

1 -عز الدين إسماعيل ، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي ، ص:65.

[2] - نفسه ،ص: 66.

[3] - الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص: 33.

[4] - نفسه، ص: 33.

ثم ينتقل الاختلاف من العدد إلى الشعراء أنفسهم، وهو إشكال ثان وذلك بزيادة عنترة والحارث بن حلزة، وهناك رقم آخر يصل بها إلى العشرة، فزيد على ما ذكر أسماؤهم : عبيد بن الأبرص : " ومن جعلها عشر معلقات أضاف إلى الشعراء الذين ذكرناهم عبيد بن الأبرص "[1].

ولا نحسب أن الرأي الذي ذهبت إليه بعض الآراء، بأنها سميت معلقات، لأنها علقت على جدران الكعبة، أراء استندت إلى الموضوعية أكثر منه إلى الضرب الأسطوري، وأن سبق للعرب الجاهليين أن علقوا مواثيقهم وعهودهم على جدران الكعبة، أما أن ينسب هذا إلى شعر المعلقات، فأمر لا يستسيغه المنطق ولا يصدقه العقل، :" أما ما يقال من أن المعلقات كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة فمن باب الأساطير، وهو في حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقات ..."[2].

كما سميت المذهبات والسموط كذلك ،" وكانت المعـلقات تسمى المذهبات، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر، فكتبت في القباطي بمـاء الذهب وعلقت على الكعبة" فلذلك يقال مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره[3]. كما أطلقوا عليها أسماء المقلدات والطوال.

ففيـما تقدم نجـــد الاختـــلاف طال عددها، فمنـــهم من يذهب إلى أنها، ستـــة وآخرون سبعة، ليذهب فريق ثالث ،على أنها عشرة لينتقل هذا الاختلاف من العدد إلى الاسم، فجاءت تحت عناوين مختلفة : معلقات، طوال، مقلدات ،مذهبات ،سموط .

فمهما يكن من اختلاف في الرقم أو في المصطلح ، تبقى هذه القصائد من نفائس الشعر الجاهلي، التي عدت مرجعيته الشعرية وما تحمله من دلالات من حيث ما هو محتوى أو ما هو فن وطقوس وأعراف اجتماعية، كانت هي الواسطة التي خبرنا بها الشعر الجاهلي، وما أحدثه ذلك من حفر في ذاكرتنا الجمعية .

ويخلص آهلوارد إلى أن الموروث الشعري الجاهلي، يطاله كثير الشك في مستوياته المختلفة : الداخلية والخارجية، إلا أنه يقف مستسلما لتقديم ما يقنع من حجة لتعزيز ما ذهب

[1] – نفسه،ص: 33.

[2] - شوقي ضيف في العصر الجاهلي، ص:140 وشرح المعلقات السبع للزوزني، ص:33.

[3] - الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص:32.

إليه من رأي، لأنه من وجهة نظره يصعب حتى على من تخصصوا من عرب، فهم وجدوا المشقة الكبرى لفرز الدخيل من الأصل في الشعر الجاهلي، ويلجأ الكاتب إلى بعض الحجج منها مثلا : عدم مواكبة الحركة النقدية للرواية الشفوية، والعائق الأكبر يتمثل في اللغة والإحاطة بها، واكتساب الملكة الحسية فيها المفضية إلى ترتيب الشعراء وتصنيفهم وتحديد مشاربهم الأولى وتأطير بيئاتهم ورسم خرائطهم.

تلك عوائق جادة في نظر آهلوارد لنقد رواية الشعر الجاهلي ، برغم ما توفره الدراسات الحداثية اليوم لمتعاملي الحقل اللغوي بشد خيوط التواصل بين الأنسجة اللغوية داخل النص الشعري، الأمر الذي لم يكن متوفرا لدى علماء اللغة المتقدمين الذين غلبوا الشكلي على حساب الجوانب الأخرى، كما اهتموا بما هو جزئي، على حساب ما هو كلي، وهو فعل عمق جراحات آهلوارد الشكلية وأبقى حيرته قائمة إزاء ما ساوره من وضع أو من موافقة القوافي والجرس الموسيقي في أكثر من قصيدة، أو حتى في ترتيب الأبيات والعودة بها إلى طبيعتها الأولى والتعرف إلى أصحابها، نجده معتدلا بعض الاعتدال في بعض ما ذهب إليه من تخريج في تطابق بعض الأشعار، فهو يدفع عنها بعيدا تدني الجانب الأخلاقي والوقوع في السرقات الأدبية. وعدم التحلى بالأمانة العلمية وقبلتـه في ذلك الشاعر المخضرم، حسان بن ثابت.

باعتراف من أهلوارد أن ما توفر لدينا من معطى نقدي لا يفـي بالغرض، وذلك لتناول دراسة النحل في الشعر الجاهلي بشيء من التفصيل. ويخلص إلى أن ظاهرة صحة الشعر الجاهلي، اتخذ فيها رؤية وسطية، فليس الشعر الجاهلي كله منحولا، وفي الوقت نفسه ليس كله صحيحا، آملا في توصل الدراسات المستقبلية في الوصول إلى نتائج تطمئن الدارس !.

هو هكذا آهلواردن بعد رحلته في مختلف محطاتها في دراسة ظاهرة النحـل والانتحال في الشعر الجاهلي، لم يستطع الحسم في كثير من الأمور التي طرحهـا، ويبقى يدور أحيانا في فلك الرواة يسايرهم ، وأحيانا آخري يبقى يخضع لسلطان اللغة وعوالمه المتلاطمة التي تبقى تقذف بكل هاو أنى شاءت أراد الاقتراب منها، فاللغة ككيان وكروح، لم تفتح أبوابها كلها أو بعضها وهو ما طرح كمنغلقات أبقت كثيرا من المساحات يسودها الظلام في فضاءات الشعر الجاهلي .

الفصل الرابع : مرجليوث : الرواية عند مارجليوث .

عرض آرائه : لعل المستشرق مرجليوث(D.S MAROGOLIOTH) من جيل الاستشراق الأول الذي أدلي بدلوه في قضية الوضع في العصر الجاهلي و ذلك في بحثه ، أصول : الشعر العربي تحت عنوان[1]

[1] - مرجليوث د.س (1858-1940)
ولد و توفي في لندن، و قد تخرج باللّغات الشرقية من جامعة أكسفورد، و أتقن العربية و كتب فيها بسلاسة و أقام أستاذا لها في جامعة أكسفورد منذ 1889 فعّد من أشهر أساتذتها و من أئمة المستشرقين، و رأس تحرير مجلة الجمعية الملكية الأسيوية و نشر فيها بحوثا ممتعة، و كان لآرائه قدرا لدى أدباء العرب المعاصرين، و قد تعرف إلى بعضهم في ترددده على الشرق الأوسط و فيهم من ردّ عليه قوله بوضع الشعر الجاهلي في عدة كتب و انتخب عضوا في المجمع العلمي العربي في دمشق، و المجمع اللّغوي البريطاني، و الجمعية الشرقية الألمانية، و غيرها.

من آثاره:

- مختارات شعرية لأرسطو مترجمة بالعربية.
- متى جنّ يونس.
- السريانية و اللاتينية.
- متنا يونانيا و ترجمة انجليزية مع تعليق و معجم في جزأين (لندن 1887، أكسفورد 1991)...

... و كشف وصفي للمخطوطات العبرية و السامرية في المتحف البريطاني بعد عام 1873 (لندن 1899)...

- و رسائل المعري متنا و ترجمة، مع شرح و تذيل، و ترجمة الأعلام (أكسفورد 1898)...
- ترجمة الجزء الرابع من تاريخ التمدن الإسلامي لـ: (جرجي زيدان) (لجنة جيب التذكارية) و معجم الأدباء لـ : (ياقوت الحموي) نسخه و حققه و قدم به الانجليزية، و ذيله فهارس الأعلام و الكتب في 07 أجزاء (ليدن 1907-26) و الطبعة الثانية في منشورات الجنة جيب التذكارية (1923-31، و القاهرة 1907-27)...

ومن مباحثه و تحقيقاته و ترجماته في مجلة الجمعية الملكية الأسيوية :...
أصل الشعر العربي (1911)... أصول الشعر العربي الجاهليى .(1925)

The origins of arabic poetry

B Y D . S. MARGOLIOTHE. G R S . july 1925 PP 417-449.

ناقش المستشرق ال وارد هذا البحث في مفالة ، تحت عنوان :

AHLWARD : " Bemerk Vber die aechth eit

Creifswald . 1872 . , Der altern arabischen Gedichete

كما ناقش مستشرق اخر ، لايل g.lyall ، في مقدمة المجلد الثاني من كتاب المفضليات[1]

و مجمل ما جاء عن مارجليوث في هذه المداخلة، شهادة القرآن بوجود الشعراء قبل ظهور الإسلام:

فجاء يحتوي على سورة تحمل اسمهم، كما أشار إليهم في مواطن أخرى عابرة

وكان من الأوصاف التي نعت بها أعداء الرسول، كونه شاعرا مجنونا " الصافات": 35، و جاء ردّه عليهم أن الله بعثه باليقين، "جاء بالحق"، و في مكان غير هذا "الطور: 39" وصفوه بأنه "كاهن"، أو " المجنون"، " شاعــر"، و من الذين نعتوه بالشاعر قالوا عنه : "لأنه 'شاعر تربص به ريب المنون'" الطور: 30"، مما يفهم منه دأب الشعراء على التنبؤ بالمستقبل كما يوضح في مناسبة أخرى، أن لغته ليست لغة الشعر و إنّما "إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ " (الحاقة: 40-41) كما أنّ لم يعلمه الشعرما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ' (يس: 69)، و منه يستقى غموض القرآن و عدم

[1] د/ يحي الجبوري،ترجمة أصول الشعر العربي، ص 53- ط 1- 1978- مؤسسة الرسالة.

إبانته، و كل ما تقدم من إشارات جاءت تلخصه سورة حملت اسمهم (الشعراء: 224 وما يتلوها)، و فيها جاء يردّ عليهموَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ "، فمن غير المؤكد أن أسلوب القرآن ينسحب على الشعراء واقعيا. و مما فات، نستنتج الآتي : "تنزل الشياطين على الشعراء، لأنها تنزل على كل أفاك أثيم". (الشعراء 26) تبلغه - في أغلب الأحايين- الكذب و الشائعات، و هو ما تتضمنه تقاليد و صفات نسبت إلى الشياطين (الصافات10) من استراق السمع مما في السماء مما جعل العقاب ينزل عليه، شهب ترجمه ترجمهم و هو ما له صلة عضوية بين الشعراء و بين التنبؤ.

فإذا كان القصد نفسه بما تعلق بالشعر القديم، فالإشكال الذي نصادفه، يتمثل في أنّ محمدا الذي لم يكن يعلم ماهية الشعر، فهو في الوقت نفسه اهتدى إلى أنّ ما يوحى إليه ليس بالشعر، على نقيض احتمالية معرفة المكتبين للشعر عند سماعه أو رؤيته، زعما منهم من أنّ الوحي شعر. و كان يجب أن يخلص إلى عكس هذا، فكان لنا استنتاج معرفة الشاعر -غالبا- المادة موضوعه، أكثر منها بجانبها الصياغي فالمفترض،أنّ نطاق الخلاف في عدم الاطراد الأسلوبي، بل هو ما يظهر في طبيعة المادة المؤداة ومع ما تؤديه العبارة :" و ما علمناه الشعر"، فهذا يستوجب على وجه الإلزام أوفر نوع من الديباجة الشعرية، التي يجب تعلمها. فأسلوب الآية الأخيرة يبدي و بوضوح تباين شكل عن آخر.

و يبقى أن الملكة تحتل مكانة مميزة، مما جاء في زعمهم أن القرآن شعر و هو زعم مردود، و مما يبرره غياب الصنعة الشعرية، إنّه ليس ببعيد عن المواجهة التي كانت هناك فكان حريا بها أن لا تكون، بل هو أمر تتوق إليه أنفسهم، إلاّ أنّ صياغة عدميته كانت حاضرة.

و ما ورد من نصوص استشهادية من أفكار لاحقة استشهادية تجسد حيز التطابق النسبي مع ما يلحق من أفكار، فالشعراء ينقضون عهودهم، لإعلان القرآن كذبهم بحكم طبيعة مهنتهم[1].

فهم لم يقفوا عند حدّ أنّ الجنّ يمدهم الإلهام، بل تجاوزوا ذلك إلى استطـــاعتهم تسمية هؤلاء الملهمين المتسترين[2] وهكذا فإنّ تعبير: "في كـل واد يهيـــمون"، فأغلبية توظيفها مجازا؛ فبمعنى أنهم يقحمون مخيلتهم :"أنهم يعملون خيالهم في كل الموضوعات بدون تميز"[3] و اتفاقا مع هذا فإنّ معظم القصائد تبدأ بموقف غزلي غرامي فيه يفعل الشاعر ما وصف. و في بعض الحكايات يصور النبي أنه يكشف عن جهل تام بفن الشعر[4].

الأولى بباطن الإنسان أن يملأ بأي شيء ما عدا الشعر[5]، و رغم ذلك فقد نسبت إليه أشعار، حيث يكون في بعض الأحيان ناقدا أو راويا له[6].

و النقوش التي تعود إلى ما قبل الإسلام، و التي نمتلكها الآن مكتوبة بعدة لهجات، ليس فيها شيء من الشعر، و هذا أمر يستدعي الوقوف عنده، خاصة فيما يتعلق بالنقوش على المقابر، لأن معظم الأمم تدخل الشعر في الكتابات التي من هذا النوع، مثلا النقوش اللودياوية التي اكتشفت حديثا نجد مجموعة كبيرة منظومة شعرا[7].

---

[1] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين، ص: 89.
[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[3]- المرجع نفسه الصفحة نفسها.
[4] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني ،الجزء 13، ص: 64.
[5] - مسند ابن حنبل، ج 2 ، ص:331 .
[6] - تلبيس إبليس ، ص : 240.
[7] -المشهورون باسم شبون ثلاثة، امالوديا بإقليم في آسيا الصغرى.

لا يمكن أن نستنتج من النقوش العربية أنه كان لدى العرب أية فكرة عن النظم أو القافية، على الرغم من أن حضارتهم في بعض النواحي كانت متقدمة جدا ، فإن كان القرآن ينظر إلى الشعر على أنه شيء يحتاج إلى تعلم، فمن المعقول أن نفترض أنه يشير إلى تلك الصنعة التي تستلزم العلم بالأبجدية، يمكن القول، أنه قبل ظهور القرآن، كان بين العرب بعض الكهان المعروفين بأنهم شعراء، و من المحتمل أن لغتهم كانت غامضة، كما هي الحال في ألوان الوحي.[1]

فإن دقة أقوال هؤلاء الأشخاص، لابد أنها كانت موضوع شك إلى حد يبرر وصفهم بما وصفهم به القرآن.

لكن نظرة الشاعر الجمّاع للشعر القديم: أبي تمام، في بداية القرن الثالث الهجري، إلى الشعر القديم يختلف عن هذا كل الاختلاف، فهو يقرّر بعبارات غامضة، لأنها لا تختلف عن تلك التي استعملها هوراس. [2]

إنّ أمجاد العرب الأوائل لم يحفظ منها إلاّ ما سجل في القصائد، و أن هذه القصائد، هي التي حافظت على ذكر المعارك و جلائل الأعمال، بل وسميت (ملكا محدودا)، و هذه العبارة معناها أن القبيلة التي يظهر بها أبرع الشعراء تسيطر على القبائل الأخرى إلى حدّ ما.[3]

و تبعا لهذا فإن الشعراء ليسوا كهانا ينطقون بوحي غير مفهوم، بل هم مسجلون للأحداث، التي تمكنهم من تخليد ذكراها، و يتفق معه في هذه النظرية الجاحظ البصري.[4]

---

[1] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين،ص: 91.
[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - ديوان أبي تمام،ص :83- بيروت- س 1889.
[4] - الجاحظ ،البيان و التبيين، ج 2، ص : 184.

و ليس من السهل التوفيق بين هذه النظرية و بين أقوال القرآن، إنها تنطبق تماما على ديوان أبي تمام نفسه، ففيه يخلد مغامرات ممدوحيه مثل غزو المعتصم لعمورية. [1]

هنا لا نرى أن الشعراء "يقولون ما لا يفعلون"، بل على العكس يفترض أنهم يسجلون ما فعلوه في الواقع أو ما شاهدوه.

لكن الأثر بين المسلمين، الذين بدؤوا عملهم، حوالي نهاية العصر الأموي، ليس فقط يقررون وجود هذا القسم من الأدب القديم، في بلاد العرب قبل الإسلام، بل يدعون تقديم قطع كبيرة منه إلى الناس.[2]

و هناك سبب يدعو إلى الظن بأن أولئك الذين بدؤوا بتقديمه، قد صادفوا بعض الشك من جانب الناس، فلما قدم الخليل بن أحمد (المتوفى سنة 170 هـ) نظام العروض الذي طرح بأنه استمده من القبائل العربية، فإن أحد معاصريه ألف كتابا نسبت فيه أن هذا النظام كله وهم.[3]

ليس من الواضح متى بدأ العرب في نظم الشعر ، فبعضهم يرجعه إلى آدم [4] و البعض الآخر يدعى تقديم قصائد في عهد إسماعيل. [5]

قد استقر الرأي العام أن الشعر العربي على الشكل الذي استقر عليه فيما بعد بدأ قبل ظهور الإسلام ببضعة أجيال قليلة.[6]

---

[1] ـ د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات مستشرقين، ص: 92.
[2] ـ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[3] ـإرشاد الأديب لياقوت، ج 2، ص :366.
[4] ـ مروج الذهب للمسعودي، ج 1، ص: 65.
[5] ـ الأغاني، ج 13، ص: 104.
[6] ـ دراسات المستشرقين، ص: 93.

يوافق الأب شيخو [1] على الرأي الذي أورده صاحب الأغاني [2]، و مفاده : "بأن المهلهل أخا كليب. و قد ازدهر حوالي سنة 531 م، و وصف بأنه أحد مفاخر بني بكر من وائل [3]، كان أول من نظم القصائد الطوال و أدخل فيها الغزل".

ليس من الواضح، ما هو المقصود بالقصيدة الطويلة ?، ربما قصد بها تلك التي تزيد عن عشرين بيتا، لأنه نسب إلى البرّاق- و شيخو يجعل تاريخه سنة 470 م [4]، الذي قيل أنه كان أول من نظم قصيدة طويلة في بحر الرجز، و مع ذلك فإن عالما كبيرا أكد، أنه أول من نظم قصيدة طويلة، هو العجّاج الذي عاش في العصر الأموي، و من ناحية أخرى ، هناك روايات عديدة تؤكد أن أول الشعراء هو امرؤ القيس، و زمانه متأخر قليلا عن زمان المهلهل [5]، كذلك يقال أن أعشى قيس كان أول من تكسّب بشعره، بيد أن عبيد الأبرص كان أسبق من الأعشى بوقت طويل [6]، حيث كان أستاذا في هذا اللون.

فإن عدنا إلى الرواية التي تنسب إليه، أنه أول من نظم القصائد، فلابد من الإقرار بأنه وجد مقلدين له عديدين، لأنه لدينا صفا هائلا من المجلدات التي تحتوي على الأعمال المجموعة لعدد كبير جدا من الشعراء الذين ينتسبون إلى الفترة التى تفصل بين تقصيده القصائد، وبين الهجرة و أصحاب المعلقات العشر

[1] - شعراء النصرانية، ص: 160.
[2] - الأغاني، ج 04، ص: 148- س 11.
[3] - المرجع نفسه ، ج 20، ص: 15- س 67.
[4] - دراسات المستشرقين، ص: 94.
[5] - الأغاني،ج 11، ص: 154.
[6] - د/عبد الرحمن بدوى ، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي ،ص:94.

المشهرون كلهم لهم دواوين [1]. لما كانت هذه القصائد تستلزم بطبعها معرفة بالأبجدية، و كثيرا ما نشير إلى الكتابة.[2]

أول سؤال ينبغي طرحه هو لو افترضنا، أن هذا الأدب صحيح، فكيف حفظ؟ فلابد أنه قد حفظ إمّا شفاها، أو كتابة، و قد أخذ الرواة العرب بالفرضية الأولى، لقد روي عن الخليفة الثاني -عمر- أنه قال: "إنه على الرغم من أن الشعر الجاهلي، قد أهمل في الأيام الأولى للإسلام، و في سنوات الفتوح، لما استقر الوضع و عاد السلام، عاد المسلمون إلى دراسته، و لم يكن لديهم كتب مكتوبة أو مجاميع يمكن الرجوع إليها، و لما كان معظم العرب الذين اعتنقوا الإسلام قد قتلوا أو ماتوا موتا طبيعيا ، فقد ضاع معظم الشعر، و لم يبق منه إلاّ القليل".[3]

إنّ نسبة هذا القول إلى الخليفة عمر خطأ تاريخي، لأن زمان الهدوء لم يأت إلاّ مع خلافة الأمويين - معاوية- ؛ أي بعد وفاة عمر بثلاثين سنة. القرآن يقرر، أن الذين يتبعون الشعراء غاوون، فكان هناك إذن سبب قوي لنسيان الشعر الجاهلي، لكنه كان هناك سبب آخر من المحتمل أن يؤثر بقوة، ذلك بأن الوقائع التي خلدتها القصائد، كانت عبارة عن انتصارات في الحروب بين القبائـــــل و الإسلام، والحق أن أمثال هذه القصائد تميل إلى النسيان إلاّ إذا سجلت كتابة.[4]

[1] - مجموع أشعار الهذليين ، ص : 95.
[2] - دراسات المستشرقين ، الصفحة نفسها .
[3] - السيوطي ، المزهر،ج 1، ص: 121.
[4] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين، ص: 97.

أما بالنسبة للفرضية الثانية، و هي أن تكون القصائد قد حفظت كتابة، فإذا اعتبرنا أن هذه القصائد، يسطع نورها على العالم [1]، فإن احتمـال تسجيلها كتابة، يصبح احتمالا قويا جدا، وهنا يلاحظ أن الإشارات إلى الكتابة وفيرة جدا في هذا الأدب [2]، حتى أن أحد الشعراء الجاهليين في مجموعة أشعار الهذليين يتوق إلى أن ترسل إليه. [3]

الواقع أنه يروى، أن بعض الأشعار العربية كانت مكتوبة بخط كاتب يدعى "قيسبه" بالخط الحميري على ظهر سرجه. [4]

و الملك الحميري ذو جدن، الذي اكتشفت عظامه هائلة الحجم، في صنعاء، كان على رأسه لوح فيه نقش بنثر مسجوع، بالعربية الفصحى، و لكن بحروف حميرية [5] و من المحتمل جدا أن يكون قد أمر بكتابة أشعاره.[6]

و الشاعر الجاهلي لقيط نظم قصيدة، ليحذرهم من حملة تأديبية سيقوم بها ضدهم ملك فارسي. [7]

غير أن وجود أدب جاهلي قديم بلغة القرآن مكتوب بالقلم الحميري ، يبدوأنه يتعارض تعارضا صارخا مع أقوال القرآن، حيث لا يمكن الإقرار بهذا الوجود [8] إنّ القرآن يسأل أهل مكة "أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ " (القلم 37)، و يتساءل يتساءل عن معارضيه: "أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ " (القلم 47)، و لقد جاء القرآن لينفي "وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا

[1] - الأغاني، ج 12،ص: 123.
[2] -المعلقات،ص : 67.
[3] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين،ص : 98.
[4] - نشرة كوز جارتن، ص: 13- س 6.
[5] - الأغاني،ج 20، ص 8، س 13.
[6] - المرجع ، ج 04، ص: 37.
[7] - المرجع ، ج 12 ،ص: 112.
[8] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين، ص : 99.

مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ "[1] ، إن أمّتين فقط اليهود والنصارى ،هما اللّذان أوتيا الكتاب ، أما الوثنيون فلم يؤتوا أي كتاب[2]. فإن كان الشعر الجاهلي مكتوبا، كان عند الوثنيين وفرة من الكتب، التي يفترض القرآن قطعا أن الجواب عنها سيكون سالبا.

إن عملية التطور الأدبي تسير عادة من غير المنتظم إلى المنتظم، فالأدب اللاتيني يبدأ مما يسميه هوراس، فجر زحل الشعري[3]، ثمّ استخدمت البحور الشعرية اليونانية.

والأساليب العربية سواء منها النثــر أو الشعر ذات شبه بأسلوب القرآن، و في القرآن أمثلة كثيرة من أوزان الشعر. [4]

إذا كان القرآن أول عمل في اللّغة العربية يكشف عن فن أدبي، فإن دعواه إعجاز فصاحة ستكون أمرا يمكن أن يفهمه الناس بسهولة.

أما إذا كان السامعون قد تعودوا من قبل على النثر المسجوع و الشعر المنمق الذي يتجلى في الأعمال الأدبية الجاهلية المكتوبة، فيكون من الصعب إثبات صحة تلك الدعوى على الأقل.[5]

و قدم من قادم (400-470 م) في القصيدة المنسوبة إليه يسبق إنذارات القرآن في كثير من التفاصيل، و يدعى أنه دعا قومه إلى الدين بالمعنى الإسلامي.[6]

---

[1] : سورة القصص ، الآية 16 .
[2] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين، ص : 99 .
[3] - بحر شعري لاتيني قديم يتصف بالخشونة و الغلظ.
[4] - النحو العربي تأليف رايت، ج 2، ص: 359.
[5] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين، ص : 100.
[6] - جريبقني- قصيدة قدم سن قادم- روما- سنة 1918.

لكن ما نريد أن نبينه، هو أن أولئك الذين اعتقدوا في وجوب مثل هذا الأدب المكتوب، كانوا أقل استحقاقا للتصديق بكثير من النبي.[1]

قبل أن يصدق الروايات التي تدور حول الشعر العربي المكتوب بحروف حميرية فإنه من المرغوب فيه أن نرى بعض النماذج منه.

في تاريخ الإسلام نلقى أخبارا عن مجلدات مكتوبة من الشعر قبل النثـــــر، فالطبري يذكر أن شخصا وجد في سنة 83 هـ في قلعة قائمة في الصحراء كربان مجلدا مكتوبا فيه شعر أبي جلدة اليشكري، و قد كتبه أحد الكوفيين. [2]

القاضي أبو يوسف، يذكر من بين الأشياء، التي لا عقوبة على سرقتها في التقاضي العادي القرآن و الأوراق المكتوب فيها أشعار[3]، و يذكر أبو يوسف: أن أبا حنيفة، هو الذي أفتى بهذه الفتوى، و أبو حنيـــــفة توفي في سنـــــة 150 هـ ، و يروي الطبري، أنه بعد هذا التاريخ بقليل، أمر الخليفة المهدي بجمع مجموعة من الشعر العربي [4]، مما أدى إلى إنتاج كمية كبيرة من الشعر الجاهلي الجاهلي مع الرغم أن مصادرهم كانت وثائق مكتوبة. [5]

[1] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين، ص: 101.
[2] - أبو يوسف، كتاب الخراج، ص : 105.
[3] - تاريخ الطبري- ج 2،ص841،ص: 21.
[4] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين ، ص : 102.
[5] - روتشتين- دولة اللخميين- سنة 1899.

و حماد الراوية [95-155 هـ] ،هو واحد من الرواة الذين نفعوا الجماعة؛ بمعنى أنه قام بتقديم شعر قديم لهم، حيث يزعمون أنه أكد أن النعمان اللخمي [602-850 م] [1]، أمر بنسخ أشعار العرب في الطنوج [2]، فكتبت له ثم دفنها في قصره الأبيض بمـــدينة الحيرة، وحينما دخل المغامر المختار بن أبـي عبـــيد، الكوفة في سنة 65 هـ أخبروه أن في القصر كنزا، فأمر بالحفر عنه و عثر على هذا المجموع من الشعر.

إن الغرض من هذه الرواية ،هو تفسير أنه كان يعرف الكثير من القصائد الجاهلية التي لم يعرفها احد غيره، و في كتاب الأغاني اتهام له بالانتحال دون حياء [3]،

و معاصره المفضل الضبي يتهمه بأنه أفسد الشعر إفسادا لا إصلاح معه.[4]

ورواة الكوفة تمسكوا بصحة أشعار من المعروف، أن حمادا نظـمها و نسبها إلى شعراء متقدمين، و كان يسامر بها خالد القيســري، والي الكوفة[5]، و يروى ياقوت عن النحاس (توفي سنة 331 هـ)، أن المعلقات السبع جمعها حـــماد هذا،وبودنا لو كان اكتشافها قد تم على يدي شخص آخر أدعى إلى الدقـــــــة و الاحترام. [6]

[1] - ابن جني ، الخصائص ،ج 2 ، ص: 303، القاهرة سنة 1914.
[2] - ترجمها ابن جني على أنها تعني الكراريس.
[3] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني ،ج 5 ، ص : 172، ط 1- ص : 163- ط 2.
[4] - المرجع نفسه ، الجزء نفسه ، الصفحة نفسها ،
[5] - أبو فرج الأصفهاني ،الأغاني، ج 13- ص: 4 .
[6] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين، ص: 103.

و نأتي راوية الشعر القديم في الكوفة، هو جناد[1]،و كان كحماد كثير الرواية قليل المعرفة.[2]

و قد سئل أحدهم، و هو برزخ و كان معاصرا لحماد و جنّاد، عن أي سند روى بعض أشعار نسبها إلى امرئ القيس ?، قال: أنه رواها عن سنده هو، و هذا في نظره كاف.[3]

و بعد حماد لوقت قصير كان خلف الأحمر المتوفى 180 هـ، و عنه أخد أبرز الرواة ، و قد أورد ابن خلكان عن أبي زيد أنه أذاع في الكوفة قصائد منحولة، بوصفها قصائد قديمة، و أصابته علّة، فاعترف بجريمته لأهل الكوفة [4]. و من معاصريه، أبو عمر بن العلاء المتوفى سنة 154 هـ، و هو من أعظم الرواة، و قد اعترف أنه دسّ بيتا من نظمه في قصيدة للأعشى و الأصمـــعي[5] و هو تلميذ لخلف الأحمر، و ذكر عن رجل اسمه كيسان أنه كان يذهب إلى البدو و يسمع منهم القصائد ويكتبها على ألواحه لم ينلها محرف إلى مذكرة لم يغير فيها من جديد قبل أن يحفظها، و بالرغم من ذلك فإن الأصمعي كان يعده جيد الرواية.[6]

و الجمّاع الكبير، أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة 205 هـ، كان يملك مجموعة صغيرة من الكتب، بل أن هذه المجموعة الصغيرة نفسها لم تكن خالية

[1] - ياقوت، إرشاد الأريب، ج 2، ص: 366.
[2] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين، ص : 104.
[3] - ياقوت- إرشاد الأريب، ج 2، ص: 366.
[4] - د/ عبد الرحمان بدوي ، دراسات المستشرقين، ص : 104.
5- أبو فرج الأصفهاني ،الأغاني ، ج 3 ، ص: 23.
6 - ياقوت، إرشاد الأريب، ج 6، ص: 215.

من المنحولات، فمؤلف الأغاني ينقل عن أحد كتبه قصيدة طويلة لشاعر جاهلي، و يصرح بأنه من الواضح أنها منتحلة في العصر الإسلامي.[1]

و يمكن أن يضاف إلى هذا أن رأي هؤلاء الرواة الكبار بعضهم في بعض لم يكن حسنا فإن الأعرابي كان يسيء الرأي في الأصمعي و أبي عبيدة على السواء.[2]

و مستوى القرن الثالث الهجري لم يكن- فيما يبدو- أفضل من مستوى القرن التالي، فهناك حكاية عن المبرد، و هو راوية من نفس العصر، إنه في مرة أخرى اخترع بعض الناس، كلمة و بعثوا بها إليه ليسألوا عن معناها. فأجاب من غير تردد أن الكلمة معناها (قطن) و استشهد على ذلك ببيت من الشعر، و نال صنيعه هذا إعجاب من سألوه بغض النظر عن كون جوابه صحيحا أو غير صحيح.[3]

لقد بقي لدينا مجموعة من أشعار الهذليين وكان يظن أن هذه القبيلة أعظم القبائل حظا من قول الشعر.[4]

و النحوي أحمد بن فارس من القرن الرابع الهجري، زار هذه القبيلة في منازلها فلم يجد أحدا من أهل هذه القبـــيلة يعرف اسم واحد من هؤلاء الشعراء، و السكري الذي جمع ديوان الهذليين عاش قبل ذلك بقرن من الزمان، و في عصر أبي بكر و على الرغم من أن أسماء الشعراء كانت معروفة فقد كان هناك ارتياب كبير في نسبة هذه القصائد[5].

---

[1] - أبو فرج الأصفهاني ،الأغاني، ج 13، ص: 4.
[2] - ياقوت الحموي، إرشاد الأريب، ج 7، ص: 5.
[3] - السيوطي ،المزهر ، ج 2، ص : 242.
[4] - ياقوت الحموي - الإرشاد، ج 2 ، ص: 8.
[5] - أبو فرج الأصفهاني ،الأغاني، ج 20، ص : 19.

الشاعر نصيب بدأ في الشعر بنظم أبيات نسبها إلى أفراد مشهورين في قبائل حمزة بن بكر بن عبد مناة و خزاعة، فلما نالت هذه الأبيات إعجاب رؤساء هذه القبائل استشعر نصيب الثقة بموهبته الشعرية[1]، لكن إذا كان إعجاب زعماء هذه القبائل حقيقيا، فمن المحتمل أن الأبيات نالت الاستحسان بوصفها من نظم شعراء قدماء.

و بالمثل فإن الشاعر ابن الزبير، أخا عبد الله بن الزبير المنافس للخليفة الأموي قيل عنه: أنه نسب أشعاره هو إلى عمر بن أبي ربيعة.[2]

و يضاف إلى هذا، أن الخلفاء و غيرهم قد شجعوا المنتحلين تشجيعا كبيرا فإن المفضل الضبي و حمّاد الراوية حين عملا للمهدي على النحو الذي وصفناه سابقا، فإن أولهما حصل على جائزة الأسنى و حمّاد نال جائزة سنية هو الآخر و هارون الرشيد عرض عشرة آلاف درهم لكل من ينشد قصيدة للأسود بن يعفور.[3]

و في مناسبات أخرى كان الاستعداد لإنشاد قصيدة يطلبها الخليفة مؤديا إلى رفع الراتب فورا.[4]

و نظرا لفساد ذمة من ينشرون القصائد على الناس، فإن أحجامها كانت تختلف كثيرا فصاحب الأغاني يورد قصيدة لذي الأصبع في ستة أبيات ثم زيدت إلى اثني عشر بيتا، ثم ينتهي بنا الأمر إلى أن نجد تسعة عشر بيتا.[5]

---

[1] - المرجع نفسه ، ج 1: ص: 126.
[2] - المرجع نفسه ، ج 13، ص: 102.
[3] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين، ص: 108.
[4] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 11، ص : 129.
[5] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين ، ص : 109.

إذا أقررنا، أن بعض الرواة كانوا ذوي ذمة ووازع، و أنهم لم يصنعوا شعرا، فإن هذا يعود بنا إلى السؤال عن مصادرهم. لقد كانت رسالة محمد تتضمن قطعا للصلة بالماضي، فمن كل أجزاء شبه الجزيرة ترك الناس منازلهم ليستقروا في مناطق لم يسمعوا عنها إلاّ قليل منهم.[1]

و موقف الإسلام اتجاه الوثنية لم يكن موقف تساهل و تسامح، بل كان موقف عداوة بالغة الشدة، فإن كان الشعراء هم ألسنة أحوال الوثنية فمن هم الأشخاص الذين حفظوا في ذاكرتهم و نقلوا إلى غيرهم تلك المؤلفات؟. الحل الذي أوجده حمّاد الراوية، هو أن القصائد بقيت مدفونة طوال السنوات التي كانت فيها الحماسة للإسلام في أوجها ثم استخرجت من دفائنها لما فترت هذه الحماسة.[2]

إن الإشـــارات إلى الديانة في القصائد الموجودة إلينا، نادرة فأحد الشعراء يخبرنا أن ديانته تتفق مع ديانة قوم آخرين[3]، لكنه لم يخبـــرنا بماضي ديانـــته ، و ربما هذا ما دعا إليه الأب لويس شيخو إلى نظريته القائلة: بأنهم كانوا جميعا من النصارى، وهذه النظرية ليست صحيحة، فالنصارى أينما كانوا معظم كتبهم مقدسة،ولغتهم و فكرهم ، متأثـــران كثيرا بعبارات الأنـــــــاجيل، و رسائل الرسل (الحواريين) و شعرهم يتخذ في الغالب شكل الأناشيد، لكن في الشعر الجاهلي، هناك فقر شديد في الإشارات إلى كتب النصارى المقدسة، و النظم المسيحية، حتى عند أولئك الشعراء الذين يفترض، أنهم ازدهروا في بلاطات الأمراء و الملوك النصارى[4]، على الرغم، من أن

[1] -المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] - عمرو بن قميئة- ج 2،ص: 9.
[4] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين، ص : 111.

شعراء الجاهلية كثيرا ما يقسمون، فيكاد قسمهم أن يكون بالله دائما، و آراؤهم في أفعال الله ،هي مم لا يستطيع مسلم أن يرفضه، و الله يقبض الدنيا و يبسطها[1]، و طلب اللعنة يكون باسم الله[2] ،هو رب الناس [3] الحق ،أن الدين الوحيد الذي يمكن أن ينسب إليه هؤلاء الشعراء هو الإسلام ؛لأنه من النادر جدا أن يذكروا إلها غير الله[4]، بل يبدو، أنهم على معرفة وثيقة بأمور يؤكد القرآن العرب لم يعرفوها قبل أن يخبرهم بها.

الشاعر عنترة العبسي، و ديوانه يملأ 274 صفحة، من الواضح أنه عرف ما نزل به القرآن و خصائص الإسلام قبل ظهور الإسلام. فهو يعرف كيفية الصلاة في الإسلام من ركوع و سجود[5]، و كذلك يعرف الأسماء القرآنية للنار (الجحيم، جهنم، و الاسم الذي يطلقه القرآن على يوم الحساب).[6]

كما نجد في بعض دواوين الشعراء الجاهلين اقتباسا واضحا من القـــرآن، فعبيدة الأبرص، و قد عاش قبل ظهور الإسلام ، يتحدث بلغة قرآنية عن متاع الدنيا[7]. و ذو الأصبع ، و هو شاعر جاهلي يقتبس من القرآن: "تريدون عرض الدنيا"[8]. كذلك نجد كلمة الدنيا في معلقة عمرو بن كلثوم. كما أن هؤلاء الشعراء يستشهدون بإرم وعاد و ثمود[9]، غير أنهما يردان مقترنين في

---

[1] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 3، ص :9.
2 - ديوان عبيد ابن الأبرص ، ص : 68 .
[3] - الأغاني ، ج 11 ، ص : 132.
[4] - ديوان عبيد بن الأبرص ، ص: 13 .
[5] - ديوان عنترة ، ط القاهرة، ص ص: 101- 154.
[6] - القيامة، ص: 83-247، المحشر، ص : 127.
[7] - ديوان عبيد بن الأبرص، ص :80 .
[8] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 3، ص : 9.
[9] - المرجع نفسه ، ج 11، ص :61.

في القـــرآن، و حتى المـــهلهل، و قد ازدهر قبل النبي بمائة سنة سبق عصـــــره و يقتبس من القرآن:

نعي النعاة كليبا لي فقلت لهم مالت بنا الأرض أم دامت رواسيها.

و هذا القول مأخوذ من الآية 15 من سورة النّحل:وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ".

يرى بعض النقاد المسلمين ، أن استعمال البيتين للقرآن في هذه القصائد مبالغ فيه، فالمطهر بن طاهر، و هو من القرن الرابع هجري، يلاحظ أن زيد بن عمر بن نفيل، و هو جاهلي دعا إلى التوحيد في مجموعة من الأبيات، تتعلق بموسى و هارون، وعلاقتهما بفرعون.[1]

و أمية بن أبي الصلت الذي يستعمل في التعبير عن يوم الحساب تعبيرا موجودا في القرآن[2]. و الشاعرة الخنساء تعرف (الزبانية)، و هو اصطلاح قرآني[3]. و حاتم الطائي، و هو نصراني يعرف التكبير الإسلامي (الله أكبر).[4]

إن هؤلاء الشعراء الجاهليين يتكلمون مثل المسلمين، موحدين توحيدا صارما، و كلما ظهر صدى في كلامهم لكتاب مقدس وجدنا صدى القرآن، فإنه من الصعب جدا أن نؤمن بصدقهم.[5]

إن آراء الشعراء الجاهلين في الموضوعات الدينية، يبدو أنها تشـبه، أو هي بعينها الآراء التي يدعو إليها القرآن.

---

[1] - د/عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين ، ص : 117.
[2] - كتاب البدء و التاريخ، ج 2، ص : 145-(يوم التغابن: سورة التغابن).
[3] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 4، ص : 136.
[4] - نشرة شولتس، Schulthers، ص : 51.
[5] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين ، ص: 118.

و ثم خط ثان للبنية الباطنة، و هو اللّغة، فكل هذه القصائد نظمت بلغة القرآن، فإذا افترضنا أن فرض الإسلام على قبائل شبه الجزيرة العربية، قد وحد لغتهم، لأنه زودهم بنموذج لسلامة اللّغة لا نزاع فيه، و هو القرآن ،.و لكن من الصعب أن نتصور وجود لغة مشتركة قبل مجيء الإسلام. فلابد أنه كانت بين القبائل المختلفة اختلافات واضحة في النحو و الألفاظ. المجموعة التي جمعها الأب شيخو، تبدأ بشعراء جنوبي الجزيرة العربية ولغتها ،هي لغة القـــــرآن[1]،و في داخل جنوبي الجزيرة العربية نفسها جاءت النقوش بلهجات عديدة، و هي لا تفهم إلاّ بصعوبة. و مع ذلك فإن الرواة المسلمين حين يروون أشعارا لأحد ملوك حضر موت، وهو الذي نظمها بنفسه، فإنها مع ذلك بلغة القرآن، و من المفروض إن شعبه يفهمها.[2]

في هذه الأحوال قليلون ،هم الذين يشكون، في أن هذه الأشعار منحولة[3]، و أن الأخبار المتصلة بها خرافية على أقل تقدير. و مؤلف الأغاني و هو أحيانا يمارس النقد، ينقل عنهم دون ارتياب فيهم أو تشكيك من المحتمل أن يكون فعل ذلك عن حسن نية.[4]

لمّا كان الإسلام قد نشأ في الحجاز، فقد كان من المتوقع أن يكون المسلمون على علم بتاريخ هذا الجزء من الجزيرة العربية أكبر من علمهم بالجنوب، و الواقع أن علمهم بالجنوب أكبر، لأنه حدث في الجنوب أحداث ذات أهمية أكبر بالنسبة إلى شبه الجزيرة، مع ذلك فإن معرفتهم بجنوب الجزيرة

[1] - المرجع نفسه ، ص: 119.
[2] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني،ج 11، ص : 125.
[3] - المرجع نفسه ، ج 20 ، ص : 8.
[4] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين، ص: 119.

العربية كانت من الغموض بحيث نسبوا إلى ملوك الجنوب أشعارا مكتوبة بلغة نحن نعلم بشهادة النقوش أنها لم تكن لغتهم.[1]

فإذا انتقلنا إلى الوثائق الشعرية، فيمكن أن نقف على الغرض القائل: أنها إما ترجمت، أو حولت تدريجيا من مرحلة اللّغة إلى مرحلة أخرى في الشعر العربي، حيث الصناعة أشد تعقيدا مما هي عليه في أي أسلوب آخر، فإن هذه العملية ستكون مستحيلة.

يمكن أن نلاحظ أن الداخلين في دين الإسلام، قد ولوا ظهورهم لديانتهم القديمة، فإن الناس في الجزيرة العربية قد فعلوا بالمثل، فولوا ظهورهم للغاتهم و للهجاتهم القديمة، كما أن وجود أفكار إسلامية في أعمال واضحة الوثنية هو دليل واضح على أنها زائفة منحولة.[2]

هناك خط ثالث للبيئة يوجد في محتوى القصائد، إذا كانت القصائد -عادة- تبدأ بالغزل، إذا كانوا يمضون بعد ذلك إلى وصف أسفارهم و ركائبهم، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الإطناب في وصف أفعالهم و إنجازاتهم، و غالبها يتنافى مع الأخلاق[3]. فإننا نستطيع على الأقل، أن نقتفي إلى منبع هذا الرتوب التي دعا بعض النقاد إلى القول: بأن كل ما يهم في القصائد ،هو اللّغة ، لأنها جميعا تكرر نفس المعاني[4].

صحيح أن القصائد تبدي عن معرفة رائعة بتشريح الفرس و الجمل ربما بعادات و حيوانات أخرى. و لكن هذه الأمور كما نعرف درسها اللّغويون، كما

---

[1] - المرجع نفسه ، ص: 120.
[2] - المرجع نفسه ، ص: 121.
[3] - المرجع نفسه ،ص : 122.
[4] - ابن رشيق، في كتابه العمدة.

درسها الشعراء لكننا لا نستطيع أن نذكر بدقة شاعرا كلاسيكيا كان إنتاجه أساسا للتربية و كان نموذجه مثالا ينبغي على طالبي فن الشعر أن يحتذوه.[1]

وفي معظم القصائد المنسوبة إلى الشعراء الأوائل، ما يعرف بقصائد المناسبات و يتم فيها تسجيل تجارب لا تهم إلاّ أصحابها وحدهم، و قد اشترك أشخاص عديدون في هذا المجال، و إذ كان ما يرويه الراوي شيئا يتخذ شكل حوار أي سلسلة يرد فيها الشاعر على الشاعر، فإن احتمال أن يكون الكل مخترعا يصير احتمالا قويا جدا.[2]

و افتراض الاختراع يفسر أيضا الأحوال التي فيها الأخبار المربوطة بالأشعار تناقض التجربة. فمؤلف الأغاني الذي يروي عددا من الأبيات المرتجلة في منافسات شعرية، اشترك فيها النابغة الجعدي و العجـــــــــاج و الأخطل.[3]

يقدر أن هذد النابغة، لابد أن سنه كانت آنذاك 220 سنة، ويعلن رضاه عن هذه النتيجة، إذا كان الشخص الذي روى ذلك بنية حسنة، هو نفس مصدرنا الأساسي عن تاريخ الشعراء، فلن نتهم بالمبالغة في الشك فإن كانت لدينا مجموعة الأشعار التي جمعت، بأمر الخليفة المهدي، لكننا واثقون أن هذه القصائد كانت موجودة في عام 158 هـ. وإذا بدا الجامع لها شخصا ناقـــــدا و صادقا إلى حد معقول، فإننا كنا نستشف فيه لو أخبرنا أنه جمع مادته من وثائق أسبق بكثير من ذلك التاريخ. و إذا كنا نجد مؤلفنا بدلا من أن يعتمد على مواد مكتوبة، يعتمد على نقل شفوي طوال مدة لابد أن يكون قد نسي فيها كل ما

[1] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين، ص : 122.
[2] - المرجع نفسه ، ص : 123.
[3] - أبو فرج الأصفهاني ،الأغاني، ج4، ص ص : 129- 131.

كان حفظه، فإننا نستطيع أن نتأكد تأكدا مضاعفا أن أقوال هذا المؤلف لا ينبغي أن نثق فيها في أي موضوع كتب أو روي.[1]

إذا كان الشعر الجاهلي مشكوكا فيه لأسباب خارجية و باطنية على السواء، فإننا نعود إلى بداية الشعر العربي.

من ناحية، يبدو لنا أن ثم استمرارا، فشعراء العصر الأموي، يتلون شعراء عهد النبي و صحابته، و هؤلاء الآخرون يتلون لشعراء الجاهليـــــــة و بعض الدواوين المبكرة، مثل ديوان حسان بن ثابت، مادح النبي، يوحي بالقليل من الثقة، لكن سيكون من الصعب زعزعة صحة دواوين شعراء العصر الأموي، و من هنا فإن الفرض القائل بأن العرب ألفوا قصائد هو فرض ذو إغراء.[2]

و من ناحية أخرى، فإنه إلى جانب خلو النقوش من الشعر، فإننا نلاحظ أن القرآن لا يشير إلى الموسيقى أدنى إشارة. [3]

و كلمة رتل في القرآن لا يمكن معناها يغني؛ لأنه يوصف بها الوجود الإلهي، و لابد أن معناها تقريبا: رتب و المزامير.

و الواقع أن كتاب الأغاني يذكر تواريخ إدخال الموسيقى في الجماعات الإسلامية، و هذه التواريخ ترجع بنا إلى العصر الأموي، إذ نذكر أن المغنية رانقة أدخلت الغناء في المدينة، حوالي ذلك الوقت [4] و مع ذلك توجد دعاوى أخرىن و أقوال صاحب الأغـاني هذه تتفق تماما مع الظاهرة التي لاحظنـــــاها، و هي الخلو من الإشارة إلى الموسيقى في القرآن.

---

[1] - د/ عبد بدوي ، دراسات المستشرقين، ص: 124.
[2] - المرجع نفسه ، ص: 125.
[3] - هناك ثلاثة آيات نفترض أنها تسير إلى الموسيقى (الإسراء 22، لقمان 5، النجم 21).
[4] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 3، ص: 84.

لكن إذا كانت موسيقى، إنما أدخلت في العصر الأموي، و هل نستطيع أن نتصور أن الوزن الشعري قد وجد عند العرب من قبل ؟. [1]

ووجود القرآن، و هو يحتوي على مبادئ أولية للنثر المسجوع و للوزن من شأنه أن يفسر نمو كليهما، فيما أدخلت نظرية و ممارسة الموسيقى، و إسقاط الفن على العصر الجاهلي، لن يكون أمرا غير مفهوم، و لغة القرآن صارت لغة البلاط و من ثم نشأت مهنة شاعر البلاط، و المدائح في ذلك العصر نظمت في بحر الرجز؛ و هو وسط بين الشعر و النثر، و هو أقل البحور فنية، و تبدو من العجيب أن تكون قصائد طويلة قد نظمت في الأوزان الأصعب من الرجز في عصر أقدم.[2]

البينة التي أمامنا، تبدو كافية لاعتبار كل الشعر الجاهلي مشـــــكوكا فيه، و ربما أيضا كل الشعر السابق على العصر الأموي، هل نستطيع أن نصدق أن البدوي غير متحضر كان عنده شعر على النحو المتضلع الذي نسبه إليه الرواة المسلمون ؟.

الاحتمال الأرجح، هو افتراض أن الشعر و النثر المسجوع مستمدان كلاهما في - الغالب - من القرآن.

و مؤلف سفر (الحكمة)، واضح وضوحا أكثر من اللازم حين يقول: "أتى يصير حكيما (و الكلمة اليونانية يمكن أن تترجم يصير شاعرا) من يمسك بالمحراث و كل مجده في المنحاس، و لا يتكلم إلاّ عن القطيع، و من الواضح أن هذه هي حال أصحاب المعلقات، مع إجراء التعديلات المناسبة"[3].

[1] - د/ عبد الرحمن بدوي ، دراسات المستشرقين، ص: 126.
[2] - المرجع نفسه ، ص: 127.
[3] - المرجع نفسه ، ص : 128.

إذا كان الموقف الأكثر حكمة تجاه مسالة ما إذا كان الشعر العربي، يرجع إلى أقدم الأزمان، أو هو متأخر عن القرآن ?، هو تعليق الحكم، فالسبب في هذا، هو الطابع المميز البينة التي أمامنا، و يمكن الاعتماد على القرآن، فيما يتعلق بأحوال العرب الذين نوجه إليهم في زمان النبي، أما فيما يتصل بتاريخ الشعـــر العربي، فعلينا أن نلجأ إلى مصادر أخرى. معظمها يعالج أزمنة و أحوالا ليست لهم خبرة بها.[1]

نقد مرجليوث:

إن علاقة مرجليوث بظاهرة الانتحال في الشعر الجاهلي قديمة، تتجاوز زمنا ما ورد في تضاعيف أحكامه في بحث أصول الشعر العربي بتاريخ خمس وعشرين و تسعمائة و ألف. فالبدايات كانت جاءت مع تحقيق كتاب: (إرشاد

الأريب) المعروف بمعجم الأدباء لياقوت الحموي ، فكان يتوخى مما وصل إليه من تناقض بشأن رواية الشعر الجاهلي قبل الوصول لدراسة ما لها وما عليـــها، فبدل الوصول إلى دراسة موضوعية مال إلى شطط الحكم وتعسف الرأي حتى أنك تجده يقحم الانتحال إقحاما في مواضيع لا صلة لها بالوضع أو حتى بالشعر نحو مقالته عن (محمد) في دائرة معارف الدين والأخلاق.و الشأن نفسه عند إصداره كتابا تحت عنوان (محمد و ظهور الإسلام)،

[1] - المرجع نفسه، ص : 129.

.Mohamed and the rise of islam، المطبوع سنة 1905. [1]

ففي حديثه عن لغة القرآن الكريم، وقف على أوجه الشبه فيها وبين اللغة الموظفة في الشعر الجاهلي الذي ارتأى أن غالبه موضوع، - والحال كذلك- فلا يحق للعرب الاعتداد بالشعر العربي قبل الإسلام.[2]

فمنطلقات مرجليوث تأسست خطأ ،على أن القرآن الكريم نزل بلغة لم يعهدها العرب من قبل، فزعم كهذا مردود على صاحبه، فلا يصدق عقل مخاطبة الله - عز و جل- عباده، و نقصد به مخاطبة العرب بلغة لا يفهمونها، ومحكم التنزيل نص على : " إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون".3

أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون".4

فهدف التبليغ لا يتم هو إلا بواسطة لغة مفهومة و متداولة عنـــــد القوم.

و نضيف إلى ما تقدم بحثه الموسوم بـ (الشعر المحمول على السموأل)، نشره بين سنتي 1906- 1907 في مجلة الجمعية الملكية الأسيوية، و في عام 1911 واصل كتاباته ينشر في المجلة ذاتها، موضوعا بعنوان (أصل الشـــعر العربي)، و هو موضوع يختلف عن أصل الشعر العربي الذي نحن بصد مناقشتـــه. كما كتب عام 1916 بمجلة الجمعية الملكية الأسيوية في صفحة 397 ، يناقش فقرة من كتاب (الخصائص) لابن جني تتحدث عن شعر يمدح النعمان تم اكتشافه عهد المختار الثقفي، و اتكأ مرجليوث في خبره هذا على أن مصدر روايته، هو حماد الراوية المتهم بالتزيد في الشعر الجاهلي، مطلقا العنان

[1] - د/ يحي الجبوري، ترجمة أصول الشعر، مؤسسة الرسالة ، ط 1- ص: 18.
[2] - المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] - سورة يوسف ، الآية 02.
[4] - سورة يوسف ، الآية 02.

واسعا لعبارته المشهورة: "إن هذه القصة تدق مسمارا في نعش الشعر العربي القديم"، كما ذهب إلى أن القصائد التي دونها ابن إسحاق في السيرة النبوية، قد وضعت وضعا لأجل هذا الكتاب، أما غير هذا من الشعر الجاهلي الذي يرويه أهل الكوفة فقد كان من تلفيق خلف الأحمر".[1]

فالأبحاث التي شكلت مدار اهتمامه حول ظاهرة الانتحال يجمـــعها كلها و يعيد إنشاءها، تحت عنوان (أصول الشعر العربي)، و ينشرها في مجلة الجمعية الملكية الأسيوية، سنة 1925. و منه نصل إلى أن بدايات اهتمام مرجليوث بالنحل و الانتحال في الشعر الجاهلي، احتلت حيزا زمانيا لا يستهان به في حياته الفكرية و التأليفية ، و أن علاقته بالشعر الجاهلي، ليست- بأية حال- تبتدئ بـ :"أصول الشعر العربي"، كما سبقت مناقشته، و نعني بـ: الشعر الجاهلي، ظاهرة الشك كجانب هي ما يغذيه عند المستشرق مارجليوث على امتداد ربع قرن، (و لذلك فإن صلة مرجليوث بقضية الشك في الشعر الجاهلي قديمة، رافقته طيلة حياته العلمية و استغرقت ربع قرن)[2].

فإن ما قاله مرجليوث: في إنكاره الشعر الجاهلي كله، يقوم على ركائز هي:

- حفظ الشعر يتم بإحدى الطريقتين: إما الكتابة أو الرواية الشفوية. يذهب النقاد إلى أن الرواية أسهمت في عهد الإسلام الأول في الحفـــــاظ عليه و الفرضية هذه مستبعدة لتعليلات ذكرها:

أ- إنكار وجود الرواة المختصين الذين يقومون بهذه المهمة.

[1] - د / يحيى الجبوري ، ترجمة أصول الشعر العربي ، ص : 18.
[2]- المرجع نفسه ، ص :19.

ب- ضرب الإسلام صفحا عما قبله، و هو ; أي القـــرآن جاء يذم الشعـــراء، و هو برأيه من العوامل الأولى لتناسي الشعر، إن حصل له وجود أصلا.

ج - تغني الأشعار بمضامين مثيرة للعداوة، و هو ما رفضه الإسلام، مما دفع إلى الازورار عن كل ما هو شعر.

تبقى الاحتمالية الثانية، و التي تبدو في اتخاذ الكتابية منهجا لتناقل موروث الشعر العربي، و برغم اعترافه بثبوت جانب الخطية قبل ظهور الإسلام، فهو ينكر دور المكتوب لعاملين اثنين:

1. جاء القرآن ينفي امتلاك الجاهلين كتابا. و دليل ذلك يتجلى في عدم اتصالنا بكثير من الكتب في المضمار هذا.
2. طبيعة التطور تقتضي الانتقال من الساذج إلى المنتظم، و ما وصف من شعر جاهلي يعبر في ذاته عن تبعية للقرآن، لأن هذا الأخير وردت بعض تعابيره أسجاعا، كما جاءت الآيات بعضها موزونة، مما يستوجب الإقرار بتطور الشعر في القرآن و لا يرتب أبدا زمانيا قبله.

إن الإسلام كمنعرج حاسم في حياة المسلمين، فهو يعبر عن القطيعة الماضوية، فهو الذي دحض الوثنية في جميع أشكالها ،إلا أن الشعر رفدت تضاعيفه هذه الوثنية فالإشكالية التي تطرح نفسها في الصدد هذا ، فكيف يفهم حفظ شعر برز يناقض رؤية الإسلام؟ ليعود في الأخير أدراجه بأن هؤلاء الشعراء كانوا مسلمين قبل ظهور الإسلام !. [1]

ثم ينتقل ليسرد براهين تدل على الشك في الشعر الجاهلي، هي أدلة داخلية:

[1] - المرجع السابق ، ص ص: 20-21.

1- جاء الشعر الجاهلي يشير إلى قصص، ورد ذكرها في القرآن و بعض كلماتها إسلامية، إن الشعراء لا يعبرون عن الدين في الجاهلية وجود الآلهة المتعددة منعدمة فيه، بل أكثر من ذلك فروح التوحيد بادية، مما دفع بالأب شيخو إلى تصنيفهم نصارى، الشعراء هؤلاء يحلفون بالله الواحد كالمسلمين و بالنعوت التي ورد ذكرها في القرآن، ذلكم، أي شعراء عقيدتهم الوحدانية عارفون بأمور لم يفصح عنها إلاّ القرآن الكريم.

2- كما يقدم حجة ثانية تظهر في اللّغة، فلهجات القبائل جاءت تتعدد لاختلاف بين لغة القبائل الشمالية و الجنوبية، يبدو واسعا، إلاّ أن الشعر جاء تعبيره كله على منوال بيان القرآن. فاللّغة لم يكن استعمالها واحدا قبل ظهور الإسلام. فصنيع الرواة جعل لغة الشعر واحدة كما أصبغوا عقيدة الوحدانية عند الشعراء المبعدين عنهم نزعة الشرك.

3- إن الجانب المضاميني للنص الشعري يكاد يكون واحدا مكرورا، و هو ما ينم على أنها نشأت زمانا بعد القرآن و ليس قبله، فشعرهم مبدوء بالغـــــــزل، فالقرآن يصفهم بأنهم في كل واد يهيمون و الغاوون يتبعونهم. ثم يظهر حديثه فضفاضا في صورته الهلامية، على أن القرآن لم يتطرق إلى الموسيقى، فهي من مخترعات العهد الأموي، فالإشكال القائم ،هو في معقولية وجود الوزن عند العرب قبل الإسلام، و أن الترتيب الطبيعي يفرض التراتبية الآتية: الرقص ثم الموسيقى فالشعر، و أن الوثائق العربية التي اتخذت النقش تعبيرا لها تنم عن حس حضاري، إلاّ أنها تخلو مما هو شعر، فلا يعقل امتلاك الأعرابي شعرا متطورا لم يصل درجته حتى المتحضرون منهم، ليصل إلى محصلة

مفادها، أن كل ما هو شعر و نثر مسجوع، فمصدره القرآن و أن كل صنيع في المجال هذا تقدم القرآن وجب عدم التطاول عليه فنيا.

إن ما ذهب إليه مرجليوث في تضاعيف هذه المقالة، يبين عن كثب مجانية الحقائق التاريخية، و ما يعزز ما ذهبنا إليه من رأي ،هو امتعاض المستشرقين -بعضهم-، و ذلك عبر ردودهم النقدية التي جاءت تفند مزاعم لا تقوى صمودا أمام المحك النقدي، قلت: المستشرقين- بعضهم-؛ لأن النقود العربية لازالت في هذا الوقت لم تبلغ حد التبلور، و هذا عائد إلى أحد العاملين الآتيين :

أ- عدم الاتصال بكتابات مرجليوث و إن تم، فهو لم يحصل إلاّ في عهد متأخر.

ب- عدم امتلاك ثقافة نقدية تحيط بجوانب الشعر مجتمعة ترشح لنقد موضوعي.

و لعلّ من تبوأ ردا نقديا مؤسسا لدحض ميولات مرجليوث ،هو المستشرق (جيمس شارلز لايال [1]، في مقدمته لكتابه الجزء الثاني من المفضليات سنة: 1918، ففيها أجرى مناقشة، لما طرحه مرجليوث من أفكار لها صلة بحماد الراوية و خلف الأحمر، و لما لهذه المناقشة من أهمية وجب

[1] - ليال السير شارلز، جيمس تخرج في كامبردج، و عمل في الهند (1867-1898) و رأس ديوان الهند في لندن (1898-1910). و درس العربية و أتقنها، و عني بشعرها الجاهلي عناية خاصة، فطار له في آرائه ذيع واسع، و كان من الرعيل الأول الذي أخذ على عاتقه خوض الدراسات 1- الشرقية في وطنه طيلة خمسين سنة ، كما أسهم إلى جانب غيره في رئاسة تحرير مجلة الجمعية الملكية الأسيوية، فحبّر كثيرا من الجوانب الشرقية في دائرة المعارف البريطانية.

من أهم آثاره شرح المعلقات السبع للتبريزي (1881-1924) كما ترجم الشعر العربي القديم و الشعر الجاهلي (لندن 1885) و دواوين عبيد بن الأبرص و عامر بن الطفيل بشرح الأنباري متـنا و ترجمة، (لجنة جيب التذكارية في مجلدها 21، عام 1913، و عمرو بن قميئة -كمبردج 1919- و المفضليات للمفضل الظبي، بشرح الأنباري متنا و ترجمة و فهارسة في ثلاثة أجزاء -المطبعة الكاثوليكية 1934/1931- و الوصف في الشعر الجاهلي -1912- و الشعر الجاهلي مرجع للمعلومات التاريخية -1914- وصلات الشعر الجاهلي بالأدب اليهودي و التوراة -1914-).

الوقوف عند بعض محطاتها. فلايال ينطلق من رواية ابن الأعرابي، حول المفضل الضبي، و التي مفادها: "لقد سلّط على الشعر من حمّاد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدا، فقيل له: و كيف ذلك؟، أيخطئ، في روايته ؟، أم يلحن ؟. قال: ليته كان كذلك!، فإن أهل العلم يردّون من أخطأ إلى الصواب، لا، و لكنه رجل عالم بلغات العـــــرب و أشعارها و مذاهب الشعراء و معانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل و يدخله في شعره، و يحمل ذلك عنه في الآفاق فتخلط أشعار القدماء، و لا يتميز الصحيح منها إلاّ عند عالم ناقد و أين ذلك؟".[1] فهو يرى؛ أي لايال أن مصدر هذه الرواية، و هو ما يسرب إلى الذهن إضافات أضيفت إلى الرواية الأصلية، فالانطلاق من فرضية أن المفضل ،هو راوي هذه الرواية، فبإمكانه، هو و بحكم تضلعه في الثقافة الشعرية التي تؤهله لفرز ما هو دخيل من الأصـــيل، كما أنه بإمكان الرواة العرب- بعضهم- التوثيق لمصادر أشعارهم ،ليطلع عليها المفضل الضبي صافية من كل شائبة." ... و أن الرواة العـــــرب، و منهم حمّاد قادرون على الإفصاح عن مصادر أشعارهم، و نقلها إلى المفضل قبل أن يتسرب إليها الفساد".[2]

و يضيف لايال فرضية التجوز بقبول ظاهرة الانتحال، فإن هذا المذهب يذهب بنا إلى تصور أن هذه الإضافات أضيفت كلها إلى اللّغة و العاطفة الشعرية إلى النص الأصيل، حتى إنك - والحال كذلك- تقف عاجزا على الوقوف لفرز النص الزائف من الحقيقي، فأمام هذا الموقف تطرح الإشكالية الآتية نفسها بإلحاح، و التي تتـــمثل في كيف يمكن لنا الوصـول إلى الزيادات؟، فهو أمر لا يتوافر إلا عند من اتصلوا بالنص الشعري في طبعته

[1] - أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 6، ص : 89.
[2] - لايل، مفضليات، الترجمة العربية ، ص : 20.

الأصلية، خال من كل شائبة، و قبل أن تمتد إليه يد الانتحـــال، نفترض أن هذا لا يتاح إلاّ للخاصة من أولي الدراية و المعرفة و منهم المفضل الضبي.[1]

و من المشاهد التي وقف عليها لايال في رواية الأغاني تتعلق بحمّـــــــاد و المفضل في المجالس العلمية التي كان ينشئها الخليفة المهدي بقصر (عيسباذ) عند إطّلاع المهدي انتحال حمّاد فحينها أمر بإذاعة كذب حمّاد في رواية الشعر، وصدق المفضل الضبي في روايته[2]. فلايال و بعد استقراء لهذه الرواية يركن إلى محصلة مفادها، اتصاف هذه القصة بالدقة و الملاحظة، فهي تورد أن الخليفة المهدي، و بعد تداول القصة هذه من أكثر من مصدر، زد على أن قصر عيسباذ قد تم بناؤه من قبل المهدي و هو خليفة، فإن الريب في حيثيات هذه القصة يكمن في أن حمّادا قد كتبت له الحياة حتى سنة 158هـ،

و في السنة هذه أصبح فيها المهدي خليفة، فابن خليكان و ابن النديم على التوالي كل منهما ذكر أن حمّاد توفي سنة 155 أو 156 هـ، زد على ما تقدم، هو أن الأبيات المعنية بالإضافة، و التي جاءت تتضمن وصفا عاديا، مع العلم أن القصائد الجاهلية بالمئات عرفت هذا الاستهلال[3].

أحالتنا هذه الأشعار القديمة على مسميات لأماكن تفضي إلى الجغرافيا التي يرجع لها أصل الشاعر على إثر ذكر الأسماء السالفة، فمنه تعد زيادة الأبيات- بعضها- في نتف شعرية للشاعر زهير بن أبي سلمى فهي بمثابة مقطع من مقدمة نسيبية تكاد تكون نادرة فعمل كهذا ليس من الأهمية بمكان يحاسب عليه حمّاد حسابا عسيرا.فضلا على أن دسّ مثل هذه الأبيات الشعرية لا يرقى إلى المهارة في الانتحال.

---

[1] - د/ يحي الجبوري ، أصول الشعر العربي، ص : 23.
[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[3] - يقصد بهذه الأبيات ما جاء مطلعه (دَعْ ذا وَ عِّد القول في هرم).

و نجد لايال يواصل حديثه عن راوية خلف الأحمر لنعته باعتلاء مكانة سامقة في حاضرة البصرة كمتضلع في شؤون الثقافة الشعرية و مرجع إليه، يعزى الفضل كمصدر من مصادر استقاء الحجة، و هو يتبوأ المكانة نفسها التي كان عليها حمّاد في حاضرة الكوفة، و يقول: "لا شك أن المنافسة بين تينك المنزلتين العلميتين قد قادت بصورة طبيعية إلى اختلاف الأخبار و الروايات التي كانت مدعـاة للطعن في أصالة كل منهما، و كما اتهـم حمّاد بالفســـــاد و الاختلاق فكذلك اتهم خلفا".[1] ليتقدم بعد ذلك لايال بالحديث عن حمّاد و خلف في علاقة الرواية الشعرية و طبيعتها: "إنه من الخطأ البين أن يعد هذان الرجلان مثالا نموذجيا للرواة المحترفين بالنسبة للشعر القبلي، فكلاهما فارسي و أن رواة قبائل العرب صرحاء، يختارون بواسطة الشعراء أنفسهم ليكونوا واسطة لحفظ تراثهم الشعري و خلدوه في ذاكرة القبيلة خاصة، و العرب عامة. و أن المدونين و جامعي الشعر العربي القديم في القرنين الأول و الثاني الهجريين قد جمعوا حصاد شعرهم عن طريق أولئك الرواة".[2]

و يواصل لايال قائلا مبديا رفضه إزاء أفكار مرجليوث: "إن إصدار حكم كما فعل أحد الباحثين المعاصرين"[3] مفاده ،هو: أن الشعر العربي الجاهلي كله منحول بناء على روايتي كل من حمّاد و خلف، و هو الأمر الذي يدفع بنا إلى إنشاء رأي مخالف تمام الاختلاف لكل ما ورد من فرضيات تأسس عليها هذا الحكم. فكل من حمّاد و خلف، جاءا يقلدان أسلوبا شعريا ثبت وجوده قبل ظهور

---

[1] - لايل- المفضليات، ص: 24.

[2] - د/يحي الجبوري ، أصول الشعر العربي، ص: 24.

[3] -. يشير إلى مرجليوث في مقالة له في مجلة الجمعية الملكية الأسيوية سنة 1916- ص: 397- و مقالته (محمد) في معلمة الدين و الأخلاق المجلد الثاني- ص 874- و قد أصدر حكما غريبا في هذه المقالة سنة 1905- ص 60- بأن الشعر الجاهلي في جملته مختلق موضوع يحذو حذو أسلوب القرآن .

الإسلام، و تأليفه جاء من قبل المسلمين و من يخالفونهم هذه العقيدة، ليعتنقوا الإسلام لاحقا، فنظم هذا الشعر جاء على سبيل الوفرة و شهد قسط منه جانب الخطية وقعه شعراء القرن الأول الهـــجري بعضهم، كـ: جرير، الفرزدق ، الأخطل، و ذي الرمة، و الإماءة في هذا الصدد كان معيارها وفرة الإنتاج الشعري.[1]

يقول لايال: "إن سلسلة الرواية سليمة و أن آخر طبقة من الشعراء كانوا قد عاشوا و نظموا الشعر في الوقت الذي كان فيه العلماء مشغولين بجمع الشعر و تدوينه، و يستبعد جدا أن تكون مسالة الانتحال قد ظهرت بالنسبة لهم، كما هي الحال بالنسبة لرواتهم الذين كانوا قد تعودوا كتابة القصائد المروية لهم لنشرها و الاحتفاظ بها، أما بالنسبة للشعر الجاهلي فمن الممكن جدا أن يكون كلّ من حمّاد و خلف قد حاكى ذلك الشعر و قلده، بيد أن حقيقة المحاكاة ذاتها تتضمن وجود النص الأصلي (كي يحاكى و يقلد) و الدعوة التي تذهب إلى أننا فقدنا النص الأصلي القـــــــديم و احتفاظنا بنسخة المحاكاة منه فقط، لهي دعوى في مثل هذه الحالة، تفتقر إلى المتانة حتى بالنسبة لرأي عامة الناس".[2]

و يخضع لايال اختبار الشعر للمعيار فيذهب بالقول: "أما الذي يجب أن نستخلصه من الروايات التي قيلت في حماد و خلف، ليس هو أن القصائد التي وصلتنا على أنها قديمة يجب أن ترفض على أسس قديمة سابقة على أنها موضوعة أو مختلقة، بقدر ما يجب أن نفحصها و ندققها بإمعان نظرا مع كل الأدلة التي تعاصرت معها و خصوصا بالنسبة إلى أغراضها، أســـــــلوبها و خصائصها الفردية، لنرى بعد ذلك التدقيق و الفحص إذا كانت موضوعة

[1]- د/يحي الجبوري ، أصول الشعر العربي- ص:25.
[2] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

مضطربة في عدد أبياتها من حيث التقديم و التأخير، أو مختلفة معها كانت وجهة النظر الخاصة بذلك".[1]

و يعود ثانية لايال ليطرق موضوع صحة الشعر الجاهلي وما يتضمن ذلك الطرق من ردود على مرجليوث ، حول ما قدمه في ديوان عبيد بن الأبـرص، و يفضل في السياق هذا اقتطاف نصه حرفيا لما احتواه من أدلة بيّنة ؛ لأنه كان في مجال الدرس و التحقيق لدواوين الشعراء الجاهليين، مما أهله إلى تشكيل صورة مكتملة بعيدة عن ضروب الاحتمالية، يقول لايال: "أما موضوع صحة هذا الشعر، فأمر من الطبيعي أن يختلف فيه الناس، إذ من المؤكد أن شعر الأعراب في الجاهلية العربية لم ينتقل بالكتابة بل الرواية، و كانت القبيلة تعد القصائد إلى تسجيل انتصاراتها أغلى ما تملك ، فكانت ترويها جيلا بعد جيــل، و بالإضافة إلى هذه المعرفة العامة المنتشرة في القبيلة، كان هناك الراوي و عمله أن يحتفظ بمذخور الشعر الذي تعيه ذاكرته، و كان يعتني

خاصة بالذاكرة، في العصور التي تستخدم فيها الكتابة، إلاّ في المدن و لأغراض عناية كبيرة، بحيث كانت أكثر قدرة على الاستيعاب، منها في العصر الحديــث و ليس من الغريب أن تتناقل القصائد بهذه الطريقة قرنين أو ثلاثة".[2]

و طبيعي جدا أن نتصــور أن القصائد هذه طيلة هذه المسيرة الزمنية الطويلة أن يلحقها التغيــير أثناء هذا التداول، فقد تحتــل مترادفة مـكان الأخرى ، كما قد يتم إسقاط بعض الأبيات جراء ضعف الذاكرة ، أو قد يطال التبديل في التـــــرتيب، أو إقحام الراوي لشخصه عند إصابته بنوبات النســـيان، و عمل

[1] - الرجوع إلى مقالة لآيل المشار إليها فلأنها نفيسة في هذا الباب- ص ص: 19-29- ترجمة عناد غزوان- و لقد لخص أهم أفكارها قبل ذلك الدكتور ناصر الدين الأسد في مصادر الشعر الجاهلي- ص ص: 368 -372.

[2] - د/ يحي الجبوري ،أصول الشعر العربي، ، ص : 26.

كهذا يبدو مشاعا في الأوضاع نفسها. و عند امتحان النصوص الشعرية نفسها نقف فيها على حضور الشاعر الواحد، و هو ما يؤهلنا إلى استنتاج ،أن القصائد جلّها صحيح سندها. فالمعلقات السبع على سبيل التدليل، تحيل على ملامح لشخصية خصائصها مميزة و واضحة، فهي تتناول سبع شخصيات تختلف تميّزا عن بعضها، و الحكم ذاته ما نجده في القصائد الثلاث الباقية (الأعشى، النابـــــغة و عبيد) التي أضافها النقاد بعضهم إلى زمرة المعلقات، فكان لشخصيات لكل من: امرؤ القيـــس، زهير و لبيد، النـــابغة و الأعشى في طبع الأشعار بطابعها، ومن شطط الرأي أن نذهب، إلى أن جلّ هذه القصائد التي نسبت إليهم كانت موضوعة من قبل غيرهم جاءت تختلف في الأسلوب الحياتي عمّا ألفه عرب الصحراء.

و هناك داع ثان يدفع بنا إلى الاعتقاد بفرضية صحة الشعر العربي في معظمه، كما يؤول ذلك إلى التفكير، بأنه جاء تاليا لشعر سبقه. فشعراء القرن الأول المشهورون، أمثال: الفرزدق، جرير، الأخطل و ذو الرمة، يتقفون آثار الشعر الجاهلي، دون أن نلمس هوة تباعد بينهم، علاوة على أن أشعارهم جاءت تذكر أعلام الشعر الجاهلي. فالشاعرية الجاهلية وردت مكرورة، تتناول المضامين عينها و بالصياغة ذاتها. و هو ما يبعد دائرة الشك من أن ما وصلنا من الموروث الشعري الجاهلي العربي لفترة ما قبل الإسلام جاز لنا التسليم بصحته، فقد تميز العصر الذي عاشوه بعصر تدوين الشعر، دونما غياب الرواية الشفوية التي لازالت فاعلة إلى جانب هذا التدوين.

كما أننا نضيف سببا ثالثا إلى ما تقدم من عوامل، و هو ما تجسد في محمول الشعر الجاهلي لألفاظ غريبة استعصى فهمها على من تناول من العلماء في التجربة النقدية الأولى، فظهرت اللّغة على صلة بزمن يتقدم. فهي لم تكن

متداولة في عصر الجمع و التدوين، و هو ما فسرته مرجعية الشروح القديمة و التي عدة مصادر استقت، منها المعاجم مفرداتها. فعلماء اللّغة اعتمدوا تذليل الصعب، و تقويض أركان التباين باعتماد صيغ بديلة لافتقاد لغة التداول في عصرهم إلى مثل هذه البنائية، فأضحى الشعر القديم و القرآن و الحديث منهلا أولا في إثراء مشارب المعاجم، و منه التسرب إلى أذهاننا صحة الشعر الجاهلي بالدرجة نفسها مع صحة القرآن و الحديث.[1]

إلى جانب لايال، هناك مستشرق أخذ على نفسه ردّ الحجج و القرائن التي خمّنها مرجليوث، ونعني به جورجي ليفي دلافيدا في ثنايا بحث له تحت عنوان: (بلاد العرب قبل الإسلام)[2]. فالدكتور ناصر الدين الأسد في هذا البحث العلـــمي، يؤصل للرواية الشفوية، و يفند مزاعم كل من مرجليوث و طه حسين، قائلا: "إن جماعة من العلماء المعاصرين يشكون شكا عميقا أساسيا في الرواية العربيـــة، و يذهبون إلى أن أكثرها موضوع زائف، و أنها تمثل الاتجاه الذي نما في القرنين الثاني، و الثالث الهجريين، حينما نسي العرب ما كانوا يذكرونه عن التاريخ الجاهلي، فحاول اللّغويـــــــــون و الإخباريون أن يملاوا الفجوات و ذلك بأن وضعوا و زيفوا ما لم يجدوه في الوثائق الأصلية الحقيقية، و من أجل ذلك يرون أن الأدب التاريخي العربي ليس أوثق من القصص التاريخية و أن أكثر الشعر موضوع فليس من المستطاع اتخاذهما أساسا سليما ينبني عليه فهم صحيح، لما كان يحدث في بلاد العرب في العصر

[1] - مقدمة ديوان عبيد بن الأبرص، ص ص: 17- 19- و مصادر الشعر الجاهلي- ص ص : 372-374- و ترجم حسين نضار مقدمة لايل في طبعته لديوان عبيد بن الأبرص سنة 1957.

[2] - د/ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية ، ص ص : 374-376.

الجاهلي"[1]. فقام جورجي ليفي دلافيدا ينشئ الخطاب الذي يدحض فيه هذه الظنون فيقول: "و هذا الموقف المتشكك مبالغ فيه، فإن الرواية التاريخية عن بلاد العرب في عصورها الوسيطة (الجاهلية الأخيرة) ليست أوثق، و لا أضعف، من أية رواية أخرى عن الجاهلية العربية في القرنيين الثاني و الثالث الهجريين ؛لأن المؤلفات كثيرة ضاعت، و لم يبق من بعض الكتب الأخرى، غير قطع و مختارات".[2]

و يقول عن طبيعة الرواية العربية[3]: "إن أكثر الروايات ذات جانب واحد، فبدلا من أن ترمي الرواية التاريخية إلى التسجيل الشامل للماضي، أصبح لها ثلاثة أهداف: تقديم تفسير لإشـــارات تاريخية معينة في بعض سور القـــــرآن، و شرح الحوادث التاريخية في الشعر القديم، و أخيرا خدمة العزة القوميـــة، و مطالب أشراف العرب و وضع أنساب واسعة لأكثر الأسر البـــــارزة و ذكر مفاخر قبائلهم".

كما يبدي رأيه بخصوص ظاهرة الانتحال و الغلواء فيها قائلا: "و قد بولغ في مسألة الشعر الجاهلي و نحله، حتى لو كانت بعض قصائده موضـــوعة، فلا ريب في أن مجموعة الرواية الشعرية في جملتها صحيحة أصيلة".[4]

فبعد مناقشة كل من سير تشارل جيمس ليال وجورجي ليفي دلافيدا وفقنا بعد استقراء الرأيين، على أن هذا الأخير تعسف في كثير في ما ذهب إليه، من رأي و هذا- في نظرنا- ما أخرجه عن دائرة الموضوعية التي تنشئ الاستثنـــاء

---

[1] - المرجع نفسه ، الصفحتان نفساهما.
[2] - د/ يحي الجبوري، أصول الشعر العربي، ص: 28.
[3] - د / ناصر الدين الأسد ، مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية ، ص: 375.
[4] - المرجع نفسه ، ص: 29.

و لا تسقط في حكم التعميمية؛ لأن ظاهرة الانتحال قديمة جدا واكبت حركية الرواية بشقيها الشفوية و الكتابية، و أن النقد العربي و على رأسه ابن سلاّم الجمحي أفرز كثيرا مما هو موضوع جاء محشوا في ثنايا الشعر الجاهلي، و ذلك كان لتعليل توخي الدراسة المنصفة التي تراعي الدخيل من الأصيل، و كان ؛أي ابن سلاّم قد شكك في البعض و أثبت الأخر. أما مرجليوث فجاء ينفي جملة و تفصيلا كل ما هو تحت دائرة الشعر الجاهلي، و كثير من القرائن و الحجج الدامغة، نحو: وجود النص الأصلي للقصيدة الجاهلية التي حاكاها المقلدون و المنتحلون، فهو في ذاته نوع من الإقرار بثبوت الشعر الجاهلي، ضف إلى ذلك احتواء الشعر الجاهلي على غريب اللّفظ، الذي لم يكن مشاعا عصر الرواة، كما أننا نضيف دليلا آخر، و هو ما يتمثل في الأبنية اللّغوية و الأساليب التي جاءت شاذة عن المعيارية النحوية المعتادة، و هو ما يفسر أقدميتها و هي بأيّ حال لا تمت بصلة إلى العصر العباسي.[1]

أما ما تعلق بأمانة الرواة، فصحيح أن بعضا منهم لم يتحل بالأمانة العلمية ،أمثال حمّاد الراوية و خلف الأحمر، إلاّ أن اتهام هذين الراويتين و من باب المنطق أن ذلك ينسحب على بعض مما رويا و ليس كله، هذا فضلا على أن هناك رواة ثقات، أمثال: أبو عمرو ابن العلاء، و المفضل الضبي، و أبو زيـــــد و غيرهم ... جاءت رواياتهم تخضع للاختبار و الفحص و الاعتماد على المنهجية العلمية: "فكان ينبغي ألا يبالغ المحدثون، من أمثال: مرجليوث و طه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه، إنما نشك حقا فيما يشك فيه القدماء و نرفضه، أما ما وثقوه و رواه أثباتهم من أمثال: أبي عمرو بن العلاء و

[1] ـ د/ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي، ص : 168.

المفضل الضبي، و الأصمعي و أبي زيد، فحري أن نقبله ما داموا قد أجمعوا على صحته".[1]

ولعل التركيز في هذه المقولة، يكون على رأي المستشرق مرجيليوث الذي جاء في كثير من مواقفه بعيدا عن الطرح الموضوعي ، وهو ما بدا فيما نزع إليه من تطرف ، أقصى فيه كل الجوانب الاعتدالية، حتى أن بعضا من الفكر الاستشراقي، جاء يعارضه ويذهب مذهبا غير المذهب الذي تبناه نهجا للدراسة المنصفة .

[1] ـ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

الفصل الخامس: الرواية عند بلاشير.

عرض آرائه :

من الذين خاضوا بحثا في مجال الرواية الشفوية كمصدر من مصادر الشعر الجاهلي، الباحث المستشرق بلاشير[1]. فهو يرى أن الشعر الجاهلي،

[1] د/ رجيس بلاشير، تاريخ الادب العربي ،ص: 109.

بلاشير، ر ل (1900-1973) L.R. BLACHERRE

ولد في مون روج بالغرب من باريس، وتلقى دروسه الثـــانوية في الدار البيضاء، و تخرج بالعربية في كلية الأدب بالجزائر (1922)، و لما نال شهادة الإجازة في التعليم، أنتدب مديرا لمعهد الدراسات المغربية العليا بالرباط (1924-1935)، ثم استعدته مدرسة اللّغات الشرقية بباريس أستاذا لكرسي الأدب العربي (1935-1951)، و نال الدكتوراه (1936)، و عيّن أستاذا محاضرا في السوريون (1938)، ثم مديرا لمدرسة الدراسات **** و العملية (1942)، ثم أستاذا للّغة العربية و حضارتها في جامعة باريس (1956) و مشرفا على مجلة المعرفة التي صدرت في باريس باللّغتين العربية و الفرنسية.

من آثاره: دراسات رصينة عن العرب في أشهر المجلات الاستشراقية كمجلة الدراسات الإسلامية و حوليات معهد الدراسات الشرقية، و المجلة الأسيوية ... و له وحده، مصدر لتاريخ العلوم عند العرب (هسبيرس 8، 1928)، و عني بالمتنبي عناية شديدة، ثم سعيد البغدادي في اسبانيا (هسبيرس 10، 1930).

و سيرة و مصنفات الشاعر المترسل الأندلسي ابن دراج القسطالي (هسبيريس17، 1923) و مقتبسات عن أشهر الجغرافيين العرب في العصر الوسيط (باريس 1932).

و فاس في كتب الجغرافيين العرب في العصر الوسيط (هسبيريس 18، 1934)،

عرف سبيله إلى الخطبة بعدما مر بفترة شفوية (رواية الشعر الجاهلي) لازمته مدة طويلة من الزمن، فهو يقول في ذلك: "لقد اكتسب الشعرالجاهلي و معطيات التاريخ و الأخبار المتصلة في صفة الكتابة في تنقل شفوي طويل الأمد". تراه هنا يقف على تخوم الشفاهية كخاصية من الخصائص التي تطبع الشعر القديم بطابعها، و في وقت متأخر لها خاصية الكتابة. كان سنة 30هـ / 850م، أين عرف الشعر ذلك الذيع و الصيت في الوسط القبلي العربي في شكل عام بشقيه البدوي و الحضري، إلاّ أن بعض الأشعار لم يكتب لها هذا الرواج كونها لم تتعد حدود القبيلة الواحدة.

فالرواية الشفوية كوسيلة تناقل الأشعار، جاءت تخضع لعناصر تختلف كالفجائية و الصدفة و تقلبات الهوى يسيرها في كل ذلك، تغير مجرى الأحداث

و ترجمة طبقات الأمم لصاعد الأندلسي لمقابلة النص الذي نشره الأب شيخو على مخطط باريس (باريس 1935 ... و الوزير الشاعر ابن زمرك -حوليات معهد الدراسات الشفوية 2، 1934-).

و بمعاونة جود فروا ديموبين: قواعد العربية الفصحى، و هو من أجود الكتب في النحو (باريس 1937)، و له مجمل شاعرية العرب (الدراسة العامية 1938)، و رايموندو لوليو تعزيز الدراسات العربية في أوروبا مجلة دمشق العدد 6 و أهم موضوعات شعر الغزل على عهد الأمويين في دمشق معهد الدراسات الشرقية (5، 1939 - 41).

... و له: ابن القارح و رسالة الغفران للمعري (مجلة الدراسات الإسلامية 1941-46)، و نبذة عن النفس في القرآن (الشاميات 1، 1948) ... و ترجمة جديدة للقرآن في ثلاثة أجزاء (باريس 1947- 52)، و تاريخ الأدب العربي (باريس 1952، و قد نقله إلى العربية إبراهيم الكيلاني)، و مفضلة محمد (1953) ... و له في أرابيكا الإسهام الثاني و آخر الوراثة و مشاكل إحصاء الشعر القديم (الدراسات العربية و الإسلامية المهداة إلى الأستاذ جيب 1956)... و ملاحظات حول التوسع في فقه اللغة العربية (مجلة العرب المسلم 13، 14، 1973)... و منزلة ابن خلدون في ا لثقافة العربية الإسلامية (مجلة العتيق 1972) - معجم اسماء المستشرقين ص ص : 171-172.

القبلية. فعدم وضوح المقصد قد يكون وراء جمع الآثار الشعرية، إلاّ أنه لا يمكن لنا الفصل في ذلك، و بحثا عن الخيوط الأولية الموصلة إلى التدوين، وجب تقفي آثار البدويين و التفتيش عن أسباب أخرى يكون تأثيرها أقوى حدة. مما فات اهتداء إلى منهجية التدوين، إن تأثير هذه الأسباب، قد يكون جانبيا عند التعمق في البحث، و مما نحسبه جاء عرضيا بناء الدولة في محطـــاته الإدارية، للاستفادة من ريع توزيع الغنائم، و ما يعطى للجند و تلمس مواطن البدو في جغرافيا الحاضرة، كان ذلك أحد الدوافع لإيلاء الأنساب ما تستحق من إيلاء، إن هذا الشكل من التحري لقي صدى في الأرض العربية لا يزيد عليه غيره فيه:

"و قد عرف هذا النوع من البحث في الجزيرة العربية رواجا لا مزيد عليه".[1]

حيث صار علم النسب من التوثيق التاريخي الذي يشكل لحمة المجتمع الجاهلي، فأصبح النص الشعري يمثل متن علم النسابه، الذي أصبح يتخذ البيت الشعري أو المقطوعة الشعرية خدمة الغرض المتقدم، الذي كان من الأمارات التي تفضي إلى إنشاء الأحلاف القبلية، على ألا يفهم مما تقدم أن علم النسابة كان يلجأ إلى المكتوب في جميع أحواله، بل الأهم منه إسهامه في توسيع دائرة التقصي لدى من اهتموا بهذا العلم، ونقصد الحجم الشعري الذي تم جمعه استنادا إلى ما حفظته الذاكرة الشفوية.

فالتأريخ لحركة الخلافات السياسية، بدأ مع تولي الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه- سنة: 35هـ/65م، إن المعارك التي دارت بين اليمنيـــــــين و المضريين ، وقت الخلافة الأموية، تكون قد عجلت باللجوء

[1] - د/ ريجيس، تاريخ الأدب العربي ، ج 01 ،ص : 110.

إلى المصادر المتنوعة في جمع الشعر العربي[1] ، مما يذكي لهيب غرض الهجاء الذي يكون الشعر إحدى مرجعياته، فيكون الاهتمام بجمع هذه الأشعار أسهم بقسط أوفر بالحفاظ على الموروث الشعري الجاهلي .

و من الدواعي العابرة الأخرى زيادة على ما تقدم، هو الفضول في كنه الماضي، فالتأريخ لشبه الجزيرة العربية، يبقى يحتفظ لنفسه بالحدث الخطير، والذي يتجلى في بزوغ الإسلام، ، فعند الإتيان على ذكر شمائل العرب المطبوعة كالكرم، و ملحمة النبي محمد- صلّى الله عليه و سلّم- و غزوة المشركين، و كذا ضروب المروءة التي اشتهر بها المسلمون - بعضهم- عند الفتوحات، و بالعودة إلى فحوى الشعر نقرأ لا نظام الذي ميز حياة العرب الطويلة.

إن الحركة المنتظمة لجمع الشعر العربي الجاهلي، يعود فيها الفضل إلى معاوية بن أبي سفيان، عندما أمر عبيد بن شرية الجرهمي القادم عليه من اليمن و استفساره إياه عن أحوال ملوك العرب و العجم، و الدواعي المؤدية إلى لكنة الألسنة، و ما اختلف فيه الناس، فأمر معاوية بالكتابة، و يبقى من المشقة بمكان التصديق بهذه الرواية لانعدام القرائن التي تدعمها في موروث عبيد بن شرية.[2]

فإن ما قام به معاوية، لا يخرج عن النطاق العام لانشغالات عصره، أسهم ظهور الإسلام في الحفاظ على الذاكرة الشعرية، و ذلك بحفظ شعر من أسلموا، كحسان بن ثابت، فبرغم تعدد المقاصد التي ساقتها العوارض في صون مأثور الشعر من الزوال، تبقى تكشف عنه وجدان أدبي أثناء عملية جمع الشعر،

[1] -المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[2] - المرجع السابق، ص: 111.

فعند توظيف غرض شعر الهجاء ينتقى فيه ما يتوافر عن الصنعة الفنية، فالأخذ بفكرة المعيار الذوقي الذاتي، ظل واردا يواكب حركية المجتمع :"و يبدو أثنا ء الجمع، شيء من التفضيل الذوقي الذاتي".[1] فالشاعر يقول عند تعداد المناقب على الشعر الرصين الذي يخدم قصيدته، فهو يسقط من تعاملاته حلقات الشعر الضعيف. و يبقى في الأخير افتخار القبيلة بما تفرزه من فحولة شعرية تمجد شرف القبيلة كلّه يدفع ذلك بهذه القبيلة إلى حفظ شعر شعرائها، لأن ضياع هذا الشعر ينتقص من شأن هذه القبيلة، و هو ما نجد له شرحا فيما ذهب إليه الحجاج بن يوسف الثقفي من خوفه على ضياع شعر أمية بن أبي الصّلت بموت من سعت صدورهم حفظ شعره ، و هو ما يفسر الترسيخ التدريجي بعد شيوع ظاهرة الكتابة، عدم اللجوء إلى اعتماد الرواية الشفوية، كمصدر من مصادر تناقل الموروث الشعري، فبالأخذ بالمعطى الذي يرجع في شيء من القرن الثالث الهجري إلي التاسع الميلادي، يتضح منه أن ظاهرة تدوين الشعر موغلة في القدم في الوسط العربي.

فعن رواية حماد: ملك الحيرة النعمان بن المنذر، أمر بنسخ أشعار العرب في الطنوج (الكراريس)، ليقوم بدفنها في قصره الأبيض، ففي عهد المختار بن أبي عبيد الثقفي، أومئ إليه بوجود كنز مدفون تحت القصر، و عند الحفر قام باكتشاف ذلك الكنز من الشعر، فمن ذلك الزمان كتب، نعترف لأهل الكوفة بباعهم الشعري تفضيلا لهم عن أهل البصرة، يستقى من هذا الصنيع مثل هذه الرواية لإظهار ما لأهل الكوفة من سبق شعري على أهل البصرة تغذية للصراعات التي تأججت بينهما، و من زاوية أخرى يجعلنا نقف على مواطن

[1]-المرجع السابق، الصفحة نفسها.

المشقة التي واجهتها عملية التدوين في مهد البيئة العربية في القرن السابع الميلادي، و دليلنا في ذلك النص القرآني الذي لم يعرف طريقه إلى الكتابة إلاّ بعد ممات الرسول - صلّى الله عليه و سلم-، و كذلك بعد أخذ و ردّ انتابت هذه العملية[1]. هو شأن تعلق بالنص المقدس، فبالمقابلة نجد النص الشعري أقل شأنا لما يحمله من إسفاف مضاميني، و هو ما أخر عملية التقييد تعظيما للكلام السماوي، و هو ما يدعم فرضية ترسيخ فعل الكتابة، كفكرة بدأت أولا تجد مستقرا لها في الأذهان مع مرور الوقت. و كانت البدايات من دون أدنى شك من حواضر كلّ من ؛ البصرة و الكوفة و المدينة و دمشق فجاءت المحاولات مهزوزة لفعل الكتابة في الربع الأخير من القرن الثامن الميلادي و ما تلاه. فعند بلوغنا مرحلة الشاعر عمر بن أبي ربيعة، و باستقراء نصوصه الشعرية اهتدينا إلى توظيف ظاهرة المكتوب في تواتر الرواية الشعرية، حتى صار هذا الصنيع حدثا متصلا، و بتقفي آثار ممن سبقوا و بفعل المحاكاة أقحمت الكتابة في ترسيخ النقول الشعرية الشفوية السابقة. و هناك دليل آخر يظهر فيما احتفظت به إحدى المغنيات بآثار شعرية ل: عمر بن أبي ربيعة بعد وفاته، أعدت للتغني بها، ثم في خلافة الوليد بن عبد الملك، قام الخطاط بن أبي الهياج بكتابة المصاحف و الشعر و الأخبار للخليفة المتقدم، و هو ما يفضي بنا إلى الاطمئنان إلى الرواية التي نقلت امتلاك الفرزدق (بعد 106هـ/724م)، ديوان شعر زهير بن أبي سلمى[2]. هناك خبر آخر يعزز فكرة سابقة، و هو أمر الخليفة الوليد بن يزيد (90هـ/127م)، يجمع ديوان العرب من: شعر و خبر و نسب و لغة. مع ما

[1] -المرجع السابق، ص : 113.
[2] - المرجع السابق، ص: 114.

يتناهى إلى علمنا بثبوت مجتمعات القبائل و إن جهل رواتها، تبقى من الآثار الجمعية بها شواهد شعرية، مع الشك في وضعها، مع الاعتراف بمحدودية المعلومات و ضيق أفقها و عدم دقتها في ملامسة حدود دائرة التدوين وبالتخمين، يبدو أنه كان متجزئا خاضعا لإملاءات الذوق الفردي و الحاجة الدينية و اللون السياسي، لتبقى هذه الأذواق واهية في صون الموروث الشعري من الفناء[1].

كما أن منهجية الكتابة الموظفة بدت ضعيفة برغم الإصلاح الذي طالها كتنقيط الحروف و الإعجام، في عهد الخليفة الأموي، الوليد بن عبد الملك بن مروان، و كان ذلك كافيا لإقرار قواعد اللّغة الدّارجة، "... و هي مع ذلك كافية ما دام المقصود بتثبيت اللّغة الدّارجة".[2]

إلاّ أن ذلك لا يعني صعوبة النص، فالكتابة تقف عاجزة لفك شفرات النص الغامض و فتح قراءة النص الشعري قراءة سليمة، كما هو عليه الشأن في النص القرآني، يكمن في الاستنجاد بالاستظهار الدقيق، مع الترجيح في تواجد حجم كبير من الشعر على اختلاف أنواعه، بقيت ذاكرة الرّواة تسعه، ومنه ظل الشعر الجاهلي إلى وقت اتصالنا به حبيس الرواية الشفوية، مما جعله عرضة لعاديات الزمان.

إن اقتحام جيل من الرواة ميدان الرواية التي جاءت تختلف عن رواة القبائل، الأبرز خطرا يهدد عملية التدوين، كان ذلك سنة 742م بأمصار مكة و المدينة، يضاف إليها دمشق كذلك، و كان أهل الكوفة و البصرة يميزونهم من

[1]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[2] -المرجع السابق، ص : 115.

الرواية، و ذلك لتضلعهم في عام الرواية، و استمرت احترافيتهم خمسين سنة أو أزيد، و من أعـــلامهم، خلـــف الأحـمر المتـوفى سنة 180هـ /796م، و يتحدون كلهم في أنهم إلى الحواضر ينتمون، و كان من هؤلاء من إلى العرب ترجع جذوره، نحو : (الكلبي و دعوانة)، كما نجد أن منهم من تعود أصوله إلى الموالي، الذي يصعب معه تحديد أصوله، من أصل فارسي في جل الأحوال يتبنى في عوائل محمودة تقطن حواضر العراق أو الحجاز، كما هو عليه الحال عند حماد الراوية و خلف الأحمر، و مما ميز هؤلاء الرواة خبرتهم بالحياة البدوية و أحيانا أخرى إقامتهم فيها بحسب ما يمليه الظرف، مما رشحهم لإتقان اللّغة العربية، مع اطلاع كبير على الحياة الميثولوجية ، يشترك فيهم بامتلاكهم ذاكرة حادة، تكون دائرة الرواية الشفوية قد اتسعت جهود هؤلاء الرواة الذاكراتية، فمع أنهم، أي الرواة ظلوا قائمين في حواضرهم، إلاّ أن وصالهم القبلي بقي ممتدا خارج حدود القبيلة الواحدة، و هو ما نتج عنه امتداد نطاق الرواية الشفوية إلى أبعد مداه،، و كان المرمى الروائي، ما فرض نفسه من شعر ذي قيمة فنية، فيطير به الصيت ليلقى ذلك الرواج الواسع. فحماد الرواية- كما يبدو- الرائد في صنع المجموعات الشعرية التي نعرفها.

و يظهر أن حماد الراوية، و هو صاحب أول المجموعات الشعرية المعروفة [1]، و مما يعقد الوضع أن من بين الرواة من امتلك ناصية الشعر، و هو ما يفضي و على وجه الضرورة بإجادة الكتابة، و القضية كلها تختزل فيما

[1]- المرجع السابق، ص:116

إذا كان الرواة هم أنفسهم من قاموا بكتابة ما حفظوه من شعر و خبر، و إجابتنا على ذلك، هو النفي. "... نجيب بالنفي".[1]

لننشئ استثناءا نخص به السائب الكلبي، لأنه لم يخلف أثرا مدونا،- مستعينا فيما حفظ من شعر- على مجهود ابنه هشام. و كون عوانة كفيفا، فهذا يؤول- حتما-، إلى أن الكتابين المنسوبين إليه، كان بفعل إملائه، و حتى حماد الراوية، و مما يستقي مما روي عنه، لم تكن له آثار مكتوبة، فكان يعود فيما روى إلى سلطان ذاكرته الشفوية، و عن خلف الأحمر والمفضل الضبي، فالراجح ، أن الرواية الشفوية كانت وسيلتها في تناقل الموروث الشعري، و هو ما تقفى أثره جيل من الرواة في عصور لاحقة، كـ: ابن الأعرابي الذي تتلمذ على يد المفضل الضبي، كانت تربطه به علائق قربى، فكان هذا النفر من رواة الشعر يسلكون النهج نفسه لرواة القبائل، فيكونون قد أسدوا في المضمار هذا فائدة من مواقعـــهم، مما جعل عملهم يلقى الشيوع فيما بين الناس، فقد كان قد تحقق على يد جيل من الرواة الجدد، نقل الموروث الشعري الشفوي إلى الخطية، فيكون بذلك قد حصل التقاطع، ما بين الرواية الشفوية و المكتوبة على أيديهم، فجاء عملهم هذا من الخطـورة بمكان، لما ينطلي عليه مضمون مادتهم المبحوثة، الذي جاء يمزج بداخله مقوماتهم التي تخصهم من: خلق و علم، و حذر، و أمانة عقلية إن الأسباب التي تؤدي بنا إلى تصديقهم- فيما ذهبوا إليه- قليلة، إن لم تكن منعدمة، فإن ذلك يقابله انتصاب كثير من العوامل التي تدفعنا - و بقوة- إلى التشكيك في صنيعهم، و إن كانت أساليبهم معلومة عندنا، و إن ما جاء محفوظا عن الكلبي و عوانة، و حتى المفضل الضبي، و هو ما يميزهم عن

[1] - المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

الآخرين، لما تحلوا به من جدية، فمناهلهم التي وردوا منها، كانت عناوين مجهولة، و ما يغذي هذه الفرضية، هو انعدام النقد الأولي الذي يصاحب عملية جمع الشعر الجاهلي. علما و أن في تضاعيف عناصر التاريخ و التراجم مواد أسطورية محض[1] ، كما في النتف الشعبية مما يوحي بعدم الاستقرار.

فكان من الاهتمامات الأولى، العناية بجمع الأخبار الشفوية المتبقاة، بالإضافة إلى ما علق بذاكرة الرواة من شعر، أو كان أثرا كتابيا يمكن إخضاعه للمعيار النقدي فما أثاره أبو عمر بن العلاء (70هـ/789م-154هـ/770م) من انشغال، و ما ميز الرجل في مبتدأ حياته العلمية، كونه منشئ مدرسة البصرة النحوية، كما عدّ أحد قراء القرآن الكريم، فكان حريصا على كتابة و حجم وافر لثروة الشعر الجاهلي، و ما له صلة بأخباره، و تحت تأثير صدمة دينية، جعلته ينسف ما بناه بإحراقه ما كتب عن الشعر الجاهلي. فبرغم ما حام حول هذا الخبر من ريب، إلاّ أن ما يستفاد من ورائه، هو سخط الوسط الديني إزاء رواسب الوثنية العربية[2]، فاعتراف أبي عمر بن العلاء بالنحل في الشعر الجاهلي جدير بأن يؤخذ بعين الاعتبار، فبالتسليم بأن هذا الوضع لم يحدث إلاّ مرة واحدة باعتراف أبي عمرو نفسه في آخر حياته، و هو الأمر الذي لم يحدث مع المصادر الأعرابية. فبهذا يكون عمل أبي عمر بن العلاء يتسرب إليه الشك، لا يشفع له في ذلك إتلافه ما جمع بدافع التوبة و التكفير عن الذنب، لأن ذلك لم يشمل تلاميذ أبي عمرو في الرواية، و من قصد ذلك مريدا في البصرة بجمع تراث الأقدمين، فمنه جانب الحيطة واجب في إصدار، مثل هذه الأحكام القيمية

[1] - المرجع السابق ، ص ص : 117-118.
[2] - المرجع السابق، ص : 118.

إزاء هذه الرواية، التي كان مصدرها راوية واع بما يقوم به من عمل، فكيف يكون عليه الحال مع راويتين آخرين لهما ذيع واسع في شأن الرواية، ألا وهما: حماد الراوية و خلف الأحمر، اللذين لم يصدر منهما أي حرج كالذي كان عند أبي عمرو بن العلاء، فالأول هو أحد الموالي (75هـ/694م أو 95هـ/713م)، وصف بالشرير في حداثته، مع الاعتراف بشاعرية الرجل التي كانت وراء ذيوع شهرته بالكوفة[1]. اشتهر بمدح حاكم البصرة، بلال بن أبي بردة، كما لقي جانب الرعاية من قبل الخليفة بن يزيد، فكان أن استدعاه إلى بلاد الشام قبل أن يتولى الخلافة غير ما مرة، قاد حماد عصابة السوء، فتشكلت من حماد، عجرد، يحي بن زياد و مطيع بن إلياس. فكان يكبرهم هو جميعهم، مما أثار حفيظة الوسط المحافظ عليهم بالنقمة عليهم و الإعراض و الصدود بما كانوا عليه من: عبثية و مجون حياتي.

و ترى حماد لا يبرح السجن إلاّ بتدخل ذوي الشأن جزاء مدحه لهم. كانوا يتعاطون أغراضا شتى، كالهجاء و الغزل، كما كانوا يميلون في بعض الفترات إلى الشاعرية الرقيقة البسيطة. و لما تقدم السن بحماد و بلغ من العمر عتيّا، ساءت أحواله الاجتماعية و تدهورت، ولم تكن عناية العباسين به كما كانت عليه عند الأمويين، إلى أن مات منسيا. كان ذلك حوالي عام 156هـ/772م[2]. وما يستوحى من حياة الرجل لا يبعث - أبدا- على الثقة به، و مما يعزز عدم الثقة به، ما تنـــاقلته الروايات عن جدوى روايته، فجزء منها في حاجة إلى نقـــد. و آخر ينشئ تناقضات تاريخية حادة، و كثرة النوادر و تعددها يبعدها

[1] - المرجع السابق، ص : 119.
[2] - المرجع السابق، ص : 120.

عن ساحة الوضع جميعها: فلا مفاضلة بين حماد الراوية و الرجل العادي، فمن حيث جانب الشاعرية كان فذا إلى جانب ما طبعه من: قوة ذاكرة، و طيب نية، جعله يطرح إشكالا يبقى قائما، أين لا يمكن تمييز شعره من غيره، إذ يبقى بعيدا عن التحلي بالأمانة العقلية، شأنه شأن أهل الشرق -غالبيتهم- في ازدراء الإجابة عن كل سؤال، و مما يؤاخذ عليه أبيات تختلف و شروح لغريب اللفظ، لا يحترز حماد، و لا يضع لنفسه الحواجز الفاصلة على المستويين: الذاتي و الموضوعي: "و من كل مثل حماد عديم التشدد أمام نفسه و أمام غيره قبل كل شيء من كل الناس دون رادع"[1] يتعلق بالأسطورة، كما بالنادرة التي يضعها هو بنفسه، يبقى حماد بمرور مختلف الأزمان، ممن أضرّ كثيرا الرواية الشفوية: "إن حمادا على مرّ العصور آ فة الرواية الشفهية".[2] و هو الحكم نفسه الذي صدر في حقه، إبان القرون الوسطى من قبل النقاد العرب. فعلماء البصرة لم يطمئنوا إليه، و من المآخذ التي أخذت عليه، نحل الشعر الجاهلي،حتى قال فيه المفضل الضبي، و هو عالم كوفي: "و قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدا".[3]

جاء خلف الأحمر من بعده ليسير على الدرب ذاته، و لد خلف الأحمر سنة 115هـ/733م، و أصل أهله من فرغانة جيئ بهم أسرى إلى البصرة، و ذاق خلف طعم الشقاء في طفولته، و ظل بعد عتقه منتسبا بالولاء لأبي برنة بن أبي موسى الأشعري[4]. و آل بردة، إليهم ينتسب بلال، حاكم البصرة، فمن عرفوا

[1] - المرجع السابق، ص ص : 120-121.
[2] - المرجع السابق، ص: 121.
[3] - المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[4] - المرجع السابق، ص ص : 121-122.

بعطفهم على حمـاد، و يبدو من طفولة خلف كانت في الوسط العلـــمي للبصرة، ترعرع خلف في البصرة في وسط علمي: "من أساتذته: عيسى بن عمر النحوي المتوفى، حوالي 149هـ/766م، و أبو عمرو بن العلاء"[1]. ما يهمنا من كل ذلك، هو الوقوف على أهم محطات حياة خلف الأحمر و تعلقه بشخصية حماد الراوية في تقف لآثاره، كان هذا من الدواعي التي أدت به؛ أي خلف إلى الاعتكاف على جمع آثاره رغم الشك الذي ساوره إزاءها كموروث شفوي. فكان أن حصل إجماع كل من، أهل الكوفة أو البصرة على حد السواء على المعرفة الصحيحة لخلف بالشعر الجاهلي، مع ما له من موهبة و فطنة رشحتاه لفرز صحيح الشعر من زائفه.

و مما نسب إليه من مؤلفات: مؤلفان واحد في تفسير القرآن، و الآخر في اللّغة العربية. و الأرجح أن له ديوانا شعريا. هناك الكثيرون ممن اعترفوا له بامتلاك الشاعرية الفذة، إلاّ أن ما بين أيدينا من شعر من تأليفه ينم عن محاكاة لا إبداع، و حري بنا معرفة ما مدى اتصال خلف الأحمر هو، أو الرواة الآخرين الذين توافرت لديهم ملكة الشعر محاكاة، سمحت لهم بإفساد ثروة الشعر الجاهلي ?: "و يجدر بنا أن نعرف إلى أي حد-، فيما له علاقة بخلف الأحمر أو غيره من الرواة ذوي الموهبة النظمية- أ فسد الرواة الشعر الجاهلي"[2]. و هو ما أدى بأحد النحاة في القرن الرابع الهجري باتهام خلف بوضع قصيدة على النابغة الذبياني تتوافر على كل مميزات الشعر الجاهلي.[3] تهمة كهاته يستسيغها المنطق و يتقبلها العقل، إلاّ أن تقديم الحجة على ذلك، يبقى من الصعوبة

[1]- المرجع السابق، ص :122.
[2] -المرجع السابق، الصفحة نفسها .
[3]- المرجع السابق، ص ص : 122-123.

بمـكان، فالتقصي بناء على خلفية كثيرة المقولات تؤول بنا بحثا إلى الشاهد النقدي الذي يعري تقليد خلف الأحمر الشعر الجاهلي، حتى أنه بات من منظور علماء كل من: حاضرتي البصرة و بغداد راوية اشتهر في صناعة الشعر ينحل و يتخذ من القصيدة الجاهلية نموذجا يحيك عليه، و مما نقل عنه: أنه تاب أواخر حياته بفعل ثورة دينية عاشها على شاكلة ثورة أبي عمرو بن العلاء فأشار فأخبر الكوفيين بمواضع النحل في شعره: "... و يقال أنه نسك في شيخوخته على إثر أزمة دينية مرّ بها من قبل أبو عمرو بن العلاء، فعرف أهل الكوفة الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس".[1] إن مثل هذا الاعتراف يضر بما هو تقليد إزاء نافذة الشعر الجاهلي. مما يفضي بنا من باب التفضيل إلى عدم تصديق ادعاءاته. و هو ما يعزز الحجة لدينا، في كشف ما أحدثه خلف الأحمر من زيف اتجاه الشعر الجاهلي.

والأخطر من هذا كله، هو المكانة السامقة في حقل الأدب لهؤلاء الرواة، برغم ما كان حولهم من تحفظ و إحجام و حيطة، تغذيها درايتهم الكبيرة بثقافة الشعر و ما تعلق بها من أخبار، و هو ما دفع بالأصمعي إلى القول: بأن ما وصلنا من شعر نسب إلى امرئ القيس، فهو من نسيج حماد إلاّ نزرا و صلنا عن قناة عمرو بن العلاء، حتى قال الأصمعي عن حماد: "كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلاّ شيئا من أبي عمرو بن العلاء".[2]

[1] - المرجع السابق، ص : 123.
[2] - المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

قصب السبق في إنشاء المدرسة الشفوية بالبصرة، يعود الفضل فيه إلى الراوية خلف الأحمر؛ ثم إن خلفا: "أول من أحدث السّماع في البصرة".[1] فبالعودة إلى كل من صنيع حماد و خلف، نقف على مدى الشك الذي غلف ما نقلوا من شعر و ما له صلة بأخباره ،عند إجرائنا عملية تحقيقية نتعقب فيها مواطئ أقدامهما، و كان الأمر يصير سهلا في حال حصول التزوير و التجرد من الجانب الوجداني، إلاّ أن تصرفاتهم جاءت متداخلة، بلغت شدّتها في التعقيد: "و لكن تصرفاتهم كانت على غاية من التعقيد".[2] فحشو قطعة دخيلة في النص الشعري الأصيل، كان في البدء ضربا من التقليد الأدبي، أو كان من الممارسات التعلمية بإبعاد ما لحق القصيدة، من تحوير من قبل العارفين بشؤون الشعر:"و نعتقد أن دس قطعة مزيفة بين النصوص الصحيحة، كان يعدّ في بادئ الأمر تقليدا أدبيا، أو تمرينا مدرسيا يتولى بعض المريدين المتحمسين بعد ذلك إزالة معالم هذا الزيف عنه"،[3] أو تكون الدعابة وراء مثل هذا العمل، كما جاء عن خلف الأحمر في أكثر من مناسبة: "و قد تكون العملية مداعبة كما تثبت ذلك نادرة أو نادرتان مرويتان عن خلف".[4]

دونما القفز على عامل نحن نراه مهما، عما تقدم، و هو ما يتمثل في حرص الأعاجم على رفع التحدي و إبراز اقتدار اتهم الشعرية أمام العنصر العربي الوافد من أعماق الصحراء، :"و يجدر بنا ألا نهمل عاملا أكثر أهمية

[1] - المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
[2] - المرجع السابق، ص : 124.
[3] - المرجع السابق ، الصفحة نفسها.
[4] - المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

مما ذكرنا ألا و هو حرص الأعاجم كما خلف على إظهار مقدرتهم أمام العرب القادمين من الصحراء".[1]

كان موضوع هذا التحدي بناء مقطوعات و قصائد شعرية تتغذى في طبيعتها مما ارتجله الجاهليون من شعر: " في نظم قصائد و مقطوعات تفوق في أصالتها تلك التي ارتجلها الجاهليون".[2] إن ما حصل من فعل ينعت بالتزوير لن يتحمل تبعاته كبار رواة الشعر الجـاهلي بمفردهم، بل ما أحاط بهم من حـــاشية، يقاسمونهم شنآن ما ذهبوا إليه من صنيع، في وقت لم يلق فيه المأثور و حتى النص المقدس احتراما: "و ذلك في زمن لم تكن للآثار، حتى الكتب الدينية منها، حرمة أو قداسة".[3] و من دون أدنى شك أن التصرف في نص شعري، لا على التعين، يكون الباعث فيه في بعض الأحايين- طيب نية- فالتصحيح الذي يلحق بالبيت الشعري، هو إسهام، الغرض منه البلوغ به درجة الكمال و النضج الفنيين: "ينشأ أحيانا عن نية حسنة فإن تصحيح البيت مساهمة في إيصاله إلى حد الكمال".[4]

إن جيل الربع الثاني للقرن الهجري، قد تبعث فيه السوداوية التي تطال الشعر تهديدا جادا مستقبليا إثارة حاسة الشك في نفسه؛ :"و من المحتمل أن تلك الحالة الغامضة المهددة للمستقبل لم تلبث أن أثارت الشكوك في نفوس الجيل المولود في الربع الثاني من القرن الثاني للهجرة؛ أي الثامن ميلادي".[5] و مهما يؤول إليه أمر إنكار كل من: أبي عمرو بن العلاء و خلف الأحمر نهاية

[1]- المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
[2] -المرجع السابق ، الصفحة نفسها.
[3] -المرجع السابق ، الصفحة نفسها.
[4]- المرجع السابق ، الصفحة نفسها.
[5] - المرجع السابق، الصفحة نفسها

حياتيهما ظاهرة انتحال الشعر الجاهلي، فإن ذلك لا يبعث على الثقة- فيما ذهبوا- إليه من إنكار: "و مهما تكن قيمة المعطيات التي تظهر إنكار أبي عمرو بن العلاء، أو خلف الأحمر في أواخر حياتيهما وضع الشعر، غير موثوقة".[1] بل أن ذلك يكون قد أماط اللّثام عن مستجدات. فالتأثير الذي أسهمت به الدراسات النحوية و كذا اللّغوية، أفضى إلى توضيح الصورة بشيء من التوافق، تجلى هذا التأثير في جمع أوصال الشعر الجاهلي، بشكل دقيق ممنـهج، كانت القصدية من وراء ذلك، مقاربة تحقيق الشعر الجاهلي مرحلته النهائية:"جعل عملية جمع أجزاء الشعر الجاهلي تسير بدقة و أكثر منهجية بغية الوصول إلى تحقيق شبه نهائي لهذا الشعر". [2]

إن تزامن عملية تحقيق الشعر الجاهلي بعد إخضاعه للمعيار النقدي مع النهضة العلمية التي كان علم النحو و اللّغة ميدانا لهما بالعراق و أصبح في حكم العادة أن يخصّص تاريخ الأدب العربي صفحة مستقلة لبابي: اللّغة و النحو مع مطلع العصر العباسي، : "و اعتاد مؤرخو الأدب العربي إفراد صفحة النـــحو و اللّغة في مطلع العصر العباسي" .[3]

إن ذلك الاعتناء بالنحو و اللّغة، قد مكن من تقديم صورة مضللة: "و قد أسهم هذا الإفراد في تغبيش المنظور".[4] فإذا جاز لنا التسليم، بأن تلك العلوم قد اتخذت شكلها الأخير فترة ولاية المنصور، فإن ذلك يتطلب العودة نصف قرن من الزمن، و هي المرحلة التي جاءت تؤرخ لانطلاق حركية التأليف لدى

[1] -المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[2] -المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[3] -المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[4]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

النحويين العرب، و هو ما يؤدي بنا إلى الاعتماد على بيبلوغرافيا أبي عمرو بن العلاء: "و هذا ما يدفعنا إلى الاستناد إلى سيرة أبي عمرو بن العلاء مؤسس مدرسة البصرة المولود سنة: 70هـ/689م، و المتوفى حوالي سنة: 154هـ/770م".[1]

إن التصحيح هنا يأخذ بأيدينا إلى تذهن ما للدراسات اللغوية و النحوية من دور طلائعي عند العرب، و يبقى الباعث الأول لهذه الدراسات، هو الميل بغرض بسط التراكيب و أساليب اللّغة العربية و الإيماء إلى ما تؤديه من وظيفة؛ بل يدفعها في كل ذلك رغبة متأججة جامحة قصد قراءة القرآن الكريم على الوجه الصحيح، إضافة إلى عامل آخر للدراسات النحوية، تحت طائل البحث الأدبي، على اتصـــال وثيق بالشعر بحثا عن اللّغة و الجمال الفني فيه، :" و في الوقت ذاته ترتفع دراسة النحو تحت تأثير النزعة الأدبية التي لا تنفصل عن أبحاث الشعر إلى المستوى اللغوي و الجمالي".[2]

[1]- المرجع السابق، الصفحة نفسها.
[2] -المرجع السابق، ص : 125.

نقد بلاشير:

إن المذهب الذي ذهب إليه بلاشير، من أن الشفوية كرواية لازمت الشعر الجاهلي ردهاً من الزمن، مذهب له جانبه الصحي، فكثيرة هي الأطروحات التي ذهبت المذهب نفسه، فمن بينهم، الغذامي الذي نقل عنه: "ظلت رواية الشعر الجاهلي شفوية بالفعل و الاصطلاح على مدى زمن طويل مستمر حتى بعد أن تم التدوين، لأنه كان تسجيلا خطيا للرواية الشفوية".[1] و يقول أيضا: "الشفاهية سمة للرواية و ليست للإبداع".[2]

فالغذامي يتبنى الطرح نفسه عند بلاشير، فكلا الرجلين، يريان أن الرواية الشفوية، هي السائدة، و التي إليها استند الموروث الشعري مدة من الزمن توصف بالطول، حتى أنها كانت مصدرا أوليا عليه اعتمدت الرواية المكتوبة عصر التدوين. و نجد كلا من، جيمس مونرو و مايكل رويتلر، ينظران إلى الشعر كموروث شعبي يمكن إخضاعه لنتائج البحث العلمي،: "و أهمها اعتماد الشعر الجاهلي على الرواية الشفوية، و استخدامه الإنشاء، و النتيجة لا نص ثابت و لا شاعر معروف".[3] و في هذا يتدخل المستشرقان بمحاولتهما تطبيق المناهج ليكون ميدانا لها الشعر الجاهلي ذلك بتطبيق نظرية البحث العلمي على التراث الشعبي. فبرغم وعي الدارسين الذين تخصصوا لتطبيق المناهج الشفوية فإن الشعر الجاهلي المتعدد الأغراض، إلاّ أنهم واصلوا نهجهم لتسويغات منها:

- قيام أداء الشعر الجاهلي حتى العصر الأموي على الشفوية، على غرار الآثار الشعرية العالمية الأخرى.

---

[1]- د/عفيف عبد الرحمان ، الشعر الجاهلي ، حصاد قرن، ص: 740.
[2]- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .
[3]- المرجع نفسه، ص : 754.

- انتشار الرواية الشفوية بين القبيلة و القصائد شاعرها،و منه شاع تقليد نص القصيدة.
- الوزن و القافية.
- نمطية اللغة.
- الخلو من التضمين.
- الافتقار إلى الكتابة.

إن العرب لم تتوافر لديهم الشفاهية كخاصية ينفردون بها عن باقي أمم عصرهم، فلم يكونوا مبدعين في التداول الشفوي، فكثير من الأمم سبقتهم إليها ممارسة، فالحضـــارة اليونانية القديمة و حتى الحديثة والإنجليزية، والإسبانية و الفرنسية قديما، و حضارة الألمان في العصور المتوسطة، و الأمر نفسه بالنسبة للحضارة الإفريقية و الهندية،: "لقد طبقت النظرية الشفاهية على تقاليد كثيرة منها: اليونانية القديمة و الانجليزية القديمة ... و الفرنسية القديمة، و الألمانية الوسيطة... و تقاليد شفاهية إفريقية و هندية و أخرى و غيرها".[1]

فلا ضير أن جزء من روايتنا، جاء يخضع لسلطان الرواية الشفوية، بحيث أن أمما سبقت العرب دخلت في تقاليدها ترسيخ الشفاهية لتناقل الموروث الثقافي.

ليس يحق لنا من وجهة موضوعية، أن نبعد الشعر العربي القديم عن جانبه الشفوي، فهو وبما يوسم به من خصوصية، أعد للإنشاد، فجاء يعتمد هذا الأخير على الأداء السماعي التقليدي، إلاّ أن هناك نظرة خاطئة، نادت بأن هذا النوع من الأداء كان بوازع الشعر الارتجالي، فإن صح فليس يصح مع الموروث

[1] - المرجع نفسه ، ص: 738.

الشعري الجاهلي كله، لكن هناك من الشعر ما جاء يضع الاستثناء و مدرسة الصنعة كما- تقدم هذا- ولّت وجهها صوب إعادة النظر و التنقيح و تقليب القصيد ة و مراجعتها، مما جعله شعرا يتميز عن غيره و يأخذ مسارا خاصا به. فضلا عما تقدم، نجد عنصري الوزن و الجرس الموسيقي الداخلي للنص الشعري، من العناصر التي أسهمت في تعزيز التداول الشفوي،"إن الشعر الشفوي الذي جاء ... بطريقة بطيئة و مخطط له بعناية، و غالبا ما كانت مضنية، هي إن لم يكن من معذر- تمييزها، فإنها إذن من الممكن مقارنتها تماما على الأقل بالشعر المكتوب، ".[1] وهو ما سبق أن أشرنا إليه، إلاّ أن الإضافة التي جاء بها الشاهد، هو إمكانية مقارنة مثل هذا النوع من الشعر بالأشعار المـــدونة، لأنه كيف يمكن لشعر شفوي، إذا لم يرسخ في الذاكرة كالأثر المكتوب أن يتيح مجال التنقيح ؟!

و منه نخلص إلى أن النظرية الشفوية التي جاء بها الغربيون- بعضهم ومنهم المستشرقون -، و التي حاولوا فيها تطبيق مناهجها، بها الكثير من الهنات، لأنها لم تنطلق من خصوصية الشعر الجاهلي، و سبر أغوار لغته في نواحيها المتعددة و العميقة، فراحوا يتعسفون في إقحام نظريات علم الاجتماع في الموروث الشعبي في تطبيقها كعنصر دخيل على الشعر الجاهلي، و في ذلك يقول شولر:"... إن نظرية الرواية الشفوية للشعر الجاهلي خاطئة تمام الخطأ، لأنها لم تبال بالنظر في كينونة هذا الشعر و اللغة التي صيغت بها، بل أخذت نظريات من ميدان علم الاجتماع و التراث الشعبي، و أخضعت القصيدة العربية

[1] -الشعر الجاهلي، حصاد قرن، ص: 761.

لتلك الأقوال. و يبدو أن هذه النظرية ستخمد كما خمدت نظرية الانتحال و سيبقى الشعر الجاهلي مجالا للدراسات النقدية و الفنية".[1]

نفهم مما سبق أن للشعر العربي القديم عالمه الخاص به، و لفك شفراته وجب التعامل معه بما ينسجم و هذا العالم، الخارجي و الداخلي؛ و نقصد بالخارجي رواية الشعر التي كانت تعد القناة الواصلة، فعبر المسار الذي رسمته لنا، حدث الاتصال، و إخراجه في طبعته الروائية بما لها و ما عليها، أما الداخلي فيعنى به لغة و روح اللّغة في الوقت نفسه، لأن هذه الأخيرة هي التي وقفت سدّا منيعا أمام كثير من المستشرقين لولوج عوالم الشعر الداخلية، زد على ذلك الـــوزن و القافية و الترنمات الموسيقية و الصدق الفني للنص الشعري ، كانت تلك ميكانيزمات و آليات - من وجهة نظرنا- ، تفضي إلى التعامل مع القصيدة الشعرية من وجهة طبيعية في الإطار الجغرافي و التاريخي. أما أن نقصد إلى إقحام مناهج دخيلة لا تمت بصلة إلى الدراسة الموضوعية، يبقى الشعر عصيا ، يبدي كثيرا من التمرد إزاءها، في انتظار التعامل السليم لإيجاد المفاتيح المناسبة لفتح منغلقاته، و ترويضه حبيا لإظهار مكنونه و كشف مجهوله. و تبقى المساءلة التي نخلص إليها – فيما سبق- هل الشفوية وحدها، كانت المصدر الأوحد لنقل الموروث الشعري؟، فالبحث فيها لا يظهر سهولة، فالمشقة قائمة، حيال مثل هذا الطرح، إلاّ أن استقصاء الإجابة و توخيها من كل ذلك، تبقى قبلة المجتهد. فعنصر الاستنباط كمبتدأ، يبقى من المقدمات في مثل هذا المنهج، و لعـلّ أولها، في مصطلح الجاهلية، لا يعني به الأمية الجاثمة على صدور العرب في العصر هذا، فالجاهلية كان يقصد بها الجهل بالدين و الغلظة التي

[1] -المرجع نفسه ، ص : 763.

كان عليها الأقوام و التعصب الاجتماعي لتقاليد و أعراف القبيلة، و في ذلك، يقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا. [1]

إذن فالأمية كنعت مستبعدة، و بعد هذا ،هل عرف العربي ضروب الكتابة و أدواتها؟، فباستقراء النقوش الحجرية و استنطاقها، فهي تتكلم عربيا، فالحفر على الحجر ضرب هوالاخر من ضروب الكتابة.

و النشاط العلمي ببعض الحواضر، يقطع حاجز الشك في ممارسة فعل الكتابة، ثم أن هناك شكلا آخر لتمظهرات المكتوب، و هو ما وجد ميدانا له كتابة مواثيقهم و عهودهم و رسائلهم و صكوكهم[2]، فلا يعقل - والحال كذلك- ألا يحظى كثير الشعر أو قليله بهذه العناية، علما و أن للشعر من التقديس و الها لة ما له، و لسان حال القبيلة هو شاعرها، يذود عن حياضها يفاخربها هو أمام القبائل الأخرى، يعدّد مناقبهم، يشحذ هممهم، و يقوي عزائمهم. بالمقابل يقف على مثالب و مطبات أعدائهم، يحط من شأنهم و يثني من إرادتهم، فكيف بهم لا يقيدون هذا الشعر؟ !، نجد في تاريخ الأدب الجاهلي كثيرا من الشعراء الكتاب، ففي قصة عمرو بن كلثوم عندما أبلغ ابوعبيد النعمان بن المنذر، فبحث عن كاتب يكتب إليه:

ألا أبلغ النعمان عني رسالة فمدحُك حوليٌ و ذمك قارحُ

متى تلقني في تغلب ابنة وائل و أشياعها ترقى إليك المسامع.[3]

[1] - شرح المعلقات العشر و أخبار شعرائها للشيخ أحمد الأمين الشنقيطي ص : 131.
[2] - د/ عبد الرحمن بدوي ، مصادر الشعر الجاهلي،ص : 108.
[3] -المرجع نفسه ، ص ص :113-114 .

فالشاعر هنا أمام عجزه عن كتابة شعره ، راح يبحث عمن يكتب له، فالكتابة كفعل و ممارسة حاصلان لا محا لة.

و نجـــد في تاريخ الأدب الجاهلي من الشعراء الجـــاهليين- قلوا أو كثروا- ،عرفوا نشاط الكتابة مباشرة، فمنهم لقيط بن يعمر الإيادي، الذي كان ضمن الكتاب و المترجمـين بقصور فارس، ففي القصيدة التـــي بعثنا بها إلى قومه نذيرا لهم على استعـدادات الفرس لقتال العرب، دفع إليهم بقصيدته هذه مكتوبة، و منها:

سلام في الصحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من لإياد

ليختمها بـ:

هذا كتابي إليكم و النذير لكم لمن رأى رأيه منكم و من سمعا.[1]

فقرائن الكتابة كقرينة الصحيفة، و كتابي من القرائن الصريحة لفعل الكتابة. فالكتابة كممارسة، لم تكن بمنأى عن الحياة الثقافية الجاهلية* .

نخلص مما سبـــق إلى أن الرواية الشفوية، كوسيلة نقل الموروث الشعري لم تكن الوسيلـــة الوحيدة، بل وجدت إلى جانبها الرواية الكتابية، بالطبع لم تكن بدرجة شيـــوع الأولى، إلاّ أن حضورها ثبت في أكثر من مناسبة ، و بأكثـــر من دليل، فطغيان سماع، الروائي جعل يغطي كثيرا من مساحات الثاني، إلا أنه لا يمكن له بأي حال من الأحوال إقصاءه و إعدامه عنوة وظلما دونما مرجعية علمية !

[1] - المرجع نفسه ، ص : 114.

* - لمزيد من التفاصيل يفضل العودة إلى مصادر الشعر الجاهلي، ص ص : 115-117.

إن الأسباب التي سردها بلاشير كمرجعية لكتابة الشعر الجاهلي، و التي ذكر منها، علم النسابة، و ما اعتمده من شعر جاهلي كمصدر للعودة إلى الجذور الأولى لمنابت القبيلة، ضف إلى ذلك بؤر التباين السياسي التي أذكت نيران الاختلاف، مما دفع إلى التوجه إلى شعر الهجاء، جعل من هذين العاملين أحد الأسبـاب الرئيسة في تقييد الشعر، زيادة على أسباب أقل أهمـية من الأولـــى، ظهرت في الحاجة إلى معرفة التاريخ الاجتماعي خاصة مع ما أحدثه الإسلام من ثورة تجلت في الإيديولوجية القيمية، و إحداث التغيير الجذري في التراتب الاجتماعي، بقي في كل ذلك مجهود الخليفة معاوية بن أبي سفيان، يلقي بكثير من إشعاعه على حركية التدوين الشعري التي طبعت هذا العصر بطابعها خوفا من تبدل اللّسان العربي، و ما ينجر عنه من ضياع اللّغة العربية بفعل العنصر الدخيل.

و بقي هذا التدوين في ظل هذه الحركية يراعي الجمالية الشعرية التي توجهت بفعل التقييد إلى عنصر الانتقائية، إلاّ أن بلاشير يستدرك و يعزز ما وصل إليه من تخريج ، من أن نشـاط الكتابة قديم قدم تعامل الجاهلي مع النص الشعري، فالإجـابة تاريخيا لا تحيـل على الحسم، و الوقوف على تاريخ معلوم، و هو أمر عجز بلاشير نفسه عن تقديم نصوص حجاجية تجعلنا نطمئن إلى ما ذهب إليه من رأي ، ففي نقده لرواية النـــعمان بن المنذر ملك الحيرة، و موضوع إخراج كنـوز الشعر المدفونة تحت القصر، غلب رأيا ذاتيا، لم يعتمد فيه على قرائن و أدلة تجعل من المتلقي يستقر على سياق موضوعي يفضي به إلى اقتناع ، فكل ما توصل إليه، هو افتعال رواية قد لا يستسيغها المنطق، تتمثل في أسبقية الكوفيين بالشعر عن البصريين، ففي جميع الأحوال، فالشعر الجاهلي

كمادة حاضر سواء أ كان كوفي السبق أو بصري الهوى، أما عن مقارنة التدوين و التأخر فيه بين النص القرآني المقدس و الشعر الجاهلي. فنحن نرى أن عدم تدوين القرآن الكريم في حياة الرسول - صلّى الله عليه و سلّم- كان بأمر منه، إلاّ أنه لا يفهم من هذا أنه كان منعدم الكتابة، فإن المقصود من ورائه كان التجميع في كتاب واحد، و إلاّ كيف تفسر رواية جمع القرآن الكريم وقت خلافة عثمان بن عفان – رضي الله عنه- ،أما ما ذهب إليه بلاشير من أن الإسفاف المضاميني، هو الذي حال دون التدوين، فتلك قضية لا نجد لها تسويغا، لأن الإسفاف أمر نسبي، و لا يمكن سحبه على الشعر الجاهلي كله، ثم أن هناك أمرا آخر، و هو ما نجده في الاستثناء الذي صنعه القرآن الكريم في سورة الشعراء: "إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ "[1]، فالشعر الذي جاء يفصح مضمونه يغذي الهجاء الذي يعمق الهـــوة و يمزق لحمة المجتمع العربي،علي خلاف ما يصبو إلى التبصر و الاحتكام لسلطان العقل، و إفشاء روح السلام، تفاديا لكثير من الانكسارات و الانزلاقات التي هوت بالمجتمع الجاهلي إلى مكان سحيق، و لعلّ شعر زهير بن أبي سلمى خير نموذج لذلك. ففي كثير مناسبة استوقف الرسول - صلّى الله عليه و سلّم- القيمه الاجتماعية للشعر الجاهلي، فمن ذلك بيت عنترة بن شداد التي يقول فيها:

و لقد أبيت على الطوى و أظله حتى أنال به كريم المأكل[2]

[1]- سورة الشعراء، الآية : 227.

[2] - شرح الديوان عنترة بن شداد ، تعليق عباسي إبراهيم ، ص: 105.

و غير هذه المناسبة كثيرة، فإجمالا الشعر، أشعار من الوجهة القيمية، وهي التي كانت الفيصل في منهجية التميز منه. تبقى مسألة أخرى تحز في النفس، وهوما تعلق بتاريخية تدوين الشعر الجاهلي، فالأحكام جاءت متضـــاربة، متفاوتة؛ فمنهم من يذهب بأقدميتها، و منهم من يرى أنها بدأت مع عصر التدوين نهاية القرن الأول الهجري، بداية الثاني،- كما أسلفنا-، و بالاستقراء التاريخي فالصلة هنا بينهما متداخلة، متعددة و لعلنا نميل موضوعيا إلى أقـــدميتها و مواكبتهـــا لشفاهية الشعر الجاهلي، فما دامت نصوص النقوش العربية، وفي كثير من المواطـــن تربض في بطون الصحاري العربية ، فالوصـــول إليها و استنطاقها، يبقى هو العامل الذي يضيء كثيرا من المساحات التي يسودها الظلام، كما ذهب إلى ذلك الدكتور، ناصر الدين الأسد، في مؤلفه: مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية * ،لأن غيـــابها غيّب كثيرا من الحقائق عن التدوين و بداياته؛ و لعلّ المجهودات التي لن تنقطع في المضمار هذا ستؤول إلى إضافة حلقات توصل خيط البحث متكاملا، و عندها تبدو الصورة منسجمة والرؤية واضحة؛ تزيل كثيرا من الحيرة و التشويش إزاء التقييدية العربية؛ لأننا نرى أن كثيرا من الأحكام أشارت إلى قدم الكتابة العربية ،جاء عن ابن هشام: "يشير إلى أن سويد بن الصـــامت كان بحمل صحيفة فيها كلمة حكمة لقمـــان، و أنه ذهب إلى رسول الله –صلّى الله عليه و سلّم- فقرأها عليه، فقال له الرسول: إن هذا الكلام حسن، و الذي معي أفضل من هذا - قرآن

303- **ديوان عنترة شرح و تعليق عباس إبراهيم ،ص:103.**
.*لمزيد من التوسع يفضل العودة إلى مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد

* - يفضل العودة إلي كتاب د/ ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية.

أنزله الله تعالى عليّ، هو نور و هدى" .[1] و يذكر ابن النديم ،أنه كان في خزانة كتب الخليفة العباسي المأمون، كتاب بخط عبد المطلب بن هشام توفى قبل البعثة المحمدية بحـوالي خمسة و أربعين عاما، ، و أن هذا الكتـــاب كان في جلد آدم، و قد دون فيه: "حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزن صنعاء، عليه ألف درهم فضة كيلا بالحديدة، و متى دعاه بها أجابه. شهد لله و الملكان".[2]

إن الأحكام التي صدرت في حق الكتابة، جاءت مبتسرة ذاتية في غالبها تأخذ بأسباب الإحاطة و الشمولية التي ترشح صاحبها مكانة تجعل منه مضطلعا بأدوات بحثه.

إن الرواية الشفوية عند بلاشير، لم تأخذ الحيز الذي كان يجب أن تأخذه، هذا من حيث السعة، كونها جاءت موزعة على فضاء محدود مقارنة بغيره من المستشرقين الذين سبقوه إلى هذه الظاهرة الدراساتية، شأن؛ نودلكي أو ألـــوارد و بروكلمان؛ لأن دراساتهم جاءت مستفيضة، نستطيـــع أن نقول عنها، أنها سبرت أغوار الموضوع من جانبها التاريخاني أو القيمي، محتفظة لنفسها في ذلك بخصوصية الطرح. علقنا فيها عن كل من آراء نودلكي و الوارد في مواضع الفصلين المخصصين لهما. أما فيما تعلق ببلاشير، قلت: أن تناوله جاء مقتضبا، فمع اقتضابيته شدني إليه طرحه الوسطي، فمن حيث ما أصدر من أحكام عن الرواية الشفوية، فهو لم ينكرها على الشعر الجاهلي، كمصدر من المصادر التي حوت التراث الشعري قبل ظهور الإسلام ردها من الزمن، إلاّ

[1] ـ د/ عزا لدين إسماعيل ،المصادر الأدبية و اللغوية في التراث العربي ، ص : 22.
[2] ـالمرجع السابق، الصفحة نفسها .

أنها لم تسلم من النقد الذي سلطه بلاشير عليها، أي على الرواية السماعية، لما رآه من خطر محدق لها، مثله مثل الرواة الذين امتهنوا فعل رواية الشعر على امتداد خمسين سنة أو يزيد، و تجلت خطورتهم في انتماء بعضهم إلى أسر عربية عريقة و تقمص أخلاقياتها و أدبياتها و عاداتها و اجتماعياتها. فحصل لهم ذلك التواصل الاجتماعي تشد عضده اللحمة القبلية و التي قد تسع خارج حدودها الضيقة لتلامس جغرافيا قبائل عربية أخرى. مما أفضى بهم إلى امتلاك خاصية اللّغة حدّ الإتقان، و هو ما أجج أوار نيران الشفوية بصفة شبه شاملة في الأمصار التي عرفوها في حلّهم و ترحالهم.

يرى بلاشير، أن حماد أول من أسهم في انتحال منتخبات من الشعر الجاهلي، و ما يزيد من الأمر تعقيدا توافر الراوي على الملكة الشعرية، الشيء الذي يؤهله لترسيخ فعل المكتوب الذي قد تعداه إل سواه من متعاملين مع مرويات شعره ، إلاّ أنه ينكص على عقبيه، ليصدر حكما يتعداه بالانتقاء، دونما أن يقدم تعليلا يطمئن النفس و يقنع العقل.

و يذهب بلاشير ليستثني من هذه الأحكام السائب الكلبي، لأن آثاره لم تكن مكتوبة، فأنت ترى من هذا الطرح السعي- من دون حجة- إقصاء، جانب الكتابية عن رواية الشعر الجاهلي، و قد قدمنا- فيما سبق- أن الرواية اتخذت جانب الشفاوية و الكتابية كساقين وقفت عليهما متحدتين لا ينفصلان.

و المظنون أن بلاشير و غيره ممن قاسمه هذا الطرح، إنما انطلقوا من باب التخمين ليس إلاّ، لتعليل نحن نراه مقاربة للإشكالية التي انطلقوا منها في إبعاد الكتابة كفعل متحضر عن مجتمع أو رأوا أن الشفوية بحكم البداوة تأصــلت فيه، و هي نظرة لا تقوى أمام القرائن المادية و التاريخية التي سبقت في هذا الصدد

في أكثر من مناسبة. و من جهة أخرى راحوا يفتشون عن حججهم، فهي إلى الوهم أقرب منها إلى الواقع في التشكيك في صحة الشعر الجاهلي، لأنه كلما اعتمدت على نصوص و روايات مقيدة، أبعد عن نفسه هذه التهمة، و دفعها بقوة ليظهر في موقف قوة ترشحه لإثبات نفسه و البقاء شامخا أمام وهن الشك الذي أحدق به. تلك مسوغات رأيناها نحن كفيله بتفنيد مزاعم بلاشير و من ذهب مذهبه.

لما تقدم جعل بلاشير يمهد للانقضاض بمعول هدم ليدك أركان الرواية السماعية في تقاطعها مع المكتوبة، لأن مجهودات بعض المدونيين شابها المزج بين المروي الشفوي و هوى ناقليه، فأضحى الأمر مدعاة إلى الشك فيه كلّه، لكونه لم تصاحبه حركية نقدية تصفي زائفه من حقيقه و تداخل الأصيل بالدخيل في متن الرواية.

إن مثل هذه الآراء في حاجة إلى مناقشة و التسليم بها من غير اقتناع ، يبقينا تحت رحمة هذه الأحكام التي تقذفنا أنى شاءت. فالحكم بالتعميم يبقى خارج نطاق الموضوعية التي لا تعترف بسحب حكم واحد على الأحوال جميعها وان اختلفت، فحركة التدوين و من دون مقدمات، هي حركة علمية رفع لواءها لفيف من العلماء أخذوا بأسباب المنهجية، العلمية و أدواتها ؛ "و الرواة التالون لهؤلاء الرواة المتقدمين، هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدوينا منهجيا قائما على التوثيق و التجريح، و على رأسهم الأصمعي، و قد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين و مجموعات صحيحة. و كان هؤلاء الرواة المدونون لا يكتفون بالسماع من جلّة الرواة السابقين فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف

عن الأصمعي نفسه. و عن أبي عمرو الشيباني الذي يقال أنه دخل البادية و معه دستيجان من حبر، فما خرج حتى أفناها بكتب سماعه عن العرب "[1].

و في إشارة أخرى في السياق نفسه، ما يعزز هذا الاتجاه، : "... أنهم كانوا يجمعون الشعر من مصدر آخر، هو البادية، فقد درجوا على الخروج إلى البادية و ملاقاة الأعراب، و سماع ما يرويه هؤلاء من أخبار و أشعار، و في كثير من الحالات كان الأعراب أنفسهم يفدون على البصرة أو الكوفة فيتلقفهم هؤلاء الرواة العلماء، يسألونهم عن شعر شاعر أو نسبة قصيدة من القصـائد أو معنى كلمة".[2]

فباستقراء ما تقدم من نصوص نهتدي، إلى أن من آلـوا على أنفسهم التدوين، أخضعوا مادتهم لسلطان المنهج، الذي يحتكم إلى الفرز و التصنيف وتحديد الغايات و المرامي في تدوين الشعر الجاهلي، فعملهم جاء ممنهجا على نحو يتيح لهم الرؤية الثاقبة و التموقع في أماكن تؤهل علميا للإقبال على عمل يخضع للدراسة و النظرة الاستشرافية أولا مشفوعة بصنيع تطبيقي، يقدم مادة في منظورها التكاملي، بين ما هو نظري و ما هو عملي، ثانيا نستشف خطورة أخرى صاحبت المنهج، و هو عدم الاقتناع إلا بعد نقد ، علما و أن العرب بلغوا شأوا عظيما في ميدان الرواية التي ترعرعت مع علوم رواية الحديث النبوي الشريف، و التي أصبحت عملية تأخذ بأسباب النقد لكل مروي، و ذلك لبلوغ الأصيل من الدخيل، و تلك النمطية نفسها طبقها الرواة الذين خاضوا في تدوين الشعر الجاهلي، فجاءت آراؤهم صارمة في التعامل مع رواية السماع الشعرية،

[1] ـ د / شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي،ص ص : 160 -161.
[2] ـد/ عز الدين إسماعيل، المصادر الأدبية و اللّغوية في التراث العربي،ص: 54.

و من تأبطوا هذا النهج، الراوية الأصمعي، و غيره من رعيل الثقات في رواية الشعر الجاهلي، أمثال المفضل الضبي، و أبو عمرو بن العلاء، و أبو عمرو الشيباني، و أبو سعيد العسكري ، و من تقفى أثرهم من رواة تتلمذوا على أيديهم كابن الأعـــرابي، فجاء خيط الرواية مشدودا بين الرواة الأوائل لعلم الـــرواية و المتأخرين، أخرجوا لنا مأثور الشعر الجاهلي الذي هو بين أيدينا اليوم.

ثم نستكشف خطوة أخرى صاحبة هذا المنهج و التي بدت في التنقل إلى مصادر الرواية الشفوية من الأعراب مباشرة دون ما وساطة،: "... نتذكر كذلك أنهم كانوا يجمعون الشعر من مصدر آخر هو البادية، فقد درجوا على الخروج إلى البادية و ملاقاة الأعراب، و سماع ما يرويه هؤلاء من أخبار و أشعار، وفي كثير من الحالات كان الأعراب أنفسهم يفدون على البصرة أو الكوفة فيتلقفهم هؤلاء الرواة العلماء، يسألونهم عن شعر شاعر أو نسبة قصيدة من القصائد أو معنـــى كلمة ".[1] في عملية تبادلية قد ينتقل الأعرابي إلى عالم التدوين ، و العملية كلها تصبو إلى تصحيح الرواية الشفوية و نقدها لتظهر مدونة في صورتها الصحيحة.

"و نلاحظ أن هناك عالما، مثل السكري كان يصنع دواوين القبائل، كان يضع دواوين أفراد الشعراء سواء بسواء؛ و هو في كل ما يضع يؤلف بين روايات الجيل الأول، جيل المفضل و الأصمعي و أبي عمرو الشيباني و ابن الأعـرابي، عبر شيوخه المباشرين، أمثال ابن حبيب و الزياشي و محمد بن

[1] ـ المرجع نفسه الصفحة نفسها .

الحسن الأحول. و من ثم كانت روايات موثوقا بها، لاتصال الاستناد فيها بشيوخ الأدب الأوائل".[1]

فخيط الرواية جاء متصلا جيلا بعد جيل إسهاما في تدوين الشعر الجاهلي على إثر حركة علمية متكاملة، و لا سبيل من جهة الموضوعية أن نسلط كثير الشك على المصدر الروائي بغية قطع سبل التواصل بيننا و بين الشعر الجاهلي. كما أنه لا يجب التركيز على حادث عرضي كاعتراف أبي عمرو بن العلاء بممارسة الانتحال مرة في حياته الروائية، اعتراف حصل إثر تأنيب الضمير فترة صفاء نفسي نهاية حياته، مما حذا به إلى إحراق ما جمع من شعر. فبالتحقيق، الواقعة حدثت تاريخيا، و من باب الإقرار بالأحداث التاريخية، لا يمكن لنا القفز على مثل ما هو واقع، إلاّ أن ما وقع من نحل ، لا يعدو إضافة بيت واحد، فهل بدس بيت شعري واحد، يمكن أن يتخذ كحجة لسحبه دونما وجه حق على الشعر الجاهلي كله المروي عن أبي عمرو بن العلاء؟. نزعم أننا لا نجانب الصواب إذا أجبنا بالنفي، فالفعل هذا لا ينقص للود قضية، فباقي الشعر الجاهلي سواء هذا البيت أو غيره ، هو تراث شعري عربي يمت بصلة تاريخية و فنية إلى حضارة العرب القــولية قبل الإسلام.

تبقى مساءلة ثانية لابد من الوقوف عندها، ألا و هي قضية إحراق الكتب و ما دون عن الأعراب من شعر و علاقتها بامحاء ظاهرة الشعر. إن الإحراق بعد ما سعت صدور الأعرابي و التـــلاميذ و الرواة العلماء بفضل خصوبة روايتهم الشفوية. فالوعاء السمعي حوى الموروث الشعري، و تلك خاصية جبل عليها الإنسان العربي، شأنه شأن الأمم الشرقية الأخرى، التي غذت الشفهية

[1] -المرجع نفسه ، ص ص :57-58.

موروثها الثقافي مددا من الزمان، فد تطول كالهند و فارس و الصين،"... و ربما كان السبب الحقيقي في تقديم البصرة على الكوفة في الرواية، أن رأس رواتها، و هو أبو عمرو بن العلاء كان أمينا، بينما كان رأس رواة الكوفة حمّادا، و كان متهما بكثير الوضع، لا يوثق بما يرويه".[1]

ما نخلص إليه من محّل هذا الشاهد، هي أمانة رواية أبي عمرو بن العـــلاء، فضلا على أنه كان مؤسس المدرسة النحوية البصرية، و واحدا ممن نعتوا بالقراءات السبع،:"و كان أعلم الناس بالغريب و العربية و القرآن و الشعر و بأيام العرب و أيام الناس و كانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتا إلى قربة من السقف ... ثم إنه تقرأ أي تنسك فأحرقها".[2]

و باعتراف منه في قوله،: "ما زدت في شعر العرب إلا بيتا واحدا، يعني ما يروي للأعشى من قوله:

و أنكرتني و ما كان الذي أنكرت من الحوادث إلاّ الشيّب و الصلعـــا"[3]

فالتشكيك الذي طال روايته عزز أركانها، لما تميز به الرجل من حميد الصفات، من تقوى و صلاح، فهو أحد الأقطاب الذي كان نموذجا يحتذى به في تلاوة القرآن الكريم،:"... فقد كان تقيا صالحا، كان أحد الأعلام الذين أخذت عنهم تلاوة القران الكريم".[4] ، فلا ضير على الحياة الشعرية من صنيع معزول أقدم عليه أبو عمرو بن العلاء، ثم أن هناك المدونات الأخرى بقيت تنطق شعرا عربيا يعذب معينه لمن أراد الاستسقاء.

---

[1]-د/ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي، ص : 149.
[2] - الجاحظ ، البيان و التبيين، ج1، ص : 321.
[3] - ا أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 3، ص: 142.
[4]- مقالة مرجليوث ، The origins of arabic poetry.

بعد هذا الحديث ينتقل بنا سياق النقاش طبيعيا إلى راو أخر، أسال كثير الحبر من نقود سلطت على ما أخرج من رواية في الشعر الجاهلي.

إن المستشرق بلاشيرانطلق، من سياج الشك الذي أحاط به و من جميع الجهات رواية حماد فالإسقاطات العملية ، :"كان في أول أمره يشطر و يصحب الصعاليك اللصوص، فنقب ليلة على رجل، فأخذ ماله، و كان فيه جزء من شعر الأنصار، فقرأه حماد، فاستجلاه و تحفظه، ثم طلب الأدب و الشعر و أيام الناس و لغات العرب بعد ذلك و ترك ما كان عليه، فبلغ في العلم ما بلغ".[1]

فما يهمني من وراء سرد هذا المقطع من حياة الرجل، هو الوقوف على الجانب الإيجابي في توجيه السلوكية، فاللصوصية قادته إلى التوجه إلى الشعر الجاهلي، حفظا و استلهاما و رواية، فالمناحي الإيجابية غطت السلبية، و قد تكون المنعرج الحاسم في تهذيب تصرفاته، فجعلت منه قطب رحى لكثير من الدراسات النقدية و إن تعددت مشاربها، و اختلفت أهدافها. ففي حادثة أخرى، أن رواية مروان بن أبي حفصة، قوله: "دخلت أنا و طريح بن إسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في جماعة من الشعراء على الوليد بن يزيد 126/125هـ و هو في قـــرش قد غاب فيها، و إذا رجل عنده كأنما أنشد شاعر شعرا أوقف ابن يزيد على بيت من شعره و قال: هذا أخذه من موضـــع كذا و كذا، و هذا المعنى نقله من موضع كذا و كذا من شعر فلان، حتى أتى على أكثر الشعراء، فقلت: من هذا فقالوا: حماد الراوية". فما يحيل عليه هذا الاستشهاد كثيرا و متعددا، و لعل أهمه، الإحاطة علما بالتراث الشعري، فهو مرجع في هذا الموقف إليه يعتمد في الخبرة الشعرية بتوثيق الإسناد فيها من

[1] -أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 1، ص :88.

الأخبار المتواترة عن الرجل، أنه كان متضلعا في علم الرواية الشعرية، لا يدان له شاطئ فيها، فملخص ما دار من حديث بينه و بين الوليد بن يزيد: "... فأنشد الوليد حتى ضجر، ثم وكل من استخلفه أن يصدقه عنه، و يستوفي عليه، فأنشده ألفين و تسعمائة قصيدة للجاهلين، و أخبر الوليد بذلك، فأمر له بمئة ألف درهم".[1]

فبرغم المبالغة التي تبطن هذا الخبر، إلاّ أن ذلك جاء من إقرار بواقع معيش، و هو سعة الحفظ الرهيبة التي كان عليها حمّاد حتى سار حفظه ضربا من الأسطورة.

إلا أنه في الوقت نفسه لا يمكن أن نبرئ حمادا كلية من بعض ما وجه إليه من اتهام، و في ذلك يقول الأصمعي :"جالسته، فلم أجد عنده ثلاثة مائة حرف و لم أرض روايته".[2] فأمانة الأصمعي الروائية، دفعت به إلى عدم الاطمئنان إلى ما يرويه حماد، لاشتهاره بوضع من نفسه الشعر على لسان الجاهليين، "فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به" .[3]

و كثيرة ،هي تلك المواقف التي تستدعي الشك في ما قام به حماد من صنيـــع، فنجد ابن سلاّم الجمحي يتهمه اتهاما صريحا، في قول ذهب إليه: "كان أول من جمع أشعار العرب و ساق أحاديثها حماد الراوية، و كان غير موثوق به؛ كان ينحل شعر الرجل غيره، و ينحله غير شعره و يزيد في الأشعار".[4] فعدم الثقة و الركون إلى ما أورد من خبر و رواية شعرية ثابت في

[1]- أبو فرج الأصفهاني ، الأغاني، ج 6،ص :71 و معجم الأدباء،ج 10، ص 259.
[2] - المزهر للسيوطي ، ج2، ص: 406 و الأغاني، ج 5، ص 209.
[3] -د/ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي، ص: 151.
[4] -ابن سلاّم الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ،ص :40 .

هذا النقد أسباب ذكر منها، التزيد و الوضع. فابن سلاّم شكك قبل المستشرقين و بكثير من مدارات الزمن، و هو ما يعزز لدينا الرأي، من أن النقد العربي أقبل على الموروث الشعري العربي بالتمحيص و الغربلة والاستقراء العلمي الذي يؤهل صاحبه للوقوف على نسبة صحة الشعر الجاهلي، و فرز ما ألحق به عنوة من شوائب، قد لا تقوى أمام النقد الموضوعي صمودا. ففي قصة أخرى، نقلا عن ابن الأعرابي، جاء فيها: "قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده، فلا يصلح أبدا، فقيل له و كيف ذلك؟ أيخطئ في روايته أم يلحن؟ قال ليته كان كذلك، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب، لا، و لكنه رجل عالم بلغات العرب و أشعارها و مذاهب الشعر و معانيهم، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل و يدخله في شعره و يحمل ذلك في الآفاق فتختلط أشعار القدماء و لا يتميز الصحيح منها إلاّ عند عالم ناقد و أين ذلك ؟" .[1]

فالتهمة التي طالت حمادا تنقسم إلى شقين، فأولها، يحمل اتهاما بالانتحال و إفساد الشعر الجاهلي بما زيد فيه من قبل حماد، فخالط الزائف الصحيح فهجنه و أخرجه من دائرته الأصلية. أما الثاني، فهو الاعتراف بالعجز بتصفية الدخيل من الأصيل لتضلع حماد في لغات العرب، هذا أولا و خبرته الشعرية و اقتدارا ته في محاكاة النمطية الشعرية الجاهلية و تقمصها، هذا ثانيا، مما لا يتيح لأي كان و لو تخصص في ا لمجال هذا الوقوف على بصمات حماد الوضعية. فأنت ترى أن النقد هذا منته بإقراره بالعجز بالإشارة إليه إشارات صريحة معلّلة، فما مدى تعدّي حمّاد على مصداقية النص الشعري الجاهلي ؟ ما المساحات التي

[1] -أبو فرج الأصفهاني ،الأغاني- ج6- ص: 89. و معجم الأدباء،ج 10،ص 265. و الشعر الجاهلي ل شوقي ضيف- ص: 152.

أضافها لنفسه فيه؟ هل كل ما روي عنه منحول موضوع؟ . فالمظنون أن ليس كل ما روي عن الرجل، أنه موضوع كله، بل أن الانتحال أمر واقع لا يمكن من وجهة موضوعية إبعاده تعسفا، يقال أنه مدح بلال بن أبي بردة بعد سنة 126 بقصيدة، و كان ذو الرّمّة حاضرا، فقال له: "إنها ليست لك، و سرعان ما اعترف بأنها جاهلية"، و غير هذه المناسبة كثير، فالاعتراف صادر عن حمّاد نفسه أما أن نسحبه على كل ما روى، فذك أمر لا يمت إلى الموضوعية بصلة، تبقى الإماءة إلى ظاهرة المحاكاة و نهج البنائية الشعرية الجاهلية، من قبل حمّاد، فبالتضمين نصل إلى أن هناك نمطية شعرية جاهلية ساروا على هديـــها، ومنه تعزيز الرأي لدينا، من أن الراوية حمّادا، كان ما له و ما عليه - فيما ذهب إليه من رواية-، تثمينا لما قام به من جهد إلى جانب غيره من الرعيل الذي أسهم في الحفاظ على الثروة الشعرية الجاهلية.

فبعد محطة حمّاد التي استوقفتنا تاريخية دراسة الرواة المحترفين للشعر الجاهلي، فلابد إلى الانتقال منها إلى محطة تالية، محطة، خلف الأحمر و ذلك لتقاطعات متعددة بين الراويتين، فيها: العلمية و العرقية و التاريخية، فأما العلمية، فالقاسم المشترك فيها، علم الرواية، فالرجلان كلاهما يعدّ مَعلما من معالم الرواية في مرحلتها العلمية، و أما العرقية، فلا يغرب على دارس، أن كلا من حمّاد و خلفا من الموالي، و هما يضربان في بطون تعود في مشاربها الأولى إلى الأصل الفارسي، ولا ينكر ناكركذلك الإضافات النوعية التي أضافها العنصر الدخيل إلى الحضارة العربية، و منه العنصر الفارسي؛ فالدراسات النحوية و اللّغوية وكذا علم الرواية تنضح فارسية، إن شئت التدليل.

أما التاريخية، فنعنـــي بها تعاقب الرجلين زمنيا، فحمّـاد متقدم خلفـــا، و الثاني سار على شاكلته متقفـيا أثره في ظل تأسيس مدرسة السماع الشعــرية، وإن اختلفت النظرة القيمية لكل منهما، فدخول عالم خلف الأحـــمر، نراه نحن من مسألة، تبدو طبيعية، و هي هل أن بلاشير ، فيما ذهب إليه من شك إزاء راويتنا كان محقا؟، أم أن التحامل و الذاتية صبغت النقد بصبغتها؟ نترك الإجابة على هذه المساءلة تأتي استقراء .

فابن سلاّم، يقول في الرجل: "اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعري و أصدقهم لسانا، و كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبرا أو أنشدنا شعرا ألا نسمعه من صاحبه".[1] فشهادة كهذه من ابن سلاّم الجمحي، تجعل منه خبيرا بشؤون الشعر، كما تعترف له بصدق اللّسان، فضلا على أنه يغني عما سواه،في الميدان هذا خصال إن اجتمعت في شخص بعينه أهلته لحيازة سمات توفر له الأمانة العلمية و الأخلاقية، إلاّ أن هذا لم يبعده عن دائرة الشك و التي غذتها كثيرة الفرضيات، فجاءت متعددة المصادر، و كان هو نفسه أحد هذه المصادر، فباعترافه هو، شهد على نفسه إعطاء حمّاد شعرا منحولا ليرويه عنه في غير موضعه. كما أنه متهم بانتحـــال لامية العرب المنسوبة إلى الشنفـرى و التي مطلعها:

أقيموا بني أمي صدور مَطيكـــمْ فإني إلى قوم سِواكُم لأمْيـــلُ [2]

كما لم يسلم من حبال الشك في إضافته لامية تأبّط شراً أو ابن أخته، والتي مطلعها:

[1]- ابن سلاّم الجمحي ،طبقات فحول الشعراء، ص : 21.
[2] -الأمالي للقالي ، ج 1، ص : 106.

إن بالشّعْبِ الذي دون تسلْـــعٍ لقيلاً دمُه ما يُظـــــلٌّ [1]

يقول فيه الأصمعي أنه: "وضع على شعراء عبد القيس شعرا موضوعا كثيرا، و على غيرهم، عثا بهم، فأخذ ذلك عنه أهل البصرة و أهل الكوفة".[2] ففي المقولة هذه نعت حمّاد بما سمي بظاهرة الانتحال، و الذي كان الشعر مضمارا لها، و هو ما لقي ذيوعه بين جمهور البصريين و الكوفيين، على حدّ السواء.

و نخلص باستقراء ما تقدم من نصوص، أن خلف الأحمر واضع ناحل في مواطن اتفق عليها ثقات الراوية و علماء النقد، كما أنه في الوقت نفسه، ظهر صادقا أمينا فيما روى فيما أجمع عليه النقاد ، أما انتقاده من الوجهة السلبية وفقط ، و ذلك بتضخيم معايبه و الوقوف على سقطاته الروائية، فذلك حكم لا نجد له سبيلا لإدراجه في باب النقد الموضـــوعي، الذي يأخذ بأسباب الإيجاب و السلب يعني الـــدراسة و التحقيق بما لها و ما عليها على قدم المساواة.

[1] - ابن عبد ربه ،العقد الفريد،ج 6و د/ شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي، ص : 154.

[2] / شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي، ص : 154.

الخاتمة

إن ظاهرة الانتحال ظاهرة قديمة متجدّدة، فهي قديمة ، كون النقد العربي القديم قد تناولها بشي من الرويّة والتمحيص، فابن سلام الجمّحي في كتابه القيم، طبقات فحول الشعراء، قد تعرض فيه صاحبه إلى دراسة الشعر الجاهلي، ما تعلق فيه بالصحة والشك على حد السواء في دراسة وسمت بالموضوعية ، بما جاءت عليه من مواطن الإثبات والنفي في قضية التزيد التي طالت موروث الشعر العربي قبل ظهور الإسلام.

فباستقراء ما تقدم من نصوص نقف على أن النقد العربي القديم، جاء يرفض رواية الشعر على يدّ رواة لم يحوزوا أهلية الثقة، أمثال ابن إسحاق، وعبيد بن شريّة.

فالرفض هنا قائمة أركانه على نواح منهجية موضوعية في الوقت نفسه، فعدم الثقة في صاحب الرواية هذا من جهة، وعدم الإحاطة بأدوات المعرفة الشعرية وشؤون اللغة العربية من جهة أخرى ، كانت الفيصل في رفض، مثل هذا الشعر الذي أضيف عنوة إلى الشعر الجاهلي .

ولعل العصبية القبلية كانت من جهتها، تذكي كثيرا من هذا الوضع، فنسب شعر- قليله أو كثيره- إلى قبائل، من المعتقد أنها لم تقل شعرا، وذلك لمحاولة إضافة مجد مؤثل تتباهى به أمام القبائل الأخرى.

أما ما جاء يساق، كحجة لإبراز ما صح من شعر جاهلي، فهو ثقة الذين امتطوا أسلوبا علميا يتوخى الموضوعية بدرجة أولى، مثل هذه الطائفة من العلماء الرواة؛ الأصمعي الذي تجشّم الصعب لأجل جمع الشعر الجاهلي، فكان هو لا يقف عند حدود السماع من رواة سبقوه، فكان يزيد عليه الترحال إلى البيئات الأعرابية مصدر هذه الروايات يمحّص ويتأكّد، والأمر ذاته كان يقوم به أبو عمرو الشيباني إلى غيرهما من الرواة الثقـات.. ، كما كان الأعراب- بعضهم-، هم الذين ينتقلون إلى الحواضر، وهو ما يتيح الاستسقاء من مناهلهم الشعرية بطريقة فاعلة، فالحركية هنا تبدو في شكلها الديمومي متكاملة، فسواء كان التحرك إزاء مصدر الخبر أم تنقل هذا الأخير بنفسه إليه، أفرزت هذه العملية في الأخير ثراء التجربة الروائية ونماءها ، وهو دليل نفهم نحن منه إحاطة الرواية الشعرية العربية بسياج من ثقة ترشحها لان تنال الحظوة العلمية التي

تكون رافدا من روافد صحة الشعر الجاهلي، وكان هؤلاء الرواة المدونون لا يكتفون بالسماع من جل الرواة السابقين، بل كانوا يرحلون للاستسقاء من المناهل الأولى حرصا على صحّة شعرهم.

فالنقد العربي القديم في تناوله الظاهرة الانتحالية لموروث الشعر العربي القديم، وقف في محطات نقدية على إثبات هذه الظاهرة، يسوق فيها الحجج التي تؤكد التزيد وإقحامه من دون وجه حق في هيكل القصيدة العربية الجاهلية التي تعاف هي بدورها كل دخيل عن كيانها، وفي محطات أخرى وبأسلوب حجاجي، اعتمد البرهنة كبينة على صحة الشاهد لإثبات شعر صحت نسبته تاريخيا وفنيا إلى فترة ما قبل الإسلام، وهو ما جعل النقد العربي القديم، يبدو موضوعيا- فيما ذهب إليه من طرح - ، كما تعد الظاهرة المتقدمة؛ أي ظاهرة الوضع في الشعر الجاهلي متجددة، كون النقد الحديث اتخذ منها مادة لدراسته، وفي خضم هذا النقد الحديث، موجة الاستشراق التي أطللنا من نوافذها الأربع : "نودلكه" و "اهلوارد" و "مرجليوث" و "بلاشير".

فوجدنا الأول، متزنا الاتزان- بعضه- ، فهو من أوائل المستشرقين الذين تناولوا بالدراسة ظاهرة الانتحال في الشعر الجاهلي، مرجعيته في ذلك ما آل إليه النقد العربي من إفرازات، فاتخذ منها منطلقات له، فهو يرى من وجهة موضوعية يسجلها له، أن ما طال النص الشعري الجاهلي من تغيير، إنما حصل من قبيل التقديم أو التأخير في هيكل القصيدة ليس إلا ! ، وفي مناسبات أخرى قد يمس المحور التبديلي للمفردات أو العبارات .

وما حصل يبدو في إطاره الطبيعي، شأنه شأن الأمم الأخرى التي سجل لها التاريخ ثروة أدبية، كانت قناتها الرواية الشفوية على مر حقب زمانية قد تطول، إلا أن نولدلكه - ومن وجهة نظرنا- قد أغفل الرواية المكتوبة التي، وان لم تحتل المكانة نفسها للشفهية، لا يمكن القفز عليها كحقيقة علمية وتاريخية في الوقت ذاته، فهي قد أسهمت بقسط أو بآخر في تداول الموروث الشعري الجاهلي.

أما الثاني، اهلوارد، فهو إلى جانب نولدلكه، قد أوجد لنفسه موطئ قدم في عالم ثقافة الشعر العربي، ويكون هو الآخر، قد أفصح عن بعض آرائه أو كلها حول صحة

الشعر الجاهلي مستفيدا الاستفادة الحاصلة له مما طرحه ، نو دلكه من رآي في القضية نفسها، فيعترف هو ذاته، أن الحسم في مثل هذه الظاهرة ليس من السهولة بمكان وذلك لتباين الرؤى تحت إملاء أهواء أصحاب هذه الدراسات.

فكان تغير حجم القصيدة واستهلالها وترتيب الأبيات، زيادة على خواتم القصيدة، معالم كان قد اتخذ منها مرتكزات لمسح الشعر الجاهلي بشكوكه في مثل هذه المواقف، وبنى المؤلف شكه على هذه المواقف مجتمعة. إن ما ذهب إليه من رأي، في تفسيره دواعي الوضع في الشعر الجاهلي كونه جمع لشرح القران الكريم والسنة النبوية الشريفة، أمر لا يستسيغه العقل لأسباب نذكر أهمها :

1- ورد في القران الكريم نفسه ما يناقض هذا الرأي ، وذلك في قوله تعالى : وَ الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ "[1] ، وهو ما جعل بعض المستشرقين ممن جانبوا أسباب الموضوعية واجتزؤوا الآية من سياقها العام، يتخذونه كمرتكزات في تسويق حجة كانت تدور بخلدهم ، ألا وهي السعي إلى إقصاء الشعر الجاهلي كله وتلك فكرة كنا قد وقفنا عليها مناقشة في متن هذه الرسالة .

إن القران الكريم، وردت ألفاظه- بعضها- دخيلة على جسم اللّغة العربية، وهو ما يطرح الإشكالية الآتية: كيف يفسر الشعر الجاهلي بلغته العربية القحة، ما ليس منها؟ إلا أن هذه النظرة، لم تكن صحيحة كل الصحة،ذلك أنّ الشعر القديم، قد ضمّ إليه بعض الألفاظ الأجنبيّة -وهي قليلة - سرعان ما ذابت في العربيّة. وفي رأيه عن رواة الشعر الجاهلي، فعن حماد الراوية مثلا، فهو يتكئ في نقده على رأي النقاد العرب، فيقذفه بالزيف المتعمد، وهو ما يستوجب أخذ الحيطة من روايته جميعها: إن اهلوارد، جاء متحاملا بعض التحامل على حماد ؛ لأنه-كما أسلفنا-، فالنقد العربي موضوعيا جاء، وهو ما يعني أن ليس كل ما روى حماد، يعزى على أنه من وضعه، فإن كان ذلك ، فهو في مواطن محدودة بحيث لا ينسحب على رواياته جميعها في الشعر الجاهلي، وهو أمر أقره النقد العربي القديم الذي وظفه هنا "اهلوارد" مبتورا عنوة.

---

1 - سورة الشعراء ،الآية :224.

إن فلسفة "اهلوارد" ، جاءت مبنية على الشك في نسبة القصيدة وفضائها وبنائيتها بما يخدم غرضه، ومجمل القول، حول هذه العقيدة، أنها لم تبن على دعائم قوية تخول لها ولوج عالم الموضوعية، فمثلا يعزي الاختلاف حول قصيدة ما، لافتقادها كثيرا من المعطيات تؤهلنا لاكتساب النظرة الشمولية للوقوف على صحة القصيدة، وهي عوامل قد تبدو بفعل عاديات الزمان في حكم الطبيعي، ولا إلى تخريجات ذاتية، قد ذهب إليها صاحب الفكرة.غير أنّ ما يحفظ لهذا المستشرق ، هو إقراره في نهاية مداخلته بالعجز عن امتلاك أدوات نقدية لا توفر الإضافة النوعية، وهو ما جعله يكتفي بما ذهب إليه من حجة، وعزاؤه في ذلك الرصيد النقدي العربي الذي له من الخصائص المتكاملة لاقتحام عوالم النص الشعري الداخلية وفك شفراته.

إن اهلوارد وبرغم ما وقع فيه من هنات، تتعلق بالعجز اللغوي الذي يرشحه للوقوف على تناقض النصوص ، ومنه ما زيد على الشعر الجاهلي، ضف عدم إلمامه بنواحي الموضوع، يبقى وبرغم كل ذلك من النقود الموضوعية ، كونها شككت في صحة الشعر الجاهلي وفي روايته بعضها لا كلها، وهو ما يدعم لدينا الرأي أن مثل هذه الدراسات ، هي إضافة نوعية إلى النقد العربي، تكون لنا إطلالة مضيئة في قراءة موروثنا الشعري من زاوية قراءة الآخر لنا.

أما مرجليوث، فرحلته مع الشكّ في الشعر الجاهلي-تبدو طويلة- ، تعود فيها المحطة الأولى إلى تحقيق كتاب "إرشاد الأريب" المتداول، تحت عنوان: "معجم الأدباء لياقوت الحموي"، كان ذلك من سنة: 1907 إلى سنة: 1926، وقف فيه على ما حام من شك في مرويات الشعر الجاهلي كـ :"حمّاد" الراوية و"خلف الأحمر" وغيرهما، إلى جانب وباهتمام أقل الرواية التي حازت ثقة العلماء ، إلا أنه إنجاز متطرف صوب سلبية الرواية دونما مراعاة جانبها الإيجابي، والأمر هذا سينجلي أكثر في كتاباته المستقبلية، حول موضوع الانتحال في الشعر الجاهلي، وهو ما يفسر إقحامه تعسفا في كتاباته التي لا صلة لها مطلقا بالشعر الجاهلي، وكمثال على ذلك، ما كتبه في مقالته المعنونة بـ : "محمد".

والشئ نفسه تنسحب عليه الملاحظة ذاتها، وهو ما له علاقة بمؤلفه تحت عنوان : "محمد وظهور الإسلام" ، **"Mohamad and the rise of islam"**، كان ذلك في تاريخ :1905، تناول فيه لغة القران بالبحث، ومن نتائج ما توصل إليه في هذا الكتاب، أن لغة القرآن تشبه إلى حد المطابقة لغة الشعر الجاهلي الذي من وجهة نظره لا يحوز الثقة كصنيع أدبي وثقافي تاريخي، والمظنون لدى مرجليوث، أن لغة القرآن جديدة لا صلة لها بلغة الشعر الجاهلي، وهنا نرى أن مرجليوث يلقي بنفسه في شراك التناقض، وإلا كيف ننظر إلى اللغة في جانبيها التواطئي والاعتباطي، كظاهرة اجتماعية تولد من رحم المجتمع عبر مخاض طويل وعسير، فهل يعقل أن لغة القران خلقت بمعزل عن بيئتها الأم وبما تنطلي عليه هذه البيئة من كل وشائج العلائقية التي تقوي لحمتها وتغذي روافدها أعراف وتقاليد المجتمع العربي الجاهلي?، وهو شأن نراه نحن عاملا موضوعيا ملزما في علاقــة المجتمع باللغة في حركية تفاعلية تفضي فيها الواحدة إلى الأخــرى، دونما توافر أسباب الانفصام بأي وجه من الأوجه.

ويواصل هذه الرحلة فيما صدر عنه من كتابة سنتي: 1906 -1907، الذي وجد فضاء له، مجلة: "الجمعية الملكية الآسيوية"، في بحثه عن الشعر المحمول عن "السموأل"، فكان ينمي فكرة رئيسة مثلت اهتماما لديه دائما ،حول ظاهرة الانتحال ليسهم مجددا سنة:1911، في نشره في المجلة المتقدمة بحثا تحت عنوان : "أصل الشعر العربي"، وهي تختلف عن بحثه، "أصول الشعر العربي" الذي صدر له سنة: 1916، وهو البحث الذي كان موضوع بحثنا في هذه الرسالة.

ألفينا "مرجليوث" في حديثه عن كتاب الخصائص ل: "ابن جني"، يقف فيه على مقطع من المقاطع، يتحدث عن شعر كتب في "الطنوج"، كان موضوعها ، مدح "النعمان"، وهي قصة دفن هذه "الطنوج" في القصـر متحدثا عن كتاب "الخصائص" لـ "ابن جني.

فكان من التخريجات التي توصل إليها "مرجليوث"، هو أن "حماد"، هو من أخرج هذه القصة وكونه مشكوكا فيما ذهب إليه من رواية، يبقى من تحصيل حاصل عدم الاطمئنان إلى هذه الرواية، ليعزز هذا التطرف باسم آخر، وهو "ابن إسحاق" ، فيما

اعتمد عليه من قصائد في السيرة النبوية الشريفة، جاءت كلها موضوعة لا تمت برابط إلى الشعر الجاهلي، ويصل به تطرفه هذا إلى أن باقي الشعر الجاهلي كله الذي خضع لإخراج الكوفيين رواية منسوب إلى "خلف الأحمر" المتهم بالوضع.

وكان من محصلة أعماله المتقدمة جميعها، بحثه تحت عنوان: "أصول الشعر العربي"، والذي وجد مطية له مجلة، "الجمعية الملكية الآسيوية"، سنة: 1925 ، ومنه نستقي تاريخية "مرجليوث" بالشعر الجاهلي بعامة والشك في صحته بخاصة، وصلته بنظرية الإلهام، إلى جانب طرقه أفكارا لها صلة بالقرآن الكريم وبسيرة النبي - محمّد صلى الله عليه وسلم-، والتي امتدت على مساحة من الزمن تناهز ربع القرن، ما جعل أفكاره في المجال هذا، تلقى ذيعها في الأوساط المتخصصة. ضف إلى ذلك ظاهرة المعلقات التي احتلت حيزا لا يستهان به في فضاء هذه المقالة، وهو يحاول التنصل من كل ما قيل إزاء هذه الظاهرة الشعرية، وبعدها نجده، يقف على التراث الشعري ومحمول هذا التراث كقناة وصل أطللنا نحن من نافذتها على هذا الزخم الشعري، فتراه يبدي كثير الصدود لفعل الكتابة في الجاهلية، وهو في السياق ذاته ينكر الإنكار كله، على أن تكون الرواية الشفوية، قد أدت دورها التاريخي في نقل الموروث الشعري وحجته في ذلك ما يلي :

1- إن ما ذهب إليه العلماء المسلمون من رأي، من أن الواسطة التي اعتمدت في حفظ النص الشعري الجاهلي، هي إحدى الطريقتين؛ الكتابية والشفوية، فالكتابية لا يستقيم معها الحال لداعيين: :

- أ -كون الجاهليّ لم يعرف الكتابة قط ، ولو عرفها حقا لوصلنا من مؤلفاتهم الكمّ الهائل.

فأنت تراه في تمرير، مثل هذه الأفكار لا يقدم حججا مقنعة ولا شواهد مادية ترفد رأيه، ففي القران الكريم ما يدل على أن العرب قبل الإسلام مارسوا فعل الكتابة، وبيان ذلك قصة، جمع القران الكريم بالعودة إلى ما كان مدونا في وسائل ذلك العصر، ضف إلى أن عرب الجاهلية، كانوا يقيدون مواثيقهم وعهودهم والديون المترتبة عليهم، كما أن الشعر الأموي الذي ورث بنائية القصيدة العربية جاء يعترف بذلك في أكثر من مناسبة.

- ب- الإقرار بظاهرة التطور الفني للأدب بالبدايات المحتشمة إلى الأكثر نضـجا، فحال النص الشعري الجاهلي في فنيته، يبدو أنه تال للنص القرآني، وهو ما يظهر في سجع القران الكريم، وما جاءت عليه بعض الآيات من وزن شعري، مما جعله يذهب إلى أن هذا كان سببا يرتب الشعر الجاهلي متأخرا فنيا بعد النص القرآني.

إن الشعر الجاهلي تراث فني سبق القرآن الكريم بفارق زماني معتبر، فالذهاب مذهب، أن القران الكريم في أدبياته، هو شعر، قول مردود على صاحبه فالله -عز وجل- وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ "1، فالقران، هو وحي من الله -عز وجل- على نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-، يعلو في الأحوال جميعها عن النص المدنس، فالقران الكريم من إله وحده لا يشاركه فيه العباد -، ولو اجتمعوا كلهم-، يقول تعالى: قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ."2

هذا من الوجهة العقدية، أما من الناحية الفنية، فهو إعجاز يقعد العقل البشري في دائرة حدوده الضيقة التي لا تقوى على مقارعة الإعجاز القرآني، كما أن القران الكريم جاء بنص بما لا يدع مجالا للتأويل، بأن الشعر الجاهلي ظاهرة أدبية سبقت القران الكريم تاريخيا، وإلا كيف نفسر وجود سورة تحمل اسم: "الشعراء"، وفيها حديث عن الشعر والشعراء بما لهم وما عليهم ؟ ، ومنه نخلص إلى أن الأدلة المقدمة من قبل مرجليوث عارية عن الصحة، تعوزها البينة والحجة المقنعة، فهو ينقض نفسه بنفسه حتى فيما ذهب إليه من حجج ؛ لأن الحديث عن الشعر، هو في المحصلة إقرار بوجوده !

2- أما الشفوية ، فهو يرى انتفاءها مرتكزا على أسباب ذكر منها :

- أ- إنكار وجود رواة يخلصون العمل لذلك .
- ب- ذم القران للشعر، وهو سبب كاف للإقلاع عن حرفة الشعر.

---

1 – سورة يس، الآية :69 .

2 - سورة الإسراء، الآية: 88.

- ج- إثارة العصبية وما تثيره من شحناء وتغذية دواعي التفرقة، سبب يضاف إلى ما تقدم للازورار عن عالم الشعر.

إن إنكار وجود رواة محترقين علماء، أمر ليس بمستساغ عقلا، فبقدر ما وجد رواة تسرب الشك إلى مروياتهم، فمقابل ذلك ثبت وجود رواة ثقات أسدوا صنيعا جليلا لتناقل الموروث الشعري وربطه بحلقات تواصل الأجيال حضاريا.

إن القران الكريم إذا جاء يذم الشعراء ، فالحكم هذا ينسحب على بعضهم لا كلهم، فالفيصل في ذلك، هو موضوع الشعر لا الشعر نفسه، فما وافق موضوعه التعاليم الإسلامية السمحة، ورد مقبولا، أما ما نأى عن هذا، فهو مرفوض، فالجانب المضاميني، هو المعيار المحكم سلبا أو إيجابا، قال تعالى: **"الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ "**[1]، نزيد على ذلك أن الشعر- بعضه - ، هو الذي جاء يخضع لمثل هذه المقاييس ، أما ما عداه فلا ينسحب عليه هذا التشريع، فمن الشعر ما اتخذ منهاجا في بسط نفوذ الدعوة الإسلامية، كشعر:" حسان بن ثابت"، و"كعب بن زهير" وأترابهما ممّن سلك سبيلهما.

3- أما الحجة الثالثة التي ساقها، والتي اتخذت من العصبية مادة لتعزيز أسيقّة النفي فكنا قد أشرنا- فيما تقدم-، بأن الإسلام ،جاء هاديا موحدا يؤاخي، غير مفرق أو مشتت، ومنه الإعراض عن كل متن شعري يثير المضامين التي جاء يناهضها.

إننا نرى أن "مرجليوث" لا زال يواصل دربه غير متعمد في الوقوع في نقض الرأي فهو، يرى من جهة، أن الإسلام يحارب الوثنية، ومن جهة أخرى، يسوق إديولوجية ، مؤداها إسلام بعض الشعراء حتى قبل ظهور الإسلام. فأنت ترى معي أن الشعر وثني يرفض لوثنيته، وموحد مرفوض لتوحيده فكيف به يجمع بين النقيضين في الحالة الواحدة ?.

---

[1] – سورة الشعراء، الآيات: 224-227.

تلك تناقضات، وقفنا عليها في مناقشة المستشرق مرجليوث الذي سعى عن قصد أو دونه لنفي ظاهرة الشعر الجاهلي، من وراء نفي روايته الشفوية كتراث فني وأدبي؛ فهو إن أصاب بعض الإصابة فيما طرحه من رأي، فإنه لم يوفّق التوفيق كله؛ لأنه سحب شكوكه على الشعر الجاهلي كله وليس على بعضه، وهو ما أدى به إلى الخروج عن جادة الرأي والانسلاخ عن كثير من المقوّمات الموضوعيّة والعلمية التي تؤهله للخوض في قضية تراثية شائكة، تعني بحلقة تاريخية وأدبية لحضارة الأمة العربية التي جاءت حلقاتها موصولة إلى بعضها في سياقها التاريخي الطبيعي، تتكامل في أي محطة تاريخية كما سبقت مناقشته.

أما بلاشير، فنجده قد اهتم بالموضوع ، ونعني به شفوية رواية الشعر الجاهلي في كتابه ، تاريخ الأدب العربي في عصره الجاهلي، فهو يقر بعض الإقرار بوجود آثار كتابية، ككتابة بعض الأشعار في العهد الإسلامي الأول، وهو ما جعله يبدي آراءه- بعضها-، حول الرواية والرواة، إن سلبا أو إيجابا، وهنا، نسجل نحن له منهجيته الموضوعية، فظهر يتصف بالاعتدال إزاء رواية الشعر الجاهلي على عكس المستشرقين - بعضهم- الذين أنكروا جملة وتفصيلا كينونة الشعر الجاهلي.

إن بلاشير في مؤلفه هذا ، جاء يؤرخ للآداب العربية، مما جعله يتناول بالمناقشة آراء المستشرقين الذين سبقوه في هذا التخصص، وهم : "ندلكه" و"اهلوارد"، بحيث جاء الثاني يتقفى آثار الأول ، لكن بشئ من الإضافة والتحليل، الأمر الذي جعل بلاشير يعتمد أوّ لا على الاستقصاء قبل الانتصار لأي حكم كان، وبقي كثير من المستشرقين يخوضون فيما خاض فيه "نو دلكه" و"اهلوارد" يدورون في دائرتهما لا يتعدون في الأحوال جميعها آراء هذين المستشرقين، إلى أن ظهر "مرجليوت" ، الذي أبدى أحكاما أقل ما توصف ، أنها متطرفة لا تقوم أركانها على أسس المجادلة التي تتخذ المعيار العلمي منهاجا لها فبدت في شكل مجموعة أحكام قيمية تفصح عن ذاتية محض.

ومسيرة "بلاشير"، في بسط أفكار المستشرقين التي اتخذت موضوع الرواية الشفوية في الشعر الجاهلي مادة لها على اختلاف رؤاها وتعدد أطروحاتها ، فمنها ما جاء يقصي التراث الشعري الجاهلي، ومنها ما جاء يعترف ببعضه على حساب بعضه

الآخر على فرضية أن كثيرا من النصوص الشعرية، بقيت عذراء تفصح عن مكنون هذا الموروث بكل صدق وأمانة.

وفي مقارنة عقدها "بلاشير"، بين مجهودات الدارسين حديثا، وبين النقاد المسلمين، نجده فيها يتشيع للإضافة النوعية والمنهج الحصين اللذين طبعا مجهودات المحدثين، وبرغم كل ذلك بقيت الميولات والأهواء في كثير من الأحوال تسم البحث بميسمها، وهو يعود إلى عدم تقديم الأدلة في تفسير التشيع لمذهب ما.

يرجع "بلاشير" ذلك ، إلى عدم التمكن من الدراسة الأساليبية واللغوية التراثية، وهو عجز يقعد الباحث عن بلوغ المرام؛ فـ" المفضل الضبي" عجز هو نفسه عن فرز ما لحماد وخلف فما بالنا نحن ؟ !

يلفت انتباهنا "بلاشير"، إلى أن اللغة الموحّدة في الشعر الجاهلي، خرافة لا ينبغي الركون إليها، ومن ثمّ، فاستقصاء النصوص الشعرية، لا يجب أن يظل حبيس العصر الجاهلي فقط،، وإنّما وجب ربطه أيضا بالآثار الإسلامية التي أعقبت هذا العصر مباشرة، كما يجب أن تدرس ظاهرة انتحال النصوص النثرية كذلك ،لأنّ الانتحال لم يقتصر على جنس دون آخر.

لكنّه يرجع مقراً بأن الوسائل النقدية المتوفرة لاتتيح له ولا لغيره لاكتساب أدوات نقدية ترشح للحسم حكما في الموضوع، وبرغم ذلك، يميل إلى غربلة الشعر الجاهلي، بغية الحصول على صفوته. وتبقى مجهوداته في هذا الشأن لا تخرج عن دائرة الذاتية.

وكتعليل على توظيف اللغة الواحدة، وإن تعددت لهجات القبائل، فمرد ذلك إلى اجتهادات الرواة الذين سعوا السعي كله ليظهروا القصيدة الجاهلية في ثوب لغوي واحد.

ويقف بلاشير عند ظاهرة التصرف التعسفي من قبل المستشرقين- بعضهم- ، في إقصاء الشعر الذي ينضح وثنية، كونه يتعارض والمعتقد الإسلامي فـ "بلاشير" ذاته لم يقنعه الطرح الذي ذهب إليه هؤلاء المستشرقون؛ لأن بقايا الوثنيّة ما زالت تميز بعض القصائد الجاهلية.

كما نجد "بلاشير"، يعترف، بأن النص الجاهلي بكل ما ينطوي عليه من تداعيات ظاهرية وباطنية، لا زالت تكتب له الحياة إلى يومنا هذا، ، وتبقى الإشكالية المطروحة

والتي تثير السؤال الآتي، ما مدى نسبة الصحة والشك في هذا الأثر الشعري؟ فنسبة الزيادة أو النقصان والفصل فيهما ضرب من ضروب المستحيل .

وهناك إشكال آخر ظهر للرواة، ونقصد به ما جاء يثير الاختلاف- بعضه - ، حول ظاهرة ترتيب الأبيات، وهو ما أفرز صعوبة مثلت قائمة أمام جمهور المتعاطين معها دونما تقديم بدائل لها.

إن الشعر العربي يبقى يحتكم في وحدته العضوية إلى طبيعة البيت الواحد الذي ينشئ لنفسه استقلالية معنوية تقيم له فضاءه الخاص، وهو الأمر الذي يؤول بنا إلى أن تقديم بيت أو تأخيره في القصيدة الواحدة لا يثير أي اختلال ذا بال في السياق العام لفضاء الشعر. ، ومن اللافت أن نقف على تعدد الرواية للنص الشعري الواحد ، وبيان ذلك عائد في كنهه إلى عاديات الزمان التي تفعل فعلتها في تواتر الرواية الشفوية وينشئ بعض هذه الروايات استثناء فيما كانت الرواية الكتابية قناة له، وما انجر عنه من تحوير مس المترادفات، وبرغم ذلك كله، يبقى ما تقدم أمرا نراه طبيعيا.

ويخلص "بلاشير" في نهاية أمره، إلى إبداء رأي بشان ظاهرة الانتحال ومقارنتها بحجم الصحة في الموروث الشعري الجاهلي ، فعند إجراء هذه المقارنة بين هذا الموروث وشقيقه الأموي يهتدي إلى التتابع الخطي والزمني الذي لا يكاد يفصل هذه عن تلك.

يستند "بلاشير"، في ترسيخ فكرة العجز عن فرز الأصيل من الدخيل إلى فكرة النقاد العرب القدامى ، وتحديدا "المفضل الضبي"، وتحاملهم على "حمّاد االراوية" الذي كان له الوزر الكبير فيما لحق الشعر العربي من شكوك وافتراءات، بحيث لا يتسنىّ معرفة الأصيل من الدخيل إلاّ لمن كانت له دربة ودراية به.

نفضي بعد ذلك كله إلي أن المستشرقين في تناولهم الشفوية في الشعر الجاهلي، بدت فيها مستويات خطابتهم النقدية تتعدد وتتباين في الوقت نفسه، من معتدل إلي متعسف، فالجزء الأول مثله الاستشراق الألماني، عند "نودلكه" و"اهلوارد"، أما "مرجليوث" الانجليزي فجاء يتشطط الرأي، يسوقه لإثبات حجج واهية، لا تقوي أن تقارع حجة العقل ، فشكه جاء لأجل الشك ليس إلا، وهو هنا يمثل جانب ، المغالاة في

الرأي، أما "بلاشير"الفرنسي ، فوردت آراؤه سردا لما طرحه غيره من المستشرقين من تصورات .

وتبقي مجهودات المستشرقين في مواطن التعثر مستساغة، علي اعتبار أنهم يكتبون بلغة غير لغتهم، وعن حضارة لا ينتمون إليها؛ فالشفوية أمام مثل هذه العوائق، قد لا تكون بالأمر الهيّن،ذلك أنّ علم الرواية الشفويّة خاصيّة تميّز بها العرب دون سواهم.

ومن كل ما سبق، نبقي ندين بكثير الولاء لجهود بعض المستشرقين الذين أطّروا تراثنا ومنهجوه، فمن أصقاعهم المختلفة انطلقت هذه الحركية وبدأ التراث العربي حداثيا في طبعته الاستشراقية التي أثرت بشكل أو بآخر في تفكير الجيل العربي الذي أخذ بأسباب البحث في الموروث العربي. ثم أن هناك أثرا إيجابيا لفعل الاستشراق، وهو ما ظهر في الردود -وإن تأخرت-، فهي أثرت في الساحة النقدية العربية ردا على استفزازات الخطاب الاستشراقي، فهي في المحصلة دفع وليست تأخرا في حراك التفاعل الثقافي الإنساني في مفهومه الشمولي !!

قائمة المصادر و المراجع :

- د / الأسد ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، ط.6، 1982.
- د / البدوي أمين عبد المجيد، القصة في الأدب الفارسي، دار المعارف، بدون طبعة، 1964.
- بدوي عبد الرحمن،

د/ دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، ط.1، 1979.

د/ موسوعة المستشرقين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.

- د/ إبراهيم الأبياري، دراسة الشعراء، امرؤ القيس، الأعشى، النابغة، زهير، الحطيئة، المكتبة التجارية الكبرى، ط.1، القاهرة، 1944.
- د / إبراهيم عباس، شرح ديوان عنترة بن شدّاد، دار الفكر العربي، ط.2، بيروت، 1998.
- د / إ براهيم علي أبو الخشب، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون طبعة، القاهرة، 1992.
- د/ بروكلمان كارل، تاريخ الأدب العربي، ت. عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط.3، مصر، بدون تاريخ.
- د/ لبغدادي، خزانة الأدب، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- بلاشير ريجيس، تاريخ الأدب العربي، ت. ابراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر، بدون طبعة، 1986.
- د/ ا لبهي محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، دار الفكر، ط.6 ،بيروت، 1972.

- د/ بهادي منير، الاستشراق والعولمة الثقافية، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط.2، 2004.
- د / بوفلاقة سعد، دراسات في الأدب الجاهلي، النشأة والتطور والفنون والخصائص، منشورات جامعة باجي مختار، بدون طبعة،عنابه، 2006.
- اد/ لبيضوي ، تفسير البيضاوي، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د / تايغم فان، ت. سامي مصباح الحسامي، منشورات المكتبة العصرية، بدون طبعة، بيروت، بدون تاريخ.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر:
  - البيان والتبيين، دار الفكر، بدون طبعة، 1968.
  - الحيوان، تحقيق وشرح محمد عبد السلام هارون، المجمّع العربي الإسلامي، منشورات محمد الرّاية، بدون طبعة، 1950/1949.
- الجمحي محمد بن سلام، طبقات الشعراء، إعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث العربي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، بدون تاريخ.
- د/ جمعة بديع محمد، من روائع الأدب الفارسي، دار النهضة العربية، ط.2، بيروت، 1983.
- د / لجندي أنور:

- الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب، مطبعة الرسالة، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- سموم الاستشراق والمستشرقون في العلوم الإسلامية، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، بدون تاريخ.

- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ جيمس مونرو، النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، ت. فضل بن عمّار العماري، دار الأصالة، ط.1، الرياض، 1987.

- د / حاوي إيليا، في الأدب و النقد، بدون طبعة، 1983.
- د/ حسين محمد الخضر، الخيال في الشعر العربي، جمع وتحقيق علي الرضا التونسي، المطبعة التعاونية، ط.2، 1972.
- د/ لحموي ياقوت، إرشاد الأديب، ج.2، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ ابن حنبل أحمد، مسند ابن حنبل، ج.2، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د / حنفي حسن، ماذا يعني علم الاستغراب, دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط.1، بدون بلد، 2000.
- د/ لخطيب محمد أحمد، مقارنة الأديان، دارالمسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط.1، بدون بلد، 2008.
- د/ خليل إبراهيم صاحب، الصورة السمعية في الشعر العربي قبل الإسلام، اتحاد الكتاب العرب، بدون طبعة، دمشق، 2000.
- د/ حمودة عبد الباسط أحمد، تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، بدون طبعة، القاهرة، 1991.
- د/ لخويسكي كامل وسالم عبد الرزاق سليمان، في الشعر الجاهلي، دراسة ونصوص، دار المعارف الجامعية، بدون طبعة، بدون بلد.2007.
- د/ الرافعي مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، راجعه درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بدون طبعة، بدون بلد، 2007.
- د/ روزيتال فراترا وأنيس فريحة ووليد عرفات، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، دار الثقافة، بدون طبعة، بيروت، 1961 .
- د/ رينولد نكلسن، تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية وصدر الإسلام، ت. صفاء خلوصي، مطبعة المعارف، ط. 1، بغداد، 1969.
- د/ زفزوف محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف. بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ لزمخشري، ج.2، بدون طبعة، بدون تاريخ.

- د/ زيدان جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، ج.1، بدون طبعة، بيروت، 1978.
- د/ لزوزني، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين، شرح المعلقات السبع، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بدون طبعة، بدون بلد، 1969.
- د/ سخنيني عصام، المستشرقون ومصطلحات التاريخ الإسلامي، تحليل ونقد، دار جرير للنشر والتوزيع، ط.1، بدون بلد 2007.
- د/ لسفياني عابد بن محمد، المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة وشمولها، دراسة وتطبيقا ، دار المنايرة، ط. 2، جدّة، 1992.
- ابن سعد:
- - الطبقات الكبرى، ج.3، دار صادر، بيروت، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- - تقييد العلم، ج. 3. بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د / سعيد ادوارد:
- - تعقيبات على الاستشراق، ت. صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.1، بدون بلد، 1996.
- - الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، ت. كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط.5، بدون بلد، 2001 .
- د/ سليمان الأحمد أحمد، عشر معلقات في الجاهلية الأخيرة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، بدون طبعة، دمشق، 1980.
- د/ سماعيل عز الدين، المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، دار المسيرة، بدون طبعة، عمّان، 2003.
- د/ سمايلوفيتش أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، بدون طبعة، القاهرة، 1998.
- د/ لسيوطي جلال الدّين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وتعليق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بدون طبعة، 2004.

- شاتلية .ا. ل. لخصها، و ت. محب الدين الخطيب، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط.4، 1985.
- د/ الشامي أحمد بن محمد، الأدب اليمني، نقد و تاريخ، دار الشروق، بدون طبعة، بدون بلد، 1974.
- د/ لشكعة مصطفى، معالم الحضارة الإسلامية، دار العلم للملايين، ط.4، 1982.
- د/ شكيب أرسلان، الشعر الجاهلي أمنحول أم صحيح النسبة ؟ تحقيق محمد العبدة، دار الثقافة للجميع، ط.1، دمشق، 1980.
- الأصفهاني أبو فرج، الأغاني، تحقيق و إشراف لجنة من الأدباء، دار الثقافة. ط.6.
- د / ضيف شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط.10، بدون تاريخ.
- الطبري، تاريخ الطبري، ج.2، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د / طه حسين:

- في الأدب الجاهلي، دار المعارف، بدون طبعة، بدون تاريخ.

- الأدب العربي، العصر الجاهلي و العصر الإسلامي، دار العلم للملايين، مج.1، ط.4، بيروت، 1981.

- د/ عباس إحسان، ملامح يونانية في الأدب العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ عبد الرحمن عفيف، الشعر الجاهلي، حصاد قرن، دار جرير للنشر والتوزيع، ط.1، بدون بلد، 2007 .
- د / عبد الغنييسري، ديوان قيس بن الملوّ ح، دار الكتب العلمية، ط.1، بيروت، 1999.
- د/ عبد القادر هني، دراسات في النقد الأدبي عند العرب من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، بدون طبعة، 1995.

- د/ عبد المجيد إبراهيم إياد، الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي، دار الشؤون الثقافية، بدون طبعة، بغداد، 1989.
- د/ لعقيقي نجيب، المستشرقون، دار المعارف، ط، 4، بدون تاريخ.
- د / علي أحمد الخطيب، الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين، مكتبة الدار العربية للكتاب، بدون طبعة، القاهرة، 2003.
- د/ علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ عمايرة إسماعيل أحمد، المستشرقون والمناهج اللغوية، بدون دار طباعة، بدون طبعة، عمّان، 2001.
- د/ فاجر ايفالد، أسس الشعر الكلاسيكي، الشعر العربي القديم، ت. سعيد حسن بحيري ، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، ط.1، بدون بلد، 2008.
- د/ الفاخوري حنا، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، ط.10، بدون بلد، 1980.
- د/ فضل صلاح، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، ط.1، بدون بلد، 1997 .
- القالي ، الأمالي، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- القرشي أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، شرح وضبط وتقديم علي فاغور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط. 3، بيروت، 2003.
- القفطي، إنباه الرواة، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ القيومي محمد إبراهيم، الاستشراق رسالة الاستعمار، دار الفكر العربي، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ كارلو نالينو، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية، دار المعارف، بدون طبعة، القاهرة، 1954.
- لايال، ديوان عبيد بن الأبرص و مصادر الشعر، ت. حسن نضار، بدون طبعة، بدون تاريخ.

- المبرّد:

- الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، بدون طبعة، القاهرة، 2004.

- الفاضل، بدون طبعة، بدون تاريخ.

- د/ محمد علي أسعد ، شرح ديوان المهلهل، دار الفكر العربي، ط.1، 2000، بيروت.

- د/ محمود عبد الحليم، أوروبا والإسلام، المكتبة العصرية، بدون طبعة، بيروت، بدون تاريخ.

- د/ مراد يحيى، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتاب العلمية، ط.1، بدون بلد، 2004.

- مرجليوث د. س، أصول الشعر العربي، ت. يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ط. 1، 1978.

- د/ مرحبة محمد عبد الرحمن، أصالة الفكر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائريّة، ط.2، 1973.

- د/ مرزوق حني، النقد و الدراسة الأدبية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بدون طبعة، بدون بلد، 1972.

- مروة حسين:

- النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي، ج.1، ط.4، بيروت، بدون تاريخ.

- دراسات نقدية في ضوء المنهج الواقع، مكتبة المعارف، بدون طبعة، 1977.

- د/ مصايف محمد، جماعة الديوان في النقد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، بدون طبعة، الجزائر، 1982

- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وضبط عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بدون طبعة، بيروت، 2005.

- ابن منظور، لسان العرب، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط.1، بيروت 1988.
- د/ لموسوي محسن جاسم، الاستشراق في الفكر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بدون طبعة، 1993.
- د/ ناصف مصطفي، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس، ط.3، ليبيا، 1981.
- د/ نجدي نديم، أثر الاستشراق في الفكر العربي المعاصر عند ادوارد سعيد، الفارابي، ط.1، بدون بلد، 2005.
- د/ ندا طه، الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بدون طبعة، بيروت، 1975.
- ابن النديم، الفهرست، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ نشاوي نسيب، المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعيّة، بدون طبعة، الجزائر، 1984.
- هونكه زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، ت. فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، ط.8، بيروت، 1993.
- د/ بو يوسف ، كتاب الخراج . بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ سالم يفوت، حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي، المركز الثقافي العربي ، ط.1، بدون بلد، 1989 .

الدواوين الشعريّة:

- د/ الأسكندراني محمد ونهاد رزوق، ديوان امرئ القيس، دار الكتاب العربي، بدون طبعة، بيروت، 2007.
- د/ الجبيلي سجيع جميل، ديوان أمية بن أبي الصلت، دار الطبع، ط.1، بيروت، 1998.

- د/ الحتي حنا ناصر، ديوان النابغة الذبياني، دار الكتاب العربي، بدون طبعة، بيروت، 2007.
- المفضليات، تقديم و شرح و تعليق محمد حمود، دار الفكر اللبناني، بدون طبعة، 1998.
- د/ عبد الساتر عباس، ديوان النابغة الذبياني، دار الكتب العلمية، ط.1، بيروت،2004
- عمرو بن كلثوم، دار الصادرة، بدون طبعة، بيروت، بدون تاريخ.
- د/ قباوة فخر الدين، ديوان سلمي بن جندل، دار الكتب العلمية، ط.2، بيروت، 1978.
- ابن قميئة عمر، ج.2، بدون طبعة، بدون تاريخ.
- د/ ناصر الدين مهدي محمد:
- - ديوان طرفة بن العبد، دار الكتب العلمية، ط. 2، بيروت، 2002.
- - ديوان الأعشى الكبير، دار الكتب العلمية، ط.2، بيروت، 1993.

المجلات والدوريات:

- أبولو، مج.2، ع.9، القاهرة، مايو، 1934.
- المشكاة، ع. 98 ، القاهرة، فبراير 1965.
- كلية الآداب مج60، ع،3، القاهرة، يوليو 2000.
- الفكر العربي ع. 32، بيروت، نيسان، حزيران، 1983.
- مجمع اللغة العربية الأردني، ع.40، عمان، كانون الثاني، حزيران 1991- ع. 19، 20، 1983.
- الموقف الأدبي، ع. 118، دمشق، شباط 1981.
- أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، أربد، الأردن، مج.1، 1983.
- العربية للعلوم الإنسانية، مج.2، ع.6، 1982.

- المورد العراقي، مج.9،ع.3، 1980.
- عالم المعرفة، ع. 207، الكويت.
- دراسات، الجامعة الأردنية، مج. 6، ع.2.
- فصول، مج. 4، ع. 2، 1984- مج. 1، ع 1. ع. 2، 1981، 1983-
- المعرفة، ع. 195،، دمشق، ماي 1978- ع. 196، دمشق، يونيو 1987-
- سلسلة كتب الثقافة المقارنة الاستشراق، ع.1، 1987.
- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- المغرب في الدراسات الاستشراقية مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، مراكش أبريل 1993 .
- المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة عمان.
- بونة للبحوث والدراسات، ع. 3، يونيو2005.
- الملكية الآسيوية، ع. 2، يوليو 1925 .

المراجع باللغة الفرنسيّة.

Maurice Bucaille

la bible le coran et la science, les écritures Saintes examinées à la lumiére des connaissances modernes.

.Quatorziéme édition revue et corrigée.

Sechers, paris 1978.

6,place Saint,Suplice

75006 Paris .

فهرست

مقدمة :	**أ – هـ .**
مدخل :	**1 – 11 .**
الفصل الأول :	**12 - 31**
الرواية العربية	
الفصل الثاني :	**32 - 64**
الرواية وموقف نولدكه	
عرض آرائه	
نقد نودلكه	
الفصل الثالث :	**65 - 109**
الرواية وموقف ألقرت	
عرض آرائه	
نقد القرت	
الفصل الرابع :	**110 - 150**
الرواية وموقف مرجليوت	
عرض آرائه	
نقد مرجليوث	
الفصل الخامس :	**151 - 190**
الرواية وموقف بلاشير	
عرض آرائه	
نقد بلاشير	
الخاتمة :	**191 - 203**
قائمة المصادر والمراجع	
المصادر و المراجع	**204 - 214**
الفهس :	**215**